محمد جواد مغنية

فلسفة التوحيد والولاية

2272
208
3335

Princeton University Library
32101 074076546

Maghniyah, Muḥammad Jawād

محمد جواد مغنية

فلسفة التوحيد والولاية

جميع حقوق الترجمة والطبع محفوظة

(RECAP
2272
.208
.3335

الناشر مرکز مطبوعات دارالتبلیغ الاسلامی
قم ـ ایران
چاپ حکمت ـ قم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمّد وآله الطاهرين

العودة الى نقاش الجاحدين

وبعد :

فان هذا الكتاب واحد من تجاربى التى مررت بها، اومرت بى... وبه تبلغ مؤلفاتى الاربعين، طبع منها ونشر اكثر من خمسة وثلاثين.. و كنت قد تصورت نفسى انها طلقت التاليف ثلاثا، وانها لن ترجع اليه ابدا بعد «التفسير الكاشف» وما خطر بالبال وطاف بالخيال ان اعود الى نقاش الجاحدين بالتوحيد، والنبوة، والولاية، واليوم الاخر، كيف وقد سبق ان كتبت واذعت فى هذا الموضوع مرات ومرات؟.. وهو ـ أى النقاش فى الاصول الاربعة ـ موضوع كتابى هذا الذى شاء سبحانه ان يكون، فهيأ اسبابه...

2-29-72 1945

استفت قلبك

اجمع النحاة ومعهم علماء المعانى والبيان أن كل خبر مكتوبا كان اومنطوقا فهو يحتمل الصدق والكذب، وبخاصة اذا كان المخبر يتحدث عن نفسه، وبصورة اخص اذا كان شغوفا ومولعا بالكلام عن عبقريته ، حيث يكون الحديث عند ئذ مجرد ادعاء يحتاج الى اثبات.

وقد اكون انا هذا الشغوف المولع دون ان احس واشعر... ومع هذا لا يحق لاحد اياكان ان يطالبنى بالبينة، لسبب بسيط، وهو انى لا اطلب من القارىء ان يقتنع على كل حال، بل ادعه ومايحس من قلبه، ويكتشف بنفسه من خلال السطور والكلمات... ولا يهمنى ابداً ان يشك ويرتاب مادمت على يقين مما اقول.

انا والقارىء

كنت، وانا اكتب التفسير الكاشف كلاعب الكرة، يركض وراءها أنى تتجه، ولا يقف لحظة واحدة ليلتقط نفساً من انفاسه... آية لا تتجاوز كلماتها عدد الاصابع ـ ابحث وانقب فى العديد من المصادر لافهم المراد، ومتى وثقت بانى صرت من اهل الفهم والعلم بما تعنيه الاية حاولت جهدى ان اعبر عنه باسلوب واضح، لا تصنيع فيه، ولا تطويل كى يستسيغه القارىء، ولا يمله.

وانا احب قارئى كثيرا حتى ولو انتقدنى واعرض عن افكارى... لانى لولاه ما فكرت ولا كتبت.. ومن أجل هذا أحرص على متابعته لى حتى النهاية، واقلق اليه ـ ماامكن ـ خوفا ان يتركنى الى غير رجعة، ولا سلطان لى على قلبه وعقله الا بما ينسجم مع ذوقه وطبعه.. وأية جدوى من كتاب لا يقرأ، ومن قول لا يسمع.

وخير وسيلة لاغراء القارىء ان يخاطبه الكاتب بالحقيقة، ويصوغها بشكل طبيعي، ولا يتظاهر أمامه بغير ما يؤمن ويدين، وأعني بالحقيقة كل ما يتصل بحياة الناس، وينبع من حاجاتهم .. وأية فكرة نتجاهل هذه الحقيقة فما هي من الدين والعلم في شيء. اما الشكل الطبيعي فالمراد به ان يجري الكاتب على فطرته وسجيته ولا يتعمد الصنعة وزخرفة الكلام، ومتى استمر على ذلك نما اسلوبه شيئا فشيئا، واصلح نفسه بنفسه.

نجاحي كمؤلف

قد يظن القارىء وغير القارىء ان نجاحي ككاتب او كمؤلف اسلامي يعود فقط الى ما أشرت.. اما انا فاظن ان الكاتب الاسلامي لا ينجح، ويستحيل ان ينجح الا مع هذه الشروط بالاضافه الى ما تقدم:

الاول : ان يكون على علم او الما م بالتيارات والمذاهب الفكرية الحديثة، ومدى سلطانها وتاثيرها في هذا العصر.

الثاني: ان يفهم الاسلام على حقيقته، وانه سهل يسير ومفهوم لكافة الناس، وان تعاليمه من الالف الى الياء اساسها الاخلاص، والعمل الصالح، ثم يعرضها بايجاز ووضوح، ويدفع عنها ما اثير او يثار حولها من شكوك وشبهات.

الثالث : ان يكون عالما بعيوب المجتمع الاسلامي واوضاعه، كالتعصب الاعمى، والتمسك بالقشور، والايمان بالبدع، واللامبالاة بالصالح العام، وغير ذلك مما يبرأ منه الدين والعلم، ويأباه العقل والضمير، وان

ينقدهذه العيوب والاوضاع بجرأة واخلاص، ويذكر مايراه كفيلا بازالتها(١).

نفثه مصدور

خاطبت القارىء بما اعتقد، وظهرت له على حقيقتى لفظا ومعنى فى كل ما كتبت ونشرت، فتقبلنى على علاتى، واقبل الشباب والشيوخ على مؤلفاتى، واهتمت بها اكبر دار للنشر فى الشرق العربى، وكنت ومازلت اقبض منها فى كل سنة بالالاف لا بالمئات، فغبطنى البعض، وحسدنى آخرون.

واقسم لاولئك وهؤلاء انى ارثى لحالى، واحزن على نفسى، واود من اعماقى لو كنت راعيا اوحطابا.. وانتهيت الى هذه الامنية بعد العمر الطويل، والتجارب القاسية، وفى كثير من الاحيان كان يخيل الى ان حياتى هباء و ان نشاطى فى التاليف وهم، وانى تماما كالالة الصماء، اتحرك من غير شعور.. من اين جاء هذا الخيال وكتبى تعود على بكل خير!.

الله اعلم.. ومعذرة من هذه الثرثرة ... انها نفثة مصدور.

الفرار

واخيرا، وبعد اربع سنوات امضيتها مع التفسير الكاشف تم بعون الله وتوفيقه.. فسجدت له شكرا، واهتز قلبى فرحا، وكنت فى اسعد لحظة من حياتى وقلت: لا تاليف ولا عمل بعد اليوم.. ابدا الاشىء الا الراحة و

(١) دارت فى رأيى فكرة قبل سنوات، وتعاودنى من حين لاخر، وهى ان اصدر مجلة باسم «هدم وبناء» وابوابها الرئيسية ثلاثة، وما عداها ثانوى جانبى: الباب الاول الدفاع عن الاسلام. الثانى تبسيط و توضيح مبادئه و تعاليمه. الثالث نقد العيوب، وهو المراد بالهدم وبيان ما يجب اتباعه على شرط الاسلام وهو البناء واذا حالت الظروف بينى وبين هذه الفكرة اوالأمنية فعسى ان يتاج لها من هو كفؤ واهل.

السياحة، فلقدعلت بى السن، وكفانى مالاقيت..ولابدمن جوجديد،لاعواصف فيه ، ولاقذائف .. وصممت أن اموت بلامتاعب وهموم ـ ان امكن ـ وقال لى اخ يعلم حالى : يستحيل ان تدع التاليف ، وستعود اليه من حيث لاتريد .. والمسالة قضية وقت،كيف وقداصبح التاليف لك طبعا ، ومن وجودك جزءا، وسترى .. فرددت الصدر على العجز ،وقلت له : انت الذى سيرى .

ولكن من اين ابدأ الترحال؟ ومالبثت حتى سافرت الى مدينة اسوان، وامضيت فيهاوفى القاهرة حوالى شهر ، وفكرت ان ابقى فى مصر حتى النهاية ، ولكن اوضاع الحرب بينهاوبين اسرائيل منعتنى من التنفيذ .. والانسان تصوغه احداث البيئة التى يعيشها ، ولن يتحرر منهابحال ، وان حاول .

الى قم

عدت الى بيتى ومكتبتى لاتساءل من جديد: اين القى بمتاعبى وهمومى وهل يتاح لى ان اتمتع بالبقية الباقية من ايامى التى تقصر وتذهب مع الثوانى والانفاس ! . وتردد هذا التساؤل فى نفسى اياما ، وبقى قائما من غير جواب الى ان تلقيت دعوة من المرجع الدينى آية الله شريعتمدارى ؛ يرغب الى فيهاان ادرس فى دار التبليغ ،فوقفت منهاحائرا :هل اقبل،اوارفض ! وبقى هذا التساؤل اكثر من شهر .. ثم اوكلت الامر اليه تعالى وسالته باخلاص ان يختارلى مافيه الخير والصلاح دنيا وآخرة، واستفتحت بكتابه المجيد، فواجهتنى هذه آية : «وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين ـ ٩٩ الصافات ».

وفسرتها بما ينسجم مع امنيتى ، وهى الهداية الى سبيل الصفو و الهدوء والراحة والتحرر من الهموم والمتاعب ، وماخطر فى بالى كتاب،

فلسفة التوحيد والولاية ، وانه قد ينتفع بي طلاب دار التبليغ وغيرهم من الذين يوجهون الاسئلة الي؛ ويثقون باجوبتي ومعرفتي..وعلى اية حال فقد اجبت الدعوة على شرط ان اسافر الى قم على حسابي، وبصفتي زائرا لا مقيما، وادرس الاوضاع فيها عن كثب ؛ وعلى ضوئها اقرر الايجاب او النفي ، ولما قبل الشرط عزمت وتوكلت، وقد استهوانى بقم اكثر من اى شيء الحركة العلمية، فمن حلقات لدروس الخارج الى اخرى لدراسة السطوح ؛ وثالثة لتفسير القرآن ؛ ورابعة لنهج البلاغة ؛ ومن المحاضرات الاسبوعية هنا وهناك الى النشرات الدينية لتربية الجيل؛ وليظل أرتباطهم بدينهم حيا وقويا .

اما دار التبليغ فرايتها تعج بالاساتذة والتلاميذ ؛ هذا يلقى الدرس على طلابه ، وذاك يسأل ويذاكر ، وثالث مكب على القراءة والمطالعة ، و رابع يترجم من لغة الى لغة ، وخامس يضرب على الآلة الكاتبة ، و سادس يراقب الاعمال ، ويهتم بشئون الطلاب وحل مشاكلهم ، فعزمت ان اخلص لهذه الدار ، وان اضاعف العناية بطلابها جهدما استطيع مادمت فى ايران؛ وان لا اقيم اية علاقة مع انسان الا على اساس العلم ؛ وان لا استمع لاحاديث السياسة والتحزبات ، اوادخل فيها .. ومضيت على هذا العزم و التصميم وسابقى معه مادمت بعيدا عن وطنى .. وليقل صراصير الدمن ماشاء لهم اللؤم والضغن.. فلقد الفت الشائعات المغرضة حتى اصبحت عندى كلاما فارغا لا تعنى شيئا ؛ اوانها تعنى غيرى .

ومهما يكن فقد تقرر ان ادرس فلسفة العقيدة ، والفقه المقارن على المذاهب الخمسة ؛ وقلت لآية الله شريعتمدارى :كيف ادرس باللغة العربية،

والطلاب لايفهمونها . قال: يفهمون ، وان صعب عليهم الكلام والتحدث . قلت : قد يفهمون مايقراون ، ولكن هل يفهمون مايسمعون ؟ .فاعاد كلمة يفهمون واكدها .

وفي ذات يوم قلت للطلاب ، وانا القي الدرس :اتمنى لو عرفت الفارسية لادرسكم بها.. قالوا :نحن لانرضى ؛ لان استماعنا الى اللغة العربية يساعدنا على التحدث بها، ويصحح الكثير من تعابيرنا العربية .. ودرسك يجمع بين هذه الفائدة وبين ماتهدف اليه ..ثم اتضحت الحقيقة عند الامتحان في نهاية السنة الدراسية، حيث نجح من تلاميذي الذين كتبوا باللغة العربية بنسبة ٩٨ ٪. وتبين لي ان العديد منهم يجيدون هذه اللغة كتابة كابنائها؛ وعندئذ تنبهت الى ان الانسان يستمع بوصفه متكلما، لا بصفة ان له اذنين وكفى، وانه اذا استمع الى غير لغة الام ركز اهتمامه على فهمها من حيث يريد ؛ اولا يريد.

وبعد ان رسمت هذه الصورة للمجتمع العلمي القمي على ما هو... بعيداً عن الميول والتحيز ـ ابدي هذه الملاحظة بقصد التنبيه فقط ، وهي ان المجتمع الديني بقم ـ على وجه العموم ـ كغيره من المجتمعات الدينية الاسلامية يعيش في عزلة عن الاحداث والتيارات العالمية نتيجة التركيز على القديم شكلا ومحتوى.. ولو كان مع تلك الجهود القيمة توجيه صحيح لطرأت تغيرات كثيرة ونافعة دنيا وآخرة.. وعسى ان يتاح لهذا المجتمع من يوقظه من غفوته، ويوجهه الى الطريق القويم.

والذي تجدر الاشارة اليه ، بل وتجب ان الجهات الاستعمارية و

الالحادية تهتم كثيرا بمعرفة الاوساط الدينية في كل مكان اسلامية كانت ام غير اسلامية، وتجرى عنها وعن سائر عادات الشعوب وتقاليدها دراسات واسعة و دقيقة باسم الابحاث الاجتماعية و الانسانية ، و تنفق في هذه السبيل الاموال الطائلة، وتعرف عن النجف وقم اكثر مني ومن حجج الاسلام وآيات الله الملك العلام.. وتهدف هذه الدراسات الى مقاصد معينة لاصلة لها بالعلم و لانسانية من قريب اوبعيد ، وكل همها واهتمامها ان تعرف تاثير الدين وعلمائه في البلاد التي تطمع بخيراتها واخضاعها لسياستها كي تتفادى كل ما من شانه ان يحول بينها وبين مصالحها وارباحها.

اعادة النظر برويه

قد يحاول المرء ان يبتكر ويتعمق فيما يعرضه على القارىء او السامع من عصارة افكاره، فينتهي الى السخف والتعقيد، وكثيرا ما يحدث هذا للذين يتطلعون الى الشهرة بالعلم، والى منصب المرجعية قبل الاوان.. وما اكثر هؤلاء بيننا نحن المعممين و «المعبئين» (١) وخير وسيلة لتنمية العقل الناقد - التكرار واعادة النظر بصبر وروية ، وبقصد التفهم ومعرفة الحقيقة، لا بقصد ابراز الشخصية والعبقرية.

وكنت قد كتبت في العقيدة وفلسفتها اكثر من مرة، واعدت النظر مرات، ولكن في الاسلوب والتعبير بقصد التوضيح والايجاز - ما امكن وكنت اسرع الى المطبعة بمجرد ان اهتدى الى قصدي هذا؟ وبالخصوص ان دار العلم ومطابعها كانت تستعجلني وتلح علي .. هذا، الى متاعبي الخاصة

(١) من لبس العباءة على غير قياس.

التى كانت تملاقلبى وانابلبنان وقدتحررت منها اومن اكثرها، وانافى قم، ولله لحمد ، وصفى لى جو التاليف و التفكير ، وانعكست آثاره فى هذه الصفحات التى ادرسها فى دار التبليغ واحسب انها تفترق معة ودقة عما سبق لى من المولفات فى العقيدة الاسلامية و فلسفتها. . والله سبحانه المسئول ان يتقبل ويثيب والصلوة على محمد واله لاطهار.

تنبيه

اهتم علماء الامامية أى اهتمام بنصوص الولاية كتابا وسنة، وبذلوا كل جهد بحثا عنها فى كل مكان وبخاصة فى كتب المنكرين ومصادرهم ، و وضعوا فيها عشرات المجلدات قديما و طبعت مرات ، وانتشرت أى انتشار حتى اصبحت فى متناول كل يد ، ومازال الخطباء والقراء يكررونها على المنابر ، ويرددها العلماء فى الجالس و حلقات الدرس حتى حفظها الالوف عن ظهر قلب تماما كالفاتحة . . ومن اجل هذا اوجزت الكلام عنها ـ ما امكن ـ واقتصرت على مارايته ضروريا، واشرت الى مصادرها السنية والشيعية، وأية جدوى من النقل المبذول الذى لا يكلف جهدا؛ ولا يضيف جديدا ! وهو سبحانه الهادى الى طاعته . والصلاة على محمد وعترته .

فلسفة التوحيد

اثبات الخالق

بمنطق الحس والعقل

الدين والشباب

فى كل العصور وجد الايمان والمؤمنون بالله ، والالحاد والملحدون به، و ماخلا يوم واحد من اولئك وهؤلاء ، ولكن لماذا اعرض الشباب عن الدين فى هذا العصر اكثر من أى وقت مضى ؟ : هل اكتشف فيه هذا الجيل عيوبا و اخطاء خفيت على من عاش قبلهم فى عصر الظلمات ، و هم يعيشون فى عصر النور والتقدم . والمكتشفات والمخترعات ، اوأن قادة الدين خانوه، وانحرفوا عنه ، فزعزت الثقة به وبهم ؟ .

ولا يلجأ فى التعليل الى الشطر الا خير الاحاقد او جاهل .

لان الكلام والسؤال عن الدين لا عن رجاله.. والمنحرفون من كل نوع، لا من رجال الدين فقط موجودون فى كل زمان ومكان .

واجاب البعض من رجال الدين عن هذا السؤال من خلال مشكلاته الجزئية، ومصالحه الشخصية.. وليس فى ذلك أية غرابه، بل هو على الاصول والقواعد، بالاضافة الى عجزه عن تمحيص الادواء الاجتماعية، و تحليلها بطريقة موضوعية .

وقال آخرون : يرجع السبب فى ذلك الى تيارات ومذاهب فلسفية زائفة فى تفسير الكون بخاصة المذهب القائل بان المادة هى الموجود الوحيد. وان الحياة نشأت منها على غير قصد .. ولنا مع الماديين مواقف فى كتاب فلسفة المبدأ والمعاد .. وسنقف معهم ايضا بعد لحظات .. ومن تلك التيارات والمذاهب نظرية التطور، فقد ظن البعض خطا بأنها تتعارض مع الدين ونصوصه ... و لكن عدداً غير قليل من القائلين بهذه النظرية ، ومنهم دارون نفسه يؤمنون بالله ايمانهم بانفسهم بعد ايمانهم بانه لا تفسير لتطور المادة يركن اليه العقل والقلب الا بوجود قادر عليهم وراء الطبيعة والمادة ، ويأتى البيان فى فقرة الانسان والقرد. . وقد اجاب شباب الهيبيز عن هذه التيارات ونحوها باللامعقول فى المظاهر والافعال، وفى المخاريق والمخدرات .

ونحن لا نشك ابداً فى ان بعض المدارس والمذاهب سبب من اسباب الالحاد، واعراض الشباب عن الدين، وان الكثير منهم انخدع باسماء تشير الى تيارات مغرضه، واسماء لامعة ، تكلم اصحابها عن الكون و تفسيره ، وهم فى عمى عن اصله وسره، نحن لا نشك فى ذلك، ونعطف عليه سببا آخر نعرضه على الشكل التالى :

تنقسم العلوم الى انسانية ، و طبيعية ، و تهدف الاولى الى دراسة الانسان وحياته ومشاعره وتاريخه ، وتهتم بالقيم والمثل العليا، ويندرج فيها علم الدين والفلسفة والاخلاق، والادب والفنون، والتاريخ والسياسة والاقتصاد ، وما اشبه ، وقد تسهل العلوم الانسانية وسائل العيش لصاحبها ، ولكن هذه الوسائل غير مقصودة بالذات

اماالعلوم الطبيعية فتهدف الى معرفةالطبيعة و اشيائها بصرف النظرعن حقيقةالانسان وتاريخه معالعلم بانه كائن طبيعى ، ولامفرمن اعتباره جزءاً منالطبيعة ، وان تميزعن غيره بالعقل والوعى ، والمقصود الاول من معرفةالطبيعة تسخيرها فى وسائل العيش ، و مطالبالحياة ، ومن اجل هذا تندرج فيها الصناعة بشتى انواعها.. و قدتبوأتالعلوم الانسانية فىالقديم ، وحيث لمتتقدم الصناعة بعد هذا التقدم الهائل ، و تجرد الانسان عنانسانيته ، تبوأت الانسانياتمكانا عليا، وبخاصهالدين حيث كان تاثيره بالغا فى تفكيرالناس ، و سلطانه قوياعلى حياتهم فى شتى جهاتها .

وفجاة وبسرعةمدهشة خرجت الالةكالعفريت-كماشبهها البعض- وتطورت الصناعة منالاعتماد علىاليد والدولاب الىالبخار، ثمالكهرباء فالذرة ، ووقعالانقلاب العميق والخطيرفىالحياة ، وتراكمت الثروات ، وامتلات الجيوب بالنقود ، و تاسست الشركات ، واقيمت المصارف ، و ارتفعتالبنايات الى قممالجبال . فتأثرالشباب أى تاثير ، و تمردالابناء علىالاباء ، و اصابهم مايشبه المس والحمى ، وابوا الاان يتجهوا الى المادة وعلومها ليحققوا ارفع مستوى ممكن منالحياة و لوعلى حساب الدين والضميروالقيم والمبادى و علمالدين لايوصلهم الىهذهالغاية ... كيف ؟ و هل للديـن مصانـع و معامل تدرالاموال ؟ . فانصرفـوا عنه الىالعلومالعصرية وكل مايحققالامانى ويشبعالرغبات، وبالتالى تمردوا على العقائد و الاخلاق و التقاليد .. وبهذاكـان يعتذر الى عهد قريب

المتشائمون من العلوم العصرية . وكنا نسخر منهم انذاك ، انا وبعض الرفاق يوم كنت طالبا في النجف الاشرف .

والاسلام يعترف باهمية العلوم الطبيعية و يعتبرها من ضرورات الحياة وقد حث عليها كما حث على العلوم الانسانية و اعتبرها فريضة على كل مسلم ومسلمة شريطة ان توجه الى خير الانسانية و صالحها واى شيىء يجلب الشرور والالام فهو حرام ومن اكبر الكبائر في نظر الاسلام سواء اسميناه علما انسانيا ، ام علما طبيعيا ، فالالة التى تصنع او تحمل للمستهلكين الطعام واللباس والدواء فهى عند الله خير، اما اذا صنعت او حملت الاسلحة الفتاكه ، واجهزة التجسس فهى شرو وبال.

والخلاصة ان الموجب لاعراض من اعرض عن الدين من الشباب هو المذاهب المادية الالحادية وحب التباهى والمضاهاة فى المظاهر ومتاع الحياة... وايا كان السبب فانا نعرض فى هذا الفصل الدليل على وجود الخالق من الحس والعقل من غير تحيز او تقليد ، و بصرف النظر عن ايمان من آمن والحاد من ألحد، ونبدأ قبل كل شيىء فى انه : هل يجب على البالغ العاقل البحث والنظر لمعرفة الخالق ، او هو فى حل من ذلك ؟.

وجوب البحث والنظر

من توضيح الواضحات ان نقول : العلم بالشيىء أى شيىء ، خير من الجهل به ، فكيف العلم بانه : هل لهذا الكون خالق ومبدع ؟ .وهل للانسان مبدىء ومعيد ؟ . وهل هو مسئول امام خالقه ؟ .. وايضا من نافلة الكلام ان نقول : ان الجيل فى هذا العصر قد اقبل على العلم و مدارسه

اكثر من أى وقت مضى .. ولكن نتساءل : هل الباعث للجيل على طلب العلم هو حب الاطلاع ، ومعرفة الحقيقة ، ام شيىء آخر؟ .

واشرنا قبل لحظة ان الغالبية الكبرى من ابناء هذا الجيل يطلبون العلم كوسيلة للمال والعيش ، وانهم يقيسون الشهادة بما تدر عليهم من متاع الحياة ، تماما كالبقرة يقاس ثمنها بقدر ما تحلب .. و لو كانوا من طلاب العلم واقعاً ، واهل الرغبة فى التمييز بين الحق والباطل ، والخير والشر لاتجهوا ، ولو قليلا الى دراسة هذا الوجود :

«وهو كتاب الفه الله ، فاحكم تأليفه بان جعل كل عنصر من عناصر الوجود حرفاً من حروفه ، وكل ذرة من ذرات الكائنات كلمة من كلماته وكل عنصر يقوم به كائن هو جملة مقروءة ، واذن فللوجود لغة فصيحة سوية النظام، وكل مركب من مركباته الطبيعية وراءه معنى كالكلمة تماما ووراء هذا المعنى حقيقة خفية، تبعث على التفكير يفهمها كل لقن ذكى يدرك تعبير الحقيقة المطلقة خلال صحائف هذا الوجود .. بيد ان تلك الحقيقة مجردة ، لاتتفتح اصدافها عن معانيها تماما الا لكل ذى قلب ذكى ، ومنطق سليم ونظرة خالصة الى الوجود لاتشوبها نزوة من جمود ، لان المخاطب بتلك اللغة انما هى السرائر الانسانية ، والضمائر الحية الكامنة فى نفس البشر، وما تكنه من مدارك ووجدانيات » . (١)

هذا ، الى اننا نعلم علم اليقين بان ملايين العقلاء قد آمنوا ـ على مر العصور ـ بان للكون خالقا حكيما، وانه ما ترك الانسان سدى، بل امره

(١) من مقال نشرته جريدة الجمهورية المصرية، عدد ٢٤ اغسطس ١٩٦٧ بقلم محمود ابى الفيض المنوفى.

ونهاه ، وانه يعيده بعد الموت للحساب والجزاء .. أليس هذا بكاف لوجوب البحث عن الدلائل ، والنظر في الكون وفي انفسنا لنعلم: هل ايمان الملايين من العلماء والعقلاء صواب ، اوخطأ ؟ أليس معنى هذا ان البحث والنظر لمعرفة الله سبحانه هو في جوهره بحث عن الانسان بالذات ، وعن مبدئه ومصيره ، وتقييم حياته، وعن مسئوليته اتجاه نفسه وغيره؟ .. ان العلم بالله وكتبه ورسله يفتح للانسان ابوابا الى معرفة الكثير من الحقائق والاسرار التي لا يهتدي اليها علم من العلوم :اوعقل من العقول بالغا ما بلغ الا بنور من دين الله وشريعته ، وقديما قال العارفون بالمعنى الدقيق للعلم و المعرفة، قالوا : ان العقل كالبصر ، والشرع الالهي نور يهدي به الى الصراط القويم ، ومن لا عقل له فهو اعمى، ومن جهل شريعة الله تخبط في الظلمات.

وبعد، فما من عاقل الا ويدرك بانه موجود ؛وانه حي ،وله احساس و ادراك وانه ذرة في هذه الارض؛وهي ذرة من الكون العجيب ... الا يوحي ذلك كله بان على الانسان ان ينشد الحقيقة ويفكر في سبب وجوده ومصيره، فان بحث جاهداً واطمأن عقله الى السبب فذاك، وان عجز توقف الى ان يزداد فهماً وعلما، وترك ما لا يستطيع الى ما يستطيع ولا يسرع الى النفي ويقول: كل ما في الكون صدفة واتفاق ،وعبث في عبث ، وتجدر الاشارة الى ان ما ذكرناه في هذه الفقرة هو شرح وتفسير لقول علماء الكلام :«ان النظر في معرفة الله واجب باتفاق المسلمين».

دلالة الكون على علته:

قال المثاليون :لا وجود لشيىء الا اذا أدركه عقل من العقول، وما لا يدركه عقل ما يستحيل ان يوجد .

ويتلخص الرد عليهم بكلمات ثلاث: الاولى انهم يصادمون البديهة والعيان، لان العالم الخارجي مستقل بوجوده عن الانسان وادراكه، الثانية انهم اقاموا ادراك الاشياء مقام خالقها وموجدها، الثالثة يلزم على قولهم هذا ان يكون كل فرد دنيا بنفسه، وان العالم الذى يعيش فيه زيد غير العالم الذي يعيش فيه بكر، والنتيجة الحتمية لذلك انه لا معرفة عامة على الاطلاق، اذ يستحيل الاتفاق على شيىء. وهذا ما دعا «برتراند راسل» ان يقول عن «بركلى» زعيم هذا المذهب: «أن مثالية بركلى تصور لنا شكلا من الجنون الذاتي الذى يطبع معظم الفلسفة العصرية».

ومن البداهة بمكان ان العالم الخارجي مستقل بوجوده وقوانينه عن الانسان، وعن ادراكه، وانتفاعه به، لان الطبيعة اسبق في وجودها من وجود الانسان، وايضا من البداهة ان ما من شيىء له نصيب من الوجود الا ويمكن العلم به، وبعلة وجوده بعد البحث والنظر. سواء أكان ماديا، ام غير مادى. وهذا واضح لا ريب فيه .. ولكن هل في الكون دلائل تكشف لنا عن وجود علته؟. وما هى هذه الدلائل على فرض وجودها؟.

واجاب سبحانه عن هذا السؤال بلسان رسله وانبيائه: انه، جلت عظمته، هو خالق كل شيىء، وقد نبه العقول الى الادلة والامثال الظاهرة القاطعة على ذلك: «وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ـ ٢١ الحشر». والادلة التى ذكرها سبحانه على وجوده كثيرة ومتنوعة، ويجمعها او يجمع أكثرها الانتقال والسير من المعلول المعلوم الماثل امام العيان الى علته، وتتم عملية الانتقال من المعلول الى علته في ضوء الحس والعقل معاً، وتسمى هذه العلمية عند اهل المنطق بالبرهان الانى، واليه اشار سبحانه بقوله: «سنريهم آياتنا في الافاق

وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ـ ٥٣ فصلت».

وقوله تعالى :« سنريهم ... حتى يتبين »يدل بوضوح على ان دين الله والايمان به يعتمد على منطق الحس والعقل ، اى على التفكير في الطبيعة بمعونة الحواس بحيث يكون الايمان بالله نتيجة للبحث والنظر في الشيىء المحسوس ، لا نتيجة الوهم والخيال ، والتقليد و التلقين ـ كما يظن الجاهلون ـ و نعطف على منطق الحس و العقل منطق القلب ، فمامن انسان حتى الجاحد (١) الاوتمر بقلبه لمعة ، اوتظهر على لسانه كلمة ـ من حيث لا يريد ـ تنبىء عن وجود المبدع لهذا الكون العظيم ، فهو يجحد بشيىء يؤمن به في قرارة نفسه دون ان يلتفت الى ايمانه هذا .. ولا تفسير لذلك الا ان الواقع يفرض نفسه حتى على اعدائه ومعانديه . وتسأل : نحن نؤمن بفكرة واجب الوجود ايماننا بانفسنا ، لانه اذا لم نفترض وجود هذا الواجب لاستحال ان يوجد شيىء على الاطلاق .. ولكن لماذا نلف وندور في البحث عن علة واجبة الوجود لنفسر بها وجود الطبيعة ما دمنا في غنى عنها بوصف الطبيعة نفسها بواجبة الوجود ؟ وانها لا تحتاج الى علة توجدها تماما كما يقول المؤمنون عن الاله الكائن وراء الطبيعة ، وبكلام آخر ان الماديين يسلمون مع المؤمنين بان واجب الوجود ضروري حتمي ، ولكنهم

اجتمع تشرشل و ستالين اثناء الحرب العامه الثانيه وبعد الاجتماع نقل الى مراسلي الصحف ان ستالين كان مكرراً اسم الله في حديثه ويقسم به موكداً اقواله ونشرت الصحف ما نقله تشرشل الوزارة الانكليزيه عن امام الشيوعيين ورئيس الدولة الروسيه .

يقولون : هو الطبيعة . ويقول المؤمنون : بل هو الله الموجود وراء الطبيعة ولماذا الذهاب الى الوراء ، والبحث عن الغائب مادام الحاضر كافيا وافيا؟. ومهما يكن ، فان الاختلاف بين المؤمن والجاحد انما هو في التطبيق لا في المفهوم ، وفي الصغرى لا في الكبرى .

الجواب :

اولا : لقد كشف العلم الحديث « ان المادة عبارة عن مجرد حوادث ظاهرة متتابعة لعوامل خفية تكونها ، ثم تتحول المادة الى طاقة . والطاقة الى مادة اخرى ، وبكيفية اخرى .. حتى الكائنات التي تبدو لاعيننا ثابتة هي في واقعها سريعة الحركة ، والتطور والتغيير » .ومن البداهة بمكان ان ماكان على هذا الوصف والوضع من التحول والتغيير ـ يستحيل ان يكون واجب الوجود ، وعلة اولية لنفسه ولغيره .

ثانياً : ان المادة الجامدة العمياء لاتكون ولن تكون سببا للحياة و الادراك ، ولا للنظام والانسجام ، لان فاقد الشيء لايعطيه .. و اى عاقل يقول : ان العقل في الانسان ، والنظام في الكون ، و ما اليهما من حكمة وتدبير، كل ذلك قد وجد من طبيعة جامدة ؛ او بنحو الصدفة التي رفضها العلم والفلسفة ، والعقل والوجدان .

اما القول بانه لافرق بين من آمن وجحد الا في التطبيق و التسمية فقد صدقه بعض السذج، وهو جهل فاحش ، وخطأ كبير، لان اله المؤمنين عالم مريد ، يبدأ الخلق ، ثم يعيده للحساب والجزاء، و يرسل الانبياء مبشرين ومنذرين ، واين منه المادة الجامدة العمياء ؟.

نحن والتجريبيون

التجريبيون هم الذين قالوا : ان مصدر المعارف كلها هو التجربة والخبرة الحسية ، وان وسيلتها الوحيدة هى الحواس الظاهرة : السمع و البصر والشم والذوق واللمس.. وأية فكرة رأياكانت اوعقيدة لاتستند الى حاسة من هذه الحواس مباشرة وبلاواسطة فهى سخف وهراء وكلام فارغ.. وهذه عبارتهم بالحرف، : «لواقفل باب الحواس لامتنعت المعرفة كلها ». فصحة الفكرة عندهم تقاس باعتمادها مباشرة على الحس وحده ، اما اذا اعتمدت على الحس و بديهة العقل معاتكون الفكرة مجرد وهم وخيال ، و بالاولى اذااعتمدت على العقل فقط .

مثلا نحن نتصور وجود الكون ، ونؤمن به ؛ فهذه الصورة صحيحة وهذا الايمان سليم حيث اعتمدكل منهما على الحس بلاواسطة اما اذا تصورنا وجودخالق الكون ، وآمنا به فيكون التصور و الايمان من وهم الخيال ، لانهما لم يعتمدا على شهادة الحواس وحدها ، بل عليها و على النظر العقلى ، وهو مبدأ العلية الذى لايبتنى على الحس ، وانما العقل حين رأى الترابط والتلازم وجوداً وعدما بين حادثين استخلص من ذلك ان احدهما علة للاخر، اوانهما معلولان لعلة واحدة مع انه لاضرورة لهذه العلية على الاطلاق حتى ولواطرد التلازم بين الحادثين آلاف المرات ، لانه على حد تعبيرهم ـ ماراينا لهذه الضرورة حجما اولونا، ولاسمعنا لها صوتا اوحركة، ولاذقنا لها طعما، اوشممنا لها ريحا، فكيف نحكم بوجودها؟. (انظر كتاب نظرية المعرفة للدكتور زكى نجيب محمود ص٥٢ وما بعدها ط ١٩٥٦.)

وتجدر الاشارة الى ان التجريبيين لا يطلقون كلمة العلم الا على الخبرة الحسية التى جاءت نتيجة للتجربة ، ويسمون سائر المعارف بالنظريات الغيبية والميتافيزيقية والمثالية والذاتية، ويسخرون منها حتى ولو اعتمد الغيب فيما اعتمد على الواقع الفعلى التجريبى.

الجواب:

١ـ نحن نسلم بالتجربة، ونصدق شهاد الحواس، بل ونعتبرها حجة ودليلا على الحق، ولا نسأل ونبحث عن سبب حجيتها ودليل اعتبارها، لان علة التصديق بها موجودة فيها بالذات حيث لا شيىء وراء الحس والعيان... نحن نؤمن بذلك، وفى الوقت نفسه نؤمن ببداهة العقل وشهادتها، تماما كما نؤمن بشهادة الحواس، لان الانسان بعقله وحواسه، ولا غنى له باحدهما عن الاخر، فالحواس تهدى العقل الى الطريق، وتفتح له باب المعرفة ، والعقل يختبر ما تراه الحواس وينظر: هل هو فى حقيقته وواقعه على ما بدا للحواس، او على غير ما رأت وشاهدت ؟.

ونعنى ببداهة العقل الخبرة الفطرية التى يشترك فيها العالم والجاهل، ولا تتأثر وتختلف باختلاف الامزجة والطبايع، والبيئة والتربية، كالعلم بان المتساوين لثالث متساويان، وان المثلث غير المربع، والكل اعظم من الجزء، وان الشخص لا يوجد فى مكانين بآن واحد، وان الشيىء لا يصدق عليه النفى والاثبات من جهة واحدة، بل اذا صدق احدهما كذب الاخر، وبالعكس، و من انكر هذه البداهة وصحتها فهو تماما كمن انكر شهادة الحواس وسلامتها.. وما لنا ولعقول الناس ومعرفتهم ، فلندعها ونعرض على الواقع: هل يقبل

ان يكون الشيء واحداً وكثيرا، وموجوداً وغير موجود في آن واحد؟.

وهـذه الشهادة الحسية والبداهة العقلية هما الطريقان الاوليـان والاساسيان لمعرفة الحقيقة وقياسها بشتى انواعها ، وعليهما تمضي حركة الفكر الانساني، وهما مصدر افعاله وآثاره، وعلومه وتقدمه، وبدونهما لا يمكن بحال الحديث عن الصواب والخطأ، ولا عن العلم والجهل... ولكن ليس معنى هذا ان المعرفة او الفكرة لا تكون صحيحة الا اذا استندت الى احد هذين الاصلين مباشرة، بل يكفي ان تنتهي اليه بواسطة او اكثر، فاية نظرية او عقيدة تقوم على اساس من شهادة الحس او بديهة العقل ولو بالواسطة فهي حق وصدق، وعلم وصواب حتى ولو كانت غيبية، والا فهي جهل وضلال.

واذن فالعبرة بدليل النظرية والعقيدة لا بنوعها وغيبيتها او حسيتها . . ابدا لا فرق ولا تفاوت عند العلماء حقا وواقعا حتى في مقدار الوضوح والظهور. بين الايمان بعالم الغيب والايمان بعالم الشهادة مادام الشاهد منطق الحس و بديهة العقل، وبهذا يتبين الجهل والخطأ في تقسيم النظرية الى غيبية وغير غيبية، والحكم ببطلان الاولى على كل حال حيث يفرض علينا منطق العلم و الحق ان نقيس النظرية بدليلها ومصدرها. لا بنوعها وبماهي في ذاتها .

والايمان بالله ايمان بالغيب، لانه تعالى لا يقع تحت الحواس، ولا تصل اليه التجربة الالية، ولكن هذا الايمان حق وصدق، لانه يقوم على اساس من شهادة الحس، وبديهة العقل، فالعين ترى الكون وما فيه من نظام وقوانين ، ومن تغير وتطور، ثم تعرض ما رأت على العقل ،وهو ينظر ويفكر في ان هذا الكون المتغير بل والمستمر التغير، والـذي لا يحس ويشعر يستحيل ان

يكون علة لذاته و لنظامه و تغيره ، ولسيره في اتجاه معين، بل لابد له من علة ثابتة اولية قد تفردت بالعلم والقدرة والارادة، وهي التي تحدد اتجاهه، وتنسق حركاته، وتنظم قوانينه، وتدفع به الى الغاية المقصودة من وجوده.. ان العلة الاولية للكون خفية وغيبية، هذا صحيح، ولكن الايمان بها يبتدىء من الاعتماد على المعرفة الصحيحة وطريقها السليم، أي من الايمان بمنطق الحس والعقل، وليس كما قيل جهلا او عنادا : «ان الايمان بالله يبتدىء حيث تنتهي المعرفة».

وبكلام آخر اقرب الى فهم التجريبيين: ان البحث والنظر لمعرفة الله سبحانه بحث ذاتي تاملي، وفلسفي عقلي، ما في ذلك ريب، ولكنه في الوقت نفسه بحث عن العلة الاولية للطبيعة ، والسبب الموجب لوجودها ، وعليه يكون البحث لمعرفته تعالى بحثا لفلسفة الطبيعة نفسها، واقامة نظرة عامة عنها تشمل كلياتها وجزئياتها، وظواهرها وحقائقها، فاذا اعتمد الايمان بالله ـ مع ذلك ـ على شواهد من الطبيعة تكون مقدمات هذا الايمان بما فيها التفكير النظري المعتمد على الواقع ، تكون مقدمات الايمان بالله في مجموعها طبيعية او شبه طبيعية، ويكون الايمان بوجوده سبحانه تماما كالايمان بوجود الطبيعة ، وانكار وجوده كانكار وجودها .

وقد اطلقوا اسم علم الربوبية الطبيعي على البحث لمعرفته تعالى بالنظر الى اعتماده على منطق الحس وشهادته بوجود الطبيعة وروعتها، وايضا اطلقوا عليه اسم علم الربوبية الفلسفي بلحاظ حكم العقل بمبدأ العلية واستحالة تسلسل العلل ، ولك ان تقول : هو بحث علمي فلسفي باعتبار الامرين معا.

٢ـ من اوجه الرد على التجريبيين الذين حصروا طريق المعرفة بالتجربة والخبرة الحسية: ان هذا الحصر لادليل عليه من التجربة والخبرة الحسية.. فأية حاسة من الحواس الخمس شهدت وادركت هذا «الحصر»؟.. ابدا ولاواحدة.. نقول هـذا رداً عليهم بمنطقهم، حيث نفوا مبدأ العلية لانهم ما رأوه بالعين ولالمسوه باليد، وفي الوقت نفسه يردون بالوهم على من يستدل ببداهة العقل!.

٣ـ لو نفينا مبدأ العلية ـ كما زعم التجريبيون ـ لانهارت قواعد العلم بشتى انواعه، وما امكن اليقين بشيء اسمه حق وصواب، وسيطر مبدأ الصدفة والاتفاق على كل شيء... ومن هنا قال فيلسوف كبير: ان هذه النظرية اعظم فتنة ابتدعها الشيطان، وتشبث بها المعرضون عن الحق.. وقال الفيلسوف الالماني ليبنتز: «لاواقع يمكن ان يكون حقا اوموجودا، ولاحكم يمكن ان يكون حقا الاوتكون هناك علة كافية لكونه كذلك، وان كانت العلل في الغالب لايمكن ان تكون معروفة لنا».

٤ـ ان الحواس تختلف باختلاف الافراد، بل ان حواس الفرد الواحد تختلف بحسب ظروفه واحواله، فاذا حصرنا المعرفة بشهادة الحواس كان معنى ذلك ان المعرفة خاصة وفردية، وانه لاقواعد كلية، وقوانين عامة تضم الوقائع وتنظمها، وبالتالي انكار العلوم من الاساس.

٥ ـ ان كثيرا من الكائنات الطبيعية تبدو لاعيننا ثابتة، وهي في واقعها سريعة الحركه... كما ان كثيراً منها لايمكن ان تراه العين بحال كالطاقة تتحول الى مادة، اوتتحول المادة اليها، قال علماء الطبيعة: ان

اشياء الكون فى حقيقتها ليست طبق ما نراه من مظاهرها المجسمة وانما هى فى الواقع مجرد مظاهر وحوادث سريعة التتابع، كما جاء فى نظرية النسبية لانيشتين.

وقال الدكتور فؤاد صروف فى مقال نشرته مجلة عالم الفكر الكويتية فى العدد الثانى من المجلد الثانى: « ان علماء الطبيعة فى هذا العصر رأوا بعقولهم مالا يمكن ان يروه بعيونهم، او بمصوراتهم الضوئية، وقد انالهم ذلك فهما جديدا لامور كانت غامضة عليهم من قبل».

آمن علماء الطبيعة باسرار لا يمكن ان تراها العيون، ولا ان يتبينها المجهر المألوف «ولا المجهر الكهربى ، ولا مرقب هيل، وهو اكبر مرقب فى العالم كله، ولا تكشف عنها الاشعة السينية» ـ كما جاء فى المقال المشار اليه ـ آمن علماء الطبيعة بهذه الاسرار التى يستحيل ان ترى بحال من الاحوال، آمنوا بعالم الغيب، لانهم رأوه بعقولهم فقط لاغير، وأخذ التجريبيون والماديون والواقعيون والشيوعيون كلهم اخذوا بقول علماء الطبيعة ، و ايمانهم بالغيب الذى لا يمكن ان تراه العيون ولا المصورات الضوئية.. ولكنهم فى الوقت نفسه كذبوا المؤمنين بالله، لا لشىء الا لان الايمان بالله ايمان بالغيب الذى لا يمكن ان تراه العيون والمصورات الضوئية... فانكروا على المؤمنين ما اعترفوا به لعلماء الطبيعة، ونقضوا هناك ما ابرموه هنا.. فان كان نظر العقل حقا وصوابا فهو لا يقبل التخصيص بفرد او بفئة، وان كان خطأ وضلالا فكذلك .

وان قال قائل: ان لدى علماء الطبيعة مختبرات فنية تشهد للعقول

بالغيب الذى لايرى بحال، وليس لدى المؤمنين مختبرات اومصانع ـ قلنا فى جوابه : ان الكون العجيب المتقن هو المصنع والمختبر الاعظم الذى يشهد لكل ذى لب بوجود صانع الكون العليم الحكيم .. ومن البداهة بمكان ان مختبر العلماء لايرشدهم الى عالم الغيب الا اذا تدبروه وانتبهوا اليه، وامعنوا فيه وفى ادواته، وهكذا لايرشد الكون الى خالقه الا اذا نظر الانسان فيه بقلبه وعقله ، لابغروره وجهله: «كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ـ ٣٨ـ الروم » .

نحن والبرجماتيون:

البرجماتية مذهب جديد، ولها فى هذا العصر اتباع وانصار لايحصون عددا ، وزعيمهم « وليم جميس » وتتلخص هذه الفلسفة بان المعرفة فى حقيقتها ليست مجرد العلم بالواقع ـ كما هو ـ بل هى اداة للسلوك العملى الذى يدر النفع على صاحبه أيا كان نوع هذا السلوك ومهما تكن الوسائل المؤدية الى بلوغ الهدف المطلوب . . فما من شيىء حسن فى ذاته ، اوقبيح فى ذاته ، وانما يقاس الحسن بالمنافع ، فسياسة الصناعة الحربية والتفرقة العنصرية ، والحروب العدوانية ، كل هذه و ما اليها من احسن الحسن اذا درت الارباح ، وكدست الثروات

لقد فاقت البرجماتية كل التيارات والفلسفات.. قال التجريبيون: اذا لم تعتمد الفكرة على التجربة فماهى بشيىء ، والبرجماتيون يؤمنون بالتجربة، ولكن على شرط المنفعة ، ويقولون : ان التجربة اوالفكرة التى لاتجر نفعا ليست بشيىء « وانما هى وهم فى رأس صاحبها » حتى

ولوكان مصدرها التجربة . (انظر كتاب نظرية المعرفة لزكى نجيب ص ٢٩) .

ومعنى هذا ان فكرة الاله و الايمان بوجوده وهم فى الرؤس ، وجهل فى العقول، وعمى فى القلوب ، لان هذا الايمان لاينشىء مصنعا، ولايفتح مصرفا ، ولايحتكر سوقا ، اويستعمر شعبا .. وايضا معنى هذا انه لافلسفة واخلاق ، ولافنون و آداب ، ولاعلم نفس وسياسة واجتماع ، ولامبادى وقوانين ، اوحرام و حلال ، ولابطولات و اعمال خالدات . . ابدا لاشيى الاالمصانع والمعامل ،وما اليها ممايدرالارباح، و يؤدى الى التوسع والسيطرة وتكديس الثروات،ولوعلى حساب المستضعفين والمستضعفات

ونشأت البرجماتية، وترعرعت فى احضان «العالم الحر» وجند لها الاذاعة والصحافة والسينما والتلفزيون ومكاتب الاذاعة وادمغة الفلاسفة و اقلام الادباء ، و هدفه الاول ان يضفى طابع العلم و التقدم على نظامه الرأسمالى ، وسياسته العدوانية فى الشرق و الغرب . وان ينفى الحق والعلم عن كل مايمت الى الا نسانيه بسبب ولكن ما من انسان فى آسيا و آفريقا واروپا مستعدلئن يموت من اجل الرسمالية ،كما قال الفيلسوف الفرنسى « جاك ماريتان » . يريد أن هذه الرأسمالية لن تعيش الاعلى حساب الشعوب و مقدراتها و لكن الشعوب لن تخضع و تستسلم ، بل تقاوم و تثور دفاعا عن حياتها واقواتها .

وبعد، فلا فرق ابداً بين العالم الشيوعى والعالم الحر، ذاك يقول : لانؤمن بالله، لانه ايمان بالغيب، وهذا يقول: لانؤمن الابحقول البترول

واحتكار الاسواق والسلع، والابقنابل الناپلم واجهزة التجسس.. والنتيجة واحدة من حيث الكفر والالحاد، واذا ألح العالم الحر على اسم الاله وذكره فانما يعنى، الاله المخلص للراسمالية، والمحامى عنه وعنها ، ولا يعنى اله الضعفاء والمشردين من ابناء فيتنام وفلسطين.

العلم يدعو الى الايمان بالله:

آمن كثير من علماء الطبيعة وغيرهم فى هذا العصر بعد أن كانوا به من الجاحدين، وروا قصة هذا الايمان واسبابه، وهى عين بحوثهم وتجاربهم لطبيعة الاشياء المادية ووظيفتها.. وقد جمع البعض طائفة من اقوالهم فى كتاب باسم «الله يتجلى فى عصر العلم» وترجم هذا الكتاب الى العديد من اللغات ومنها اللغة العربية فى ١٧٠ صفحة، وتحدثت عنه، ونقلت منه فى فصل خاص بكتاب «فلسفة المبدأ والمعاد».

و وضع العقاد كتابا مستقلا فى «عقائد المفكرين» . وهذا هو اسمه الكامل، وفيهم رجال من علماء الطبيعة، وفلاسفة وادباء واطباء ومهندسون وغيرهم.. وايضا تحدثت عن هذا الكتاب، ونقلت منه فى كتاب «الله والعقل».

واخيراً قرأت مقالا مطولا وبالغ الاهمية للدكتور محمد عبد الهادى ابى ريدة بعنوان «الايمان بالله فى عصر العلم» نشرته مجلة عالم الفكر الكويتية فى العدد الاول من المجلد الاول، وهو يغنى ـ كما اعتقد ـ عن كل ماكتب فى اثبات الخالق حتى الآن، فلقد عرض فيه نوع الادلة على وجود الله من عهد افلاطون الى اليوم، واحسن العرض واوضح، واجاد فى التلخيص و جمع.. وفيما يلى نشير الى بعض ما جاء فى هذا المقال وفى غيره مما قرأناه فى الكتب الحديثة والصحف.

الفلسفة والتامل العقلى:

تعتمد الفلسفة على التفكير والتأمل العقلى، ومثال ذلك ان تقول: هذا الكون الذى نراه بالحس غير ثابت على حال حيث نشاهد فيه حدوثا وتغييرا وزوالا، واذن لابد له من علة ثابتة مستقرة والا لزم التسلسل الى مالا نهاية.. وهذا الدليل يستند الى مبدأ العلية، ومبدأ استحالة التسلسل فى العلل، و ضرورة الانتهاء الى علة اولية لاتحول ولاتزول، وهذان المبدآن عقليان.

مثال ثان للتأمل الفلسفى: للطبيعة نظام متقن ومحكم، وهى تسير عليه منذ ملايين السنين، ولاتحيد عنه بحال، ومن اجل هذا امكن ضبطها وقياسها والاستفادة منها.. وهذا يحتم وجود قوة عليا وراء الطبيعة مريدة قادرة، وحكيمة عالمة، وهى التى اتقنت واحكمت، والا فكيف يجوز وجود فعل متقن محكم من غير عليم حكيم؟.. ويعتمد هذا الدليل على مبدأ العلة الكافية لكل مايحدث فى العالم، وان الصدفة باطلة لايصح ان يفسر بها شيىء كما هو الحق، لان الصدفة لاتتكرر، وتنفى الترابط بين الاشياء على وجه الاطلاق.

العلم والتجربة:

ويعتمد العلم بمعناه الحديث على الخبرة الحسية والعمل التجريبى الذى يرى بالعين، ويلمس باليد، ولايتجاوزه الى العقل الا ضمن نطاق محدد، وهو استكمال مارأته الحواس ومعطياتها فقط لاغير، ومثال ذلك ان يكتشف علماء الطبيعة العناصر التى يقوم عليها الكيان الطبيعى، وتتكون منها الكتلة المادية بشتى انواعها من الذرة الكيميائية التى لايقع عليها الحس الى اكبر

جرم، وان يكتشفوا ايضا ان هذه العناصر ليست ازليه ولن تكون ابدية بل لها عمر محدد، ومتى تم هذا الكشف جزموا تلقائيا بان الطبيعة حادثة.

العلماء المفكرون:

وقد استدل العلماء المفكرون فى هذا العصر على وجود الله بالدليل التالى:

نحن ندرك وجود الكون، ولكن كيف نفسر وجوده ونشأته؟. هناك اربعة احتمالات للاجابة عن هذا السؤال:

الاحتمال الاول: ان هذا الكون غير موجود فى الواقع، وان تصورنا لوجوده مجرد وهم وخيال!. وليس من شك ان هذا يخالف الواقع، لان الوجود مستقل ومنفصل عن الذات التى تدركه.

الاحتمال الثانى: ان ينشأ هذا الكون من العدم وبلا سبب!.. وهذا مستحيل، لان الصدفة لا تفسر لنا وجود العالم بما فيه من مادة وطاقة، فكيف بالنظام الماثل والتنسيق الهائل فى كل شيىء؟.. ان هذا يحتاج الى ادراك وقدرة، وعلم وحكمة، والمادة لا تنشىء شيئاً من ذلك، ولو تولدت الحياة من المادة نفسها لم يكن هناك تفرقة بين مادة ومادة، وان تظهر الحياة فى هذه دون تلك.. اجل، قال العلماء:

« اذا بلغت المادة مبلغا معلوما من الاستعداد صلحت لحلول الحياة فيها، وتهيأت لخدمتها، مثلها فى ذلك مثل الجهاز الذى يصلح بالتركيب لقبول الكهرباء، فان اجزاء الجهاز لا تتحرك الا اذا اجتمعت على النحو الصالح لاستقبال التيار وتلبية حركاته، وكذلك الاعضاء الجسدية لا تخلق

الحياة، وانما هي ظرف صالح لاستقبالها وتلبية حركاتها اذا تم تركيبها على النحو المعروف » . و من هنا كان التفسير الالى الميكانيكى لحركة المادة باطلا.

الاحتمال الثالث: ان الكون ازلى لا بداية له..وهذا باطل حيث اكتشف العلم الحديث حتى الآن عناصر يبلغ عددها ١٠٢، وكل مادة عرفها الانسان تتكون من واحد او اكثر من هذه ال ١٠٢(١) وبعد دراستها بدقة تبين لعلماء الطبيعة ان جميع هذه العناصر فى سبيل الزوال، ولكن بعضها يسير اليه بسرعة ، وبعضها ببطء ، وفى ضوء هذه الحقيقة قرروا أن العالم له بداية و نهاية، وانه لابد ان يزول بعد أن تتحق الغاية من وجوده، وقدروا عمر العالم ـ على التقريب ـ بحوالى خمسة بلايين من السنين.

واذا بطلت الاحتمالات الثلاثة تعين الرابع، وهو ما نقله ابو ريدة عن «مونسما» فى مقاله الذى اشرنا اليه وهو «لابد لاصل الكون من خالق ازلى ليس له بداية ، عليم محيط بكل شيىء قوى ليس لقدرته حدود ، ولابد ان يكون هذا الكون من صنع يديه» . وايضا نقل عنه ما نصه بالحرف:

« اذا كان هذا العالم المادى عاجزا عن ان يخلق نفسه ، او يحدد القوانين التى يخضع لها فلابد ان يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادى، وتدل كل الشواهد على ان الخالق متصفا بالعقل والحكمة والارادة .. واذن فالنتيجة المنطقية الحتمية التى يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على ان لهذا

---

(١) ذكر احمد امين العر قى فى آخر الجزء الثالث من كتاب التكامل فى الاسلام ـ جدولا باسماء هذه العناصر.

الكون خالقا فحسب ، بل لابد ان يكون هذا الخالق حكيما عليما قادرا على كل شيىء كى يستطيع ان يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ، ولابد ان يكون هذا الخالق دائم الوجود تتجلى آياته فى كل مكان» .

ان ايمان من آمن بالله عن طريق النظر فى الكون وفى الانسان ـ يكشف لنا بوضوح عن السر فى قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الافاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » ان رجال العلم الطبيعى كغيرهم من العلماء وارباب المهن يهتمون فقط بما يتصل بوظيفتهم و اختصاصهم ، ولا يفكرون فى غيره الا عرضا وعند الضرورة ، ولكن علماء الطبيعة التقوا على غير ميعاد مع الطريق المؤدية الى معرفة الله تعالى والايمان به، ذلك بان الافاق اى اقطار السموات والارض هى الموضوع الاساسى لبحوثهم، والميدان الفسيح لتجاربهم، وهى فى الوقت نفسه نقطة البداية والانطلاق الى العلم بوجود الله ، فانتهى بهم هذا اللقاء الى معرفته تعالى والايمان به من حيث لا يريدون .. وصدق من قال : العلم يدعو الى الايمان . ومن اصدق من الله حديثا : «انما يخشى الله من عباده العلماء ـ ٢٨ فاطر» .

وفيما يلى نذكر فقرتين : احداهما لمثال من الافاق التى اشارت اليها الاية ، وهو القمر، والثانية للانسان وما يتصل به .

القمر

فى صيف سنة ١٩٦٩ هبط على سطح القمر رائدا الفضاء الامركيان: «ونيج» و«اودين» وتعقبت ما كتب علماء الطبيعة حول رحلتهما.. واشير هنا الى ما قرأته فى جريدة الاخبار المصرية عدد ٦ـ٢ـ١٩٧٠، فقد ترجمت هذه

الجريدة فى العدد المذكور مقالا عن جريدة برافدا السوفيتية لعالمين شيوعيين بارزين فى العلوم الطبيعية ، و همـام فاسين» و«واشرباكوف» السوفيتيان.. لقداطلع هذان العالمان علـى النتائج التى اعلنها العلماء الامركيون لدراسة تربة القمر و الصورة التى اخذت له عن كثب ، و قالا فيمـا قالا :

« ان الدراسة العلمية الحديثة ترفض كل النظريات الشائعة عن اصل القمر ، ولاتقبل الاتفسيرا واحدا ، وهوان القمر مصنوع صنعا دقيقا ومحكما، وان الذى صنعته قوة مذهلة تملك من الطاقات مالايملكه اى كائن من الكائنات . .ان الدراسة العلمية تبدأ بفكرة جديدة ، وتقول هذه الفكرة الجديدة : ان فى القمر ظواهر يستحيل ان توجد بالصدفة .. كلا ،اذهاتمت بيد عالمة قادرة قد احكمت صنع القمر احكامامذهلا» .

آمن الشيوعيون وغيرهم من الماديين آمنوا بالمادة ، وقالوا : هى الموجود الوحيد ، ولااله الاهى، وان الحياة والسمع و البصر والعقـل و سائر الغرائز الانسانية والحيوانية ، وان نظام الكـون ، ومافيه من ابداع واسرار،كل ذلك و ماإليه من الموجودات لااساس له الا المادة، ولاحول ولا قوة الا لها وحدها ، فهى الظاهر والباطن ، والاول والآخر، و فلسفوا هذا الالحاد بكل مايملكون من منطق ، ورفضوا القيم والاديان بشتى انواعها ، وزعموا ان العلم عدو الايمان بالله واليوم الآخر..ولمـا تقدموا بعض الشيىء فى العلم الذى جعلوا منه عدو الله ورسله ـ قادهم، اوقاد الكبار من علمائهم فى الطبيعة والمادة قادهم « هذا العدو» مرغمين الى الايمان، بمصدر هذا

الكون وخالقه «العالم المريـد» الذى يملك من الطاقات مالا يملكه اى كائن من الكائنات » حتى المادة اله الشيوعيين والماديين ، و فوق ذلك اعلنوا الدليل المادى المحسوس على اثبات الخالق ليكون حجة بالغة قاطعة على جميع الماديين.. هذا،وهم لا يعتبرون ان من عملهم اثبات الخالق الكائن وراء الطبيعة وفوق المادة ، بل العكس هو الصحيح .. فاين هى فلسفة ماركس و لينين ، وانجلز وستالين ؟ اين هى ؟ لقد ذهبت مع الهباء بنظرة صحيحة واحدة من العلم الى الآفاق .

ومهما شككت فانى لا اشك ابدا فى ان هذين العالمين السوفيتيين: فاسين وباكوف هما من اظهر المصاديق والافراد الذين عناهم الله بقوله . «سنريهم آياتنا فى الآفاق الخ..لقد فسرت هذه الآية الكريمة فى التفسير الكاشف ،واطلت الكلام حولها بعض الشيىء، والآن ، وانا ارسم هذه الاحرف خطر لى ان اعطف على ما اسلفت هذا المعنى ، وهو ان الله سبحانه قد تحدى بهذه الآية ـ فيمن تحدى ـ العلماء الماديين الذين علم الله انهم سيوجدون بعد اكثر من الف سنة ، بل والوف السنين من نزول كتابه الكريم، وبعد ان يزدادوا علما بالكون ، تحداهم بما يريهم من آياته فى الافاق .. وقد اراهم.. فما استطاعوا الا الاذعان لها والتسليم بها.. ونحن على علم اليقين ان المستقبل لعقيدة التوحيد لان سبيلها سبيل العلم ، والامل به هو الامل بها بالذات .

تذكرت ـ وانا اقرأ ما قاله العالمان السوفيتيان ـ كلمة لابن عربى فى الفتوحات المكيه ، وهى : انك لا تقدر أن تنكر ما ترى ، كما انك لا تقدر ان تجهل ما تعلم ، وانت ترى الوجود ، وتعلم به علم اليقين ، وهو

حروف وكلمات وسور وآيات تنطق بوجود كاتبها ؛ وهو الله وان لم تره ، فالوجود قرآن الله الكبير الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه.

شيىء آخر تجدر الاشارة اليه ، وهو: هل الذى تحدى علماء الطبيعة و غيرهم منذ نزول القرآن الى آخر يوم، وقال: سنريهم آياتنا فى الافاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق» هل الذى قال هذا بعزم وحزم هو الله خالق الكون والافاق ، او محمد الذى لا يقرأ ولا يكتب ؟ .

وكيف يجرأ محمد على هذا القول! ومن اين اخذ علمه بالشمس والقمر وغيرهما من الكواكب؟. هل اخذه من الصحراء ، ام من ابى جهل وبحيرة الراهب ، ام من التوراة والانجيل ، ام صعد الى القمر والمريخ ؟ ابداً. لا تفسير الا الوحى من القادر العليم ، والا الاعجاز على يد النبى العظيم -

الانسان :

اشرنا فى الفقرة السابقة الى مثال من الافاق ، وهو القمر ، ونشير فى هذه الفقرة الى الانسان ، قال تعالى: « يخلقكم فى بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ٦- الزمر » . وقال :«لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم-٤ التين» .

وقال : « وفى انفسكم افلا تبصرون- ٢١ الذاريات » . يقول سبحانه فى هذه الايات وغيرها ، يقول للجاحد : الم تنظر الى نفسك ، وتفكر فى مبدئك وتقلبك خلقا بعد خلق، ومن طور الى طور ، وتنظر الى اعضائك وجوارحك وسمعك وبصرك وعقلك و بيانك و فطنتك وقدرتك .. الى غير ذلك من صفاتك الروحية والجسدية ، ثم تسأل عقلك وبصيرتك : هل اوجدت انت

ذلك بنفسك، اووجد صدفةومن غيرعلة ،اوانوراءه خالققديرا وعظيما ؟ ولولم يكنفى الكون الانت وحدك فقط لا غير لوجدت من نفسكالف دليل ودليل على من انشأك وابدعك .

ان فىالانسان آيات واسراراً لايبلغها الاحصاء ، و كلماااكتشف العلم منهاسراًخفيتعليه مئات والوف تماما كالكون .. ومن هناقال له من قال :

« وفيك انطوىالعالم الاكبر» . وكمااكتشف العلم الحديث بعض اسرار القمروغيره منالافاق فقد اكتشفايضابعض ما فىالانسان منسر، وآخرماقرأت فىهذاالباب مقالانشرته مجلة روزاليوسف المصرية عدد ٧ ـ٤ـ١٩٦٩؛ جاءفيه :

لقداكتشف العلماءفىهذاالعصرانفىجسم الانسان بلايينالبلايين منالخلايا .. وتبين لهمانهذه الخلايا مجتمعمن المخلوقات المختلفة، لاترىالواحدة منهالشدة صغرهاالابالميكرسكوب ،ويبلغعددهذهالخلايا عشرة اضعاف عددالبشر، وكلهاتعيش فىدمالانسان مدةاربعةاشهرفقط ، و يحلغيرهامحلها وبمقدارهابحيث يكون عددالجيل اللاحقكعددالجيل السابق لايزيد ولاينقص ، وبعضهذه الخلاياعلى هيئة ثعلب، وبعضهاعلى شكلفيل ، وبعضها تماماكالتمساح الخ .. وهناالعجب ، العجب منهذا التنوع .. ومنكثرة العدد ..والاتفاق فيه دون زيادةاونقصان .. هلكل ذلكمنصنع المادةالعمياء ،اومنباب الصدفة، اومنصنيع القديرالعليم؟. فتعالى الله الملكالحق لاالهالاهورب العرش الكريم .

وصدق الفيلسوف الانكليزى جون لوك حيث يقول : صحيح ان الله لم يخلق الايمان فينا خلقا : ولم يطبع فى عقولنا حروفا نستطيع ان نقرأ وجوده بها، ولكن لم يجعل وجوده بالادليل يشهد له ... فلقد اودع فينا ملكات وقوى تدل عليه دلالة كافية وافية ، ونحن لا نحتاج الى برهان يدل على وجوده اوضح من ذلك .

ولا نستطيع ان نشكوا من جهلنا به مادمنا نحمل ذواتنا معنا؛ فانه قد هيأ لنا بذلك كل ما يلزم لمعرفته وزيادة.. وهذا شيىء واضح كاليقنى الرياضى.. ولا يحتاج ابدا الى اكثر من التفكير والانتباه الى وجوده اليقين ، فنبرهن به على وجود الله باصدق برهان واوضحه ، تماما كما نتنبه ونفكر ونستدل على مسائل نحتاج اليها فى حياتنا اليومية ، لانها قابلة فى ذاتها للبرهنة الواضحة .

الانسان والقرد:

وتسأل : ان دارون واتباعه يقولون: ان الانسان وجد اول ما وجد على غير صورته التى هو عليها الان، ثم انتقل منها الى نوع آخر حتى انتهى الى القرد ، ومنه الى صورته الحالية ؟ .

الجواب : قد نعرف بالتحليل فى المختبر ما فى الانسان من مواد كيماوية ، اما كيف وجد ؟ وعلى اية هيئة كان؟ فلا تجيب المختبرات عن هذا السؤال ، اما المشاهدة فاى مخلوق رأى وشاهد بداية خلق ابيه ؟ .. ولا شيىء فى الحفريات يدل دلالة واضحة ومقنعة على اصل الانسان ، فلم يبق الا نظرية التطور ، وهى من غير شك جديرة بالعناية ، ولكنها لم تفسر نشأة

الحياة تفسيرا علميا ... على انها لا تتصادم مع وجود خالق لهذا الكون .

الى هنا ، وندع الكلام عن نظرية دارون الى شاء له شهرته الادبية والثقافية ؛ ومؤلفاته الكثيرة منتشرة بين ابناء الجيل ذكورا واناثا وهو الدكتور مصطفى محمود المصرى المحرر بمجلة صباح الخير الان ، وقبلها بمجلة روز اليوسف ؛ وقد مر هذا الشاب بدور الشك والالحاد ؛ والف كتابا اسماه الله والانسان انكر فيه وجود الخالق ... ونقضته بكتاب «الله والعقل» ثم آمن مصطفى محمود عن اقتناع ببينات نشرها ، بل وكرر نشرها فى الصحف وفى اكثر من كتاب ، من ذلك كتابه «القرآن محاولة لفهم عصرى» . ويتلخص ماقاله فى هذا الكتاب عن نظرية دارون ، بما يلى :

ان هذه النظرية ترتكز على امرين : الاول ان الحيوانات انحدرت بكاملها من اصل واحد .. ثم اختلفت نتيجة لاختلاف الظروف والبيئات ، فالانسان ـ مثلا ـ فى المناطق الباردة مكتنز اللحم بينما هو فى المناطق الحارة نحيل هزيل ... وكذلك سائر الحيوانات تتكيف ببيئتها وظروفها.

الثانى : ان كل حيوان تطور من نوع الى نوع نتيجة لبواعث وعوامل من داخله ، ومن خارجه .

وقال مصطفى محمود فى الرد على ذلك بان العلماء امضوا بعد دارون سنين وسنين يمحصون ويعيدون النظر فى قوله ، فكانت نتيجة بحثهم وتمحيصهم ان التطور فى عالم النبات وعالم الحيوان معلول لعلة خارجة عن جنس النبات والحيوان ، ومخالفة لما فيهما .. وقد لمسنا آثار هذه العلة الخارجة فى ورق الشجر ، والوان الزهر ، واجنحة الفراش ، وريش

الطاوس ؛ واعظم من هذا كله ان بعض الاشجار الصحراوية تحمل ثمرا يطير باجنحته ملحقا في الهواء .. كل هذا ؛ وغير هذا لا يفسره الا القادر الذى لا تدركه الابصار ، وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير .

ثم قال مصطفى محمود : ان دارون فى نظريته اشبه بقاصر النظر الذى رأى سيارة تسير دون ان يرى السائق ، فظن انها تنطلق بفعل الالات المادية التى فى داخلها فقط دون اى اثر للسائق .

وبعد، فلا ادرى : كيف رضى دارون واتباع دارون ان يضعوا الانسان بين القردة والحيوان ، وهو سيد الخلائق بما يتمتع به من ادراك وملكات، وينفرد به من نسق فى القيم الخلقية والجمالية ! .. قال الله ، جلت حكمته: « ولقد كرمنا بنى آدم ـ . ٧ الاسراء » وقال دارون : كلا ، انهم قـرود ابناء قرود !

على ان دارون كان يؤمن بوجود الله فقد اشتهر عنه انه قال : « يبدو لى استحالة القول بان هذا الكون العجيب العظيم وما انطوى عليه من شعورنا الواعيى ـ انما كان وليد الصدفة، ان هذا الكون هو اكبر سند للقول بوجود الله » . انظر كتاب الانسان فى القرآن للعقاد .

والخلاصة ان الايمان بالله ليس ثمرة للوهم والتقليد ، و لا لتفسير ما نجهل تفسيره من ظواهر الطبيعة ، ولا لنخوف به المردة الطغاة ، ولا لنخدر به المستضعفين من الشعوب، ولا فراراً من حيرة العقل ، ولا ارضاء لحاجة روحية وتعليلا لامنية نفسية ، وانما هو ثمرة حتمية ، لمنطق الحس والعقل ، وشهادة البصر و البصيرة، ولا شيىء اصدق فى الدلالة على هـذه

الحقيقة من نهيه تعالى في العديد من آياته عن اتباع الحدس والظن ، وامره بالاعتماد على البصر والبصيرة كطريق الى معرفته والايمان بعظمته ، كما اوضحنا ذلك ؛ واثبتناه بالارقام .. ومن جحد وكفر فقد خالف الحق عناداً له ، اوجهلا به لتقصيره في البحث والنظر ، اولقصوره في العقل والفكر .

صفاته تعالى

التوحيد ان لا تتوهمه

تكلم الفلاسفة وعلماء الكلام عن صفاته تعالى ، و اطالوا ؛ ولخصنا اقوالهم فى كتاب معالم الفلسفة الاسلامية ، وكتاب فلسفة المبدأ والمعاد ؛ و نقتصر هنا على ماجاء فى القرآن الكريم ، ومن تتبع آياته يجد الكثير منها يشير الى الادلة على وجود الله سبحانه ، ولا يجد آية واحدة تشير من قريب او بعيد الى تحديد ذاته القدسية وبيان كنهها و حقيقتها ، وقد سأل فرعون عن ذلك ، فاجابه موسى بالاثار والافعال ، كما فى الاية ٢٣ من الشعراء: «قال فرعون ومارب العالمين قال رب السموات والارض» .

وفى الاية ٤٩ من طه : «قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى اعطى كل شيىء خلقه ثم هدى» . وهذا امر بديهى وطبيعى ؛ لان العقل الحادث المحدود يستحيل فى حقه ان يحيط بالازلى الابدى الذى لا اول لاوله ، ولا آخر لاخره ، و من هنا قال امير المؤمنين (ع) : فكروا فى خلق الله ، ولا تفكروا فى ذات الله . وقال : التوحيد ان لا تتوهمه . اى لا تتصوره بوهمك لان كل موهوم محدود ، والله لا يحده شيى.

دليل الوصف:

وايضا من تتبع القرآن لا يجد فيه اثرا صريحا للاستدلال على ثبوت

صفة من صفاته تعالى غير التوحيد ، ونفى الشريك ، اما سائر الصفات كالعلم والقدرة والحياة ، وكثير غيرها فانه يذكرها ، ويخاطب الناس بها كشيىء مسلم به، ومفروغ منه ، والسر انه بعد ان قام الدليل القطعى على وجود واجب الوجود بالذات ينتج حتما انه جامع لصفات الجلال والكمال، وانها فى حقيقتها فوق صفات الممكن الحادث بالغا ما بلغ من العظمة ،لان صفات كل شيىء بحسبه .

وبكلمة ان هذا الكون العجيب بابداعه ونظامه يحمل الدلائل القطعية على قدرة المبدع وعلمه،وارادته وحكمته، تماما كما يحمل الدلائل على اصل وجوده ..

و عليه فاى داع لاطالة الكلام عن صفاته تعالى وتقسيمها الى اقسام، والاستدلال عليها بالقياسات والاستنتاجات ، وما الى ذلك مما هو مدون فى كتب الفلسفة وعلم الكلام .

العلة اكمل من المعلول

وتسأل : ان الفعل يدل على وجود الفاعل،وايضا يدل على صفاته التى تتجلى فى الفعل ، ويظهر اثرها للعيان، اما الصفات الاخرى فلا يدل عليها الفعل ـ مثلا ـ حسن الخط اوجودة البناء يدل على ان الكاتب يتقن فن الكتابة،ولكنه لا يدل بحال على ان الكاتب او البانى كريم وشجاع،او جميل وبليغ ، وهذا هو مراد من قال : العلة اكمل من المعلول ، واذن فلا بد ان نلتمس المعرفة بسائر صفاته ، نلتمسها من طريق آخر غير النظر فى الكون وفى انفسنا ، ولا طريق سوى العقل واستنتاجه.

الجواب : اما الصفات التي تضاف الى الذات القدسية ، ولا تتحد معها كالخالق والرازق والرحمن والرحيم والمحيي والمميت- فانها تعرف من الفعل . وكذا بعض الصفات الذاتية كـالحياة والعلـم والقدرة . يظهر اثرها في خلقه تعالى وافعاله ، وما عدا ذلك فان ثبت ببديهة العقل ، او بآية منزلة او رواية متواترة آمنا به ايماننا بالله ، والاوجب السكوت عما سكت الله عنه .. اجل : يجب الاعتقاد اجمالا بان الله متصف بجميع ما يليق بقدسيته وعظمته ، اما التفصيل فنحن غير مسؤلين عنه ، ولا محاسبين عليه.. حتى العلم بالحكمة من وجود العالم، وخلق الانسان .. بل والعلم بان الانسان مسير ، او مخير .

ابداً . . لا يجب البحث والنظر الا من اجل الايمان بالله ، واليوم الاخر وبالنبي والولاية له ، ولمن له العصمة من اهل بيته، والا العلم اجتهاداً ، او تقليداً بما يجب فعله او تركه على اساس الوحي والنص من كتاب الله وسنة نبيه..وبكلمة واحدة ان الذي تجب معرفته عقلا هو طريق النجاة من الهلكة فقط لاغير .

نفي الصفات :

لا يختلف اثنان من المسلمين في ان الله سبحانه يوصف بكل ما وصف به نفسه في كتابه العزيز، وان عظمته في الكمال والجلال كما هي لا يحدها وصف، ولا يدركها عقل، وانها ازلية ابدية تماماً كذاته القدسية . .

وانما الكلام والخلاف في ان الصفات العليا بأي معنى تنسب اليه تعالى، وتطلق عليه: هل تنسب اليه، جلت عظمته على انها شيء غير الذات ،

وزائدة عليها وعلى كنهها تماماً كما هي الحال في وصف الانسان بالعلم ، فان حقيقة الانسان حيوان ناطق ، وحقيقة العلم: الكشف عن الواقع، فاذا وصفنا الانسان بالعلم فقد وصفناه بما هو زائد وخارج عن ذاته وطبيعته والا كان الانسان بما هو عالماً من غير كسب واستفادة وبحث ودرس.؛ وهذا خلاف الحس والوجدان هل وصف الله بالعلم وغيره كذلك وعلى هذه الحال ، او أن الله يوصف بالعلم والقدرة بمقتضى ذاته وحقيقته، لا بشيء زائد عنها تماماً كوصف الانسان بالانسانية، والشجر بالشجرية ـ مثلا ـ قال الاشاعرة كل صفاته تعالى غير ذاته وزائدة عليها ؛ ومعنى هذا ان ذاته بما هي لا تقتضي العلم والقدرة ونحوهما من الكمال تماماً كما ان ذات الانسان لا تقتضي العلم . . وقد تخطوا بذلك حدود التوحيد حيث يلزمهم القول بتعدد القديم ، كما تخطوا حدود العدل في قولهم بالجبر.. وما لنا ولهم وندعهم وشأنهم.

وذهب اهل العدل والتوحيد الى انه لا صفات لذات الله تزيد على ذاته، وان وصفه بالعلم والقدرة كوصف الانسان بالانسانية ، والشجر بالشجرية ، لان ذاته تعالى بما هي وبطبعها تقتضي العلم والقدرة، بل هي عين العلم والقدرة ، كما ان الانسانية عين الانسان ؛ لان كماله تعالى ذاتي لا كسبي ، ومطلق غير مقيد بشيء دون شيء ، وجهة دون جهة ، وانه بموجب هذا الكمال الذاتي المطلق غني عن كل شيء يزيد عن ذاته وحقيقته. ولماذا الزيادة وما هو الداعي اليها ما دامت الذات القدسية كاملة بنفسها غنية من كل وجه وهل نحتاج الى الزائد لنكمل به الكامل ونتمم التام ؟

وعلى هذا اذا اطلقت صفات الكمال عليه تعالى كالعالم والقادر فيجب

أن يراد بها نفس الذات القدسية التي تقدر على كل شيء وتعلم كل شيء تماماً كما يراد من كلمة «الله» وكل وصف جاء في القرآن، وعلى ألسنة الراسخين في العلم فان المراد منه هذا المعنى بالخصوص.. اما الصفات المنفية عن ذاته تعالى في كلام امير المؤمنين وغيره من الائمة الاطهار (ع) فهي الاحوال الخارجة عن الذات، والزائدة عليها، وتعرض لها بسبب من الاسباب؛ تنفى هذه عنه، لانها من صفات المخلوقين دون الخالق.

وتسأل: كيف نتصور وحدة الذات مع تعدد الصفات؟ وهل هذا الا كقول من قال: الاب والابن وروح القدس الها واحداً.

واجاب البعض بان الصفات بالنسبة اليه تعالى متعددة مفهوما متحدة مصداقاً.

وهذا الجواب - كما ترى - لا يحل الاشكال، لان صدق المفاهيم العديدة على شيء واحد يستدعي أن تكون به حيثيات عديدة، فيقال: هو عالم، لصدق مفهوم العلم عليه، وقادر لصدق مفهوم القدرة.. والله تعالى واحد من كل وجه، لا حيثيات له وجهات.. اجل، يقال: هو علم لان العلم ذاتي له، وهو عالم، لانه يعلم كل شيء، ولكن الجهة هنا واحدة، وهي العلم. والاولى في الجواب: انه لا مصداق ولا مفاهيم، ولا حيثيات وجهات.. لا شيء على الاطلاق الا واجب الوجود الكامل المطلق من كل وجه، وان التعدد انما هو في انواع الكمال واقسامه، لا في ذات الكامل المطلق الذي هو المبدأ الاول لكل كمال.. وبتعبير ثان كما ان تعدد المخلوقات لا يتنافى مع وحدة الخالق كذلك تعدد الكمالات لا يتنافى مع وحدة مبدئها ومصدرها.

انما هو اله واحد.

الطبيعة واحدة لوجود الترابط والائتلاف بين اجزائها ، والترتيب الدقيق المحكم ؛قال الملاصدرا فى الاسفار : « ان مجموع العالم من حيث هو مجموع شخص واحد ،له وحدة طبيعية ، وليست وحدته كوحدة اشياءٍ متغايرة اتفق ان صار بالاجتماع والانضمام كشيىءٍ واحد مثل اجتماع البيت من اللبنات والعسكر من افراد، وذلك بان اجزاء العالم بينها علاقة ذاتية لانها حاصلة على الترتيب العلى والمعلولى »ومثاله الارض فان ثبوتها فى مكانها معلول عن ثبوت الشمس فى مقرها، وثبوت الشمس فى مقرها معلول عن ثبوت غيرها من الكواكب فى اماكنها ومن اجل هذا كانت القوانين التى تحكم أى جزءٍ من اجزاء الطبيعة هى بذاتها تحكم الاجزاء الاخرى ، وان دل هذا التدبير الواحد على شيىءٍ فانما يدل على ان المدبر واحد ، ولو كان اكثر لتعدد التدبير وتباين . .

وهذا هو المراد بقوله تعالى : «وما كان معه من اله اذن لذهب كل اله بما خلق ٩١ـ المؤمنون».ومثله اوقريب منه قوله تعالى(: «لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا٢٢ـ«الانبياء» أى لو تعددت الالهة فى الارض والسماء لما انتظم امر من امور الكون،لانصراف الالهة عن تدبيره الى الصراع على السلطة والحدود .

وبتعبير واضح، ومنطق اوضح: لو وجد الهان فلا يخلو : اما ان يكون احدهما قادرا على تدبير العالم، واما ان لا يكون ، فان كان قادراً كان وجود الثانى عبثا ولزوم مالا يلزم ،وان لم يكن قادراً فلا يصلح للالوهية لعجزه من

جهة،وعبث وجوده من جهة ثانية.. و من هنا عندماسئل الامام الصادق عن الدليل على ان الله واحد قال:ما بالخلق من حاجة الى اكثر . وقال الفيلسوف الالمانى«كنت» : ان الطبيعة واحدة ، واجزاؤها مترابطة ، واذا كان لكل كوكب وجرم قانون خاص فان هناك قانوناً يشمل الجميع ، وهذه الوحدة فى القانون والترابط تدل على تنظيم واحد ،ومنظم واحد .

حسبى الله:

وهذا الذى اقتصرنا عليه فى الدلالة على التوحيد وغيره من صفات الجلال كاف للعلم بها، ومؤد للغرض المطلوب شرعا وعقلا ، ومازاد فتكثير الفاظ ومضيعة للوقت..وهناك امر هام وعظيم جدا يتصل مباشرة بكلمة التوحيد وعقيدته،ولاينبغى اهماله بحال . . ولكن ، وللاسف، اهمله علماء الكلام والفلاسفة الموحدون فيما اطلعت عليه من كلامهم مع انهم سودوا الصفحات الطوال فى«ان قلت قلت» وما اشبه !. . ويا ليتهم اقتصروا فى اثبات التوحيد على الدليل الذى استدل به سبحانه على نفى الشريك له. وفى غيره من الصفات على ما ثبت ببديهة العقل وتتواتر به النقل.. ولكن ارادوا ان يفلسفوا العقيدة على اساس التصورات والتخيلات .

ومهما يكن، فان الامر الهام الذى اشرنا اليه هو المعانى الجليلة السامية التى تنطوى عليها، وتوحى بها كلمة التوحيد ، واليك بعضها :

لقد اختص الاسلام عن سائر الاديان باسم دين التوحيد : وافترق عنها بالتشدد فى انكار الشرك ، والتنزيه عن كل شائبة من شوائبه . . وتميز المسلم عن غيره بكلمة «لااله الاالله» كما تميز النصرانى بحمل الصليب اوعمل

اشارته بيده على صدره مع الفارق العظيم في ان الصليب والتصليب في النصرانية شعار وكفى ، اما كلمة التوحيد في الاسلام فهي منهج عملي ، وشريعة للحياة ، كما هي عقيدة بأدق ما فيها من معنى .

ان كلمة لااله الاالله مبدأ الهي انساني يهدف الى نجاة الانسان في حياته الفانية والباقية ، ويحفظ له كرامته واستقلاله في شخصيته ، ولا يجعل لاحد عليه سلطانا الا للحق وحده الذي يتساوى فيه الجميع ، فالجاه والمال واشياء الدنيا كلها ليست بالهة تعبد ، ولا بشيء يذكر الا اذا كانت خالصة لوجه الله ، وكل من ترجوه وما ترجوه ، وتتوكل عليه فهو هباء الا الله فهو كافيك ومغنيك: «رب المشرق والمغرب لااله الاهو فاتخذه وكيلا ـ ٩ المزمل» . أي توكل على الله وحده لانه لامعين سواه .. وخير ما قرأت في تحديد المتوكل انه الذي لا يعتد بنفسه اطلاقا ، بل يعمل بنشاط ، فاذا نجح ارجع نجاحه الى الله ، لا الى ثمرة يده ، وسعي نجاحه توفيقا من الله وبحوله وقوته ، لا بذكائه هو وقدرته .

ويستحيل عقلا وواقعا ان يخلص الدين او الضمير ، ويصفو من الاكدار والاقذار الا مع عقيدة التوحيد ؛ والايمان بانه لا احد يملك مع الله شيئاً الا ما ملكه ، ومتى صدق هذا الايمان ، واستقام في قلب أي انسان احب وتسامح ، واخلص وتواضع ، وضحى وتعاون ، وتنزه عن رذيلة الحقد والحسد والخيانة ، والكبرياء والغرور ، وبذل قصارى الجهد لمرضاة الله والحق ، ومن اجل هذا سميت كلمة لااله الاالله كلمة التوحيد ، وكلمة الاخلاص ، وكلمة التقوى ، ولنا ان نسميها ايضا كلمة التحرير وفي الحديث الشريف : «خير ما جئت

به اناوالنبيون من قبلى هى كلمة «لااله الاالله».

وفى عقيدتى وعقيدة كل واع ان الناس لو آمنوا بكلمة التوحيد ، واتخذوها منهجا فى سلوكهم لما عرفوا الازمات والمشكلات الخاصة والعامة ولا الحرب الباردة والساخنة والا انصرفت العقول والاموال والاعمال الى الخراب والدمار والضياع ، بل تعاون كل انسان مع اخيه الانسان ليعيشوا جميعا فى هناء وامان .

قال عبدالرحمن عزام فى الرسالة الخالدة : «المؤمن الموحد يجد حسابه مع الله مباشرة ، فيرفعه اليه وحده ، فهو لا يكون ظالما ، لانه يعارض بالظلم صفة من صفات الله ، وهى العدل ، وهو لا يكون غليظا قاسيا لانه يعلم ان سيده رحمن رحيم ، ولا يكون كاذبا ولا منافقا ولا مخادعا لان حسابه مع الله الخبير العليم ، ولا يكون ذليلا اوجبانا ، لانه يعلم ان الامر بيد الله وحده ، وهكذا اذا استرسلنا فى تعداد النقائص نجدانه قد حيل بينها وبين المؤمن الموحد بحجاب من التوحيد».

الخير والشر

هذه المسألة:

مسألة الخير والشر التي نتكلم عنها هنا هي غير مسألة : هل الانسان مسير او مخير ، ويأتي الكلام عنها . . لان موضوع الاولى يتناول الظواهر الطبيعية، وغيرها مما لا يتصل بارادة الانسان واختياره من قريب او بعيد ، اما موضوع المسألة الثانية فهو خاص بافعال الانسان الاختيارية .

ماقيل حول الخير والشر:

للفلاسفة وغيرهم اقوال متضاربة حول الخير والشر، فمنهم من قال : لا وجود لهما بالذات . بل هما من الامور النسبية ، فرب شيء يكون خيرا عند انسان وشرا عند آخر . . كل بحسب شعوره وظروفه وتقديره ، وعلى ذلك الكثير من اهل هذا العصر .

ويلاحظ بان هذا القول ان صدق في شيء فانه لا يصدق في كل شيء . . فالصحة ـ مثلا ـ خير عند جميع الناس بل يطلقون عليها بالخصوص كلمة خير بلا قرينة معينة، وذلك حين يقول احدهم للاخر : كيف انت ؟ ويجيب المخاطب: بخير . فيفهم السامع اول ما يفهم الصحة والسلامة من كلمة خير

ولو كانت الصحة خيراً عند انسان دون آخر لما فهم السامع هذا المعنى من كلمة خير الامع القرينة .

وقال ثان: الخير بذاته موجود، وهو كل ما فيه نفع وصلاح ، والشر بذاته موجود ايضا ، وهو كل ما فيه ضرر وفساد .

ويلاحظ بان هذا اشبه بتفسير الماءِ بالماءِ لان النفع والصلاح يحتاج الى تفسير وتحديد، وكذلك الضر والنفع .. اذ رب صلاح عندك هو فساد عند غيرك .

ثم جاء من يقول: علينا ان نتخلص من جميع الاقوال والاراءِ في الخير والشر، وغيرهما من القيم، وان نعالج كل شيءٍ ، وبالخصوص العلوم الانسانية معالجة صحيحة ، وندرسه دراسة موضوعية علمية، ثم نسجل خصائصه وصفاته بصدق وامانة دون ان ننقده ونبدي رأينا فيه ، ونحكم عليه بخير او بشر ، وحسن او قبح ، لان الاحكام ـ في الغالب ـ تكون مغرضة وموجهة بدوافع شخصية .

ويلاحظ بان هذه السلبية وهذا التهرب من مواجهة الحقيقة و الواقع يتنافى مع الدراسة الموضوعية العلمية ، لان الغرض من هذه الدراسة هو ان نقطف ثمرها ونعلن للناس قيمة الشيء الذي درسناه دراسة علمية ، وهل هي خير ام شر، وحق ام باطل ؟ . والا كانت الدراسة عقيمة وبلا جدوى ... و هل يكفي ان نعلم ونتكلم بان القنبلة الذرية او الهيدروجينية اذا القيت على مدينة فيها الملايين من الرجال والنساء و الاطفال افنتهم عن اخرهم ، ثم نحتاط ونتورع عن الحكم بان هذا العمل

شروقبيح واثم وجريمة ؟ .

معيار الخير والشر

ليس من شك ان الشيء الذى يكون خيرا عند شخص دون آخر، ويشبع رغباته دون سواه ـ لاضابط له ولامقياس ...ومن يقدر ان يضبط و يحدد الميول الشخصية ؟ . وبالخصوص الطائشة والجائرة ... و مثل ذلك فى امتناع الضبط والتحديد ،الشيء الذى يرضى فئة دون فئة لوحدة فى المشاعر ، ولكن هذا افضل من النوع الاول الذى يرضى الفرد فقط ، و كلما ازداد عدد الفئة والجماعة كان الخير النسبى افضل،وكذلك الشر .. وعلى أية حال فان الخير والشر النسبى خارج عن محل الكلام و موضوع البحث .

ان موضوع البحث هنا هو الخير والشر بذاته ، ولاشك فى وجوده ، والدليل عليه بديهة العقل، فلقد اتفق الناس جميعا على ان الصحة خير ، والمرض شر، والشجاعة فضيلة، والجبن رذيلة ، والذكاء والفصاحة من المحسنات ، والبلادة والفهاهة على العكس ، وان الارض الطيبة اغلى و اثمن من الارض الخبيثة ، الى غير ذلك مما لايختلف فيه اثنان مهما تغيرت الظروف والاحوال ... ولولم يكن للخير والشر وجود فى ذاته لماوجدت الشرائع والقوانين ، ولاامكن التحاكم الى شيء ... هذا ، الى ان اهل الجاهلية حتى الهمج الرعاع يحرمون بفطرتهم نكاح الامهات والبنات ، والامم المتحضرة الملحدة منها وغير الملحدة تحرم السرقة والقتل ،و توجب رد الامانة ، ووفاء الدين؛ واى شيء ادل من هذا على وجود الخير و

الشر بذاته ؟.

اما معيار الخير والشر، وتحديده، تحديدا جامعا مانعا يرضى جميع الناس على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم ، ويرفع ما بينهم من خلاف، اما هذا التحديد فصعب وعسير، لان الخير والشر على انواع ، منه طبيعي كالخصب والجدب ، ومنه عاطفي كالحقد واللؤم، والحب والاخلاص ، ومنه اجتماعي كالتعاون او التناحر ، ومنه نظري فكري كالقوانين الانسانية التي تلائم الانسان من حيث هو انسان، مثل كل انسان بريء حتى تثبت ادانته، وكل مجرم يؤخذ بجرمه وجريرته .

ومن اجل هذا لا ينحصر طريق المعرفة بالخير والشر ، لا ينحصر هذا الطريق بالبديهة كالامثله المتقدمة ، بل هناك طرق اخرى ، منها ما اشار اليه الفيلسوف الالماني «كانت» بقوله : «اذا اردت ان تعرف حسن الصفة من قبحها فانظر بعقلك ما ينجم عنها اذا هي عمت وانتشرت ؟ . فاذا تمخضت عن خلل في الوجود والعلاقات الانسانية كالسرقة و القتل ـ مثلا فاعلم ان القبيح شيمتها» .

ومن هذه الطرق القلب السليم ..، ولكن تحديد هذا القلب بدقة و صيغة واضحة تزيح عنه اللبس والغموض ـ صعب جدا ؛ وعليه فانا نشير الى هذا القلب ، وندل عليه بضرب بعض الامثال من افراده كقلب غاندى الذى تمرد على عادات قومه وبيئته في عبادة البقرة ونجاسة المنبوذين، وقلب الحنفاء الذين آمنوا بالله واليوم الاخر بفطرتهم الصافية في عصر الجاهلية الجهلاء ، ومنهم ورقة بن نوفل ، وعبدالله بن جحش ، وعثمان

بن الحويرث ،وزيد بن عمرو، وقس بن ساعدة الايادى، وذكر اهل التاريخ ان صفوان بن امية ومقيس السهمى حرما الخمر على نفسيهما بدافع الفطرة والغريزة .

ومن هولاء ونظائرهم يمكن ان نستخلص تحديداً لصاحب القلب السليم بانه الذى يملك شخصية قوية مستقلة لايوثر فيه أى شيىء الا ما انبثق من اعماقه ، واستوحاه من قلبه الصافى كما اودعه الله دون ان تلوثه التربية والتقاليد ، ومن خلال هذا القلب وحده ينظر الى الاشياء ويقارن بينها، وعلى اساسه يرفض مايرفض ،ويقبل مايقبل ، واصحاب هذا القلب موجودون وان كانوا اقل من القليل ، وهم الذين عناهم الله بقوله : «الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه ـ ١٨ الزمر» .

والخلاصة ان الخير والشر موجودان،وهما يوجهان الانسان فى سلوكه حسبما يعتقده بمفهوم الخير والشر، وهو مصيب فى معتقده ان اتفق معه جميع الناس ، اواستوحاه من قلبه ان كان له قلب سليم ، والا فهو مخطىء ان تمخض عن خلل فى الوجود والعلائق الانسانية على حد تعبير «كانت» .

الاسلام وتحديد الخير والشر

وتسأل: لماذا لانجد فى كتاب الله وسنة نبيه تحديداً واضحا عن الحق والخير،وعن الباطل والشر، والذى نجده هو الامر والترغيب بذاك ، والنهى والبعد عن هذا كقوله تعالى:«فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره»؟

واجاب الاستاذ عبد الكريم الخطيب عن هذا السؤال فى كتاب القضاء

والقدر- بما يتلخص ان الاسلام لا يحفل بالنظر الفلسفي والجدل اللفظي حول حقائق الاشياء وماهيتها، وغايته اولا وآخراً هي تقويم الاخلاق و تربيتها، واثارة مشاعر السمو النفسي في الانسان ، و ربطه بالمجتمع برابط الحب والتعاون... ومن اجل هذا كان حديث الاسلام عن الاخلاق عاما و مجملا لا يلتفت فيه الى ذاتيات الاخلاق، بل الى آثارها في الحياة ومن هذا الباب «ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي- ٨٤ الاسراء» وقوله: «يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج- ١٨٨ البقرة» حيث صرف سبحانه السائلين الى ما هو اوفق وانفع ولفتهم لفتة زاجرة الى الاثار والمنافع .

ثم قال: هناك امور واضحة وصريحة في باب الخير والشر ، فالسارق يدرك ان عمله شر، والكذاب يعرف انه منحرف عن الحق ومع هذه الصراحة والوضوح فانه لا يستطيع ان يضع معادلة جبرية للخير والشر، ويحللهما تحليلا كيماويا كما يريد الفلاسفة والحكماء .

شبهة الشر:

تبين مما تقدم ان الشر موجود، وعليه يتجه هذا السؤال: كيف يمكن الجمع والتوفيق بين الايمان بوجود الشر . والايمان برحمة الله وقدرته على كل شيء؟ ولماذا لم يخلق الله عالما لا شر فيه ؟ .

ولقد طرح هذا السؤال منذ آلاف السنين ، واجاب عنه «زرادشت» بوجود الهين : اله الخير ، وهو «موزد» او «يزدان» واله للشر ، و هو «اهريمان» او «اهرمن» .

وقال آخر : ان الله خلق الكون ، ثم اعتزل ، لا يعنيه من امر الخلق

قسوة ولا رحمة ،وكل مافى الكون من مظاهر هو من عمل الكون بما فيه من قوى وحركة .

وقال عابد زاهد :ان الشر فى الدنيا لعقوبة العصاة والمذنبين ...الى غير ذلك من الاقوال التى لا تستند الى دليل .

وارجح ماقرأت فى الجواب عن السؤال المتقدم - يتلخص بان العالم المادى من حيث هو وبموجب طبعه وذاته،له آفات وسيئات كالاغراق والاحراق ، والوباء والادواء و الزوابع و العواصف ،و ماالى ذلك من اسباب النقص والشقاء ، وله ايضا حسنات وخيرات ، كالغذاء والجمال و الرفاهية ، ونحو ذلك من النعم و اسباب الحياة ، ويستحيل ان توجد الطبيعة لمجرد المنافع واشباع الرغبات من دون الزوابع و العواصف و غيرها من الالام ،كان يوجد البحر- مثلا -للصيد والنزهة والسفر فقط دون ان يغرق فيه احد مهما كانت الاسباب، وان تنظر العين الجمال دون القبح ، وتسمع الاذن ماتشتهى دون ماتكره ، وان يذوق الفم الحلو دون المر ، ويكتب القلم كلمة الحق دون الباطل ، وان يقبل الجسم الحساس الصحة دون السقم ، والراحة دون التعب ، والمعدة الشبع دون الجوع ، وان ينطق اللسان صدقا وصوابا دون الكذب والخطأ ... الى مالانهاية من الامثلة :

وعلى هذا يكون الشر من فعل الطبيعة المخلوقة مباشرة لا من فعل الله الخالق .

قال صاحب الاسفار : «فاذا قلت : لماذا لم يخلق الله طبيعة بلا شر

فكانك قلت : لماذالم يجعل الله النار غير النار ..وبهذاتعلم فسادمن ظن من من العوام واهل الكلام الذين لايعرفون كيفية العجز في المادة ،فيقولون: ان الله عجز عن كثير من الاشياء ، منهاان يخرج ابليس من ملكه ، وجهلوا ان العجز في عدم وجود الملك لغير الله ، لافي الله ، و منهاان يدخل السموات في خرم الابرة ، وذهلوا ان العجز في الابرة وخرمها ، ومنهاان يجمع بين النقيضين : والعجز فيهمالافيه» .

وتسأل : ماهووجه الجمع والتوفيق بين القول : ان الشر من لوازم الطبيعة الضرورية وبين ماجاء في بعض الروايات من ان الخير والشر من الله، جلت عظمته ؟ .

الجواب اولا: جاء في اصول الكافي عن الامام الصادق (ع) : ان الله سبحانه قال : يا ابن آدم انا اولى بحسناتك منك ، وانت اولى بسيئاتك مني ثانيا: ان الامر في ذلك سهل جدا ،فلقد جاء في العديد من الايات ان ظواهر الطبيعة كلها من الله كالرياح و الامطار ، و انبات النبات .. حتى الظل نسبه سبحانه الى نفسه : «ألم تر الى ربك كيف مدالظل و لوشاء لجعله ساكنا ـ ٤٥ ـ الفرقان» : بل في بعض الايات ان الله خلق آدم والانعام بيده : «مامنعك ان تسجد لماخلقت بيدى ـ ٧٥ ص » : «اولم يروا انا خلقنا لهم مماعملت ايدينا انعاما ـ ٧١ ـ يس» مع ان هذا ومااليه يستند مباشرة الى الطبيعة .. ولكن بما ان الله هوالذى اوجد الطبيعة بكل مافيها من قوى وعناصر ، وان هذه العناصر تتفاعل وتأخذ مجراها الطبيعي ـ صح نسبتها اليه تعالى تبعا وبالواسطة .

اجل ، الخير من ظواهر الطبيعة ولكن تصح نسبته مباشرة الى الله؛ وان كان السبب القريب هو الطبيعة ، لان الغرض من وجود الطبيعة هو الخير ، والخير محبوب ومراد لله سبحانه ؛ اما الشر فليس بمحبوب ، ولا هو مراد بالاصل بل تبعا ... وبتعبير ابن سينا «الخير مقتض بالذات ، والشر مقتض بالعرض» . وقال الامام الصادق (ع) : ان ترك الخير الكثير لشر قليل فيه شر كثير .

وقال الملا صدرا : الشر موجود فى الطبيعة وكثير، ولكن خير الطبيعة اكثر من شرها ، ونفعها اكثر من ضرها.. ان الذى احترق ثوبه بالنار قد تضرر بسببها ،ولكن اذا قسنا هذا الضرر البسيط الى منافعه بالنار طوال حياته ـ لم نجده شيئا مذكورا .. هذا فى الشخص الواحد ، فكيف النوع ؟ .ان الاشخاص الاصحاء من افراد الانسان والحيوان اكثر بكثير من ذوى الافات والعاهات » .

الخلاصة

والخلاصة ان الله قادر على كل شيىء وعالم بكل شبىء، ويستحيل فى حقه ان يوجد شيئا الاعلى اكمل مايمكن ان يوجد عليه ذلك الشيىء ،بل يستحيل ان يوجد ماهو احسن منه، وقد استنتج الفلاسفة من هذه الحقيقة قاعدة ، اسموها قاعدة الاشرف ، و يريدون بها ان الله لايوجد الادنى مع امكان وجود الاعلى ...وايضا يستحيل ان يوجد الشيىء الامن اجل الخير فقط ... حتى جهنم و عذابها خير بالنسبة الى تحقق الغرض المقصود منها .

وقد يستتبع الخير المراد الله قليلا من الشر ، فيغتفر فى جانب الخير الكثير ، ولذا يضحى التاجر والزارع والصانع ، بل وطالب العلم بالكثير رغبة فيما هو اكثر ربحا ، واعود نفعا .. وختاما هل من الخير ان يحبس الله عن عباده المطر لانه يبلل ثوب زيد او عمرو ، ويحرمهم من الشمس ومنافعها لانها تضرب طفلا بحرارتها؟ . وهل علينا ان نحجم عن استعمال الكهرباء لان البعض قد يتضرر من وجودها ؛ ولا نركب السيارة والطائرة ، لانه بالامس سقطت طائرة ، واليوم اصطدمت سيارة .

فلسفة الاختيار

مواضيع ثلاثة

نتحدث في هذا الفصل عن مواضيع ثلاثة، لانها متشابكة متشابهة .. الموضع الاول : القضاء والقدر. الثاني: هل الانسان مسير او مخير .الثالث: ماهو المراد بنسبة الهدى والضلال الى الله تعالى ؛ مثل قوله تعالى : «فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ـ ٨ فاطر» ؛

معنى القضاء والقدر

ماهو معنى القضاء والقدر ؟ .وهل يجب الرضا والايمان به ؟ وبالتالى هل هذا الايمان يبعث على الكسل والتواكل كما يقول اعداء الله والاسلام؟.

اما القضاء فله معان : منها الامر ؛ كقوله تعالى :«و قضى ربك ان لا تعبد و الا اياه و بالوالدين احسانا ـ ٢٣ الاسراء» ومنها الحكم والفصل كقوله سبحانه : «فاقض ما انت قاض ـ ٧٢ طه» . ومنها الفراغ والتمام : « قضى الامر الذى فيه تستفتيان ـ ٤١ يوسف » .ومنها الارادة التكوينية : « و اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون ـ ٤٧ آل عمران » .

ومنها العهد :«وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الامر ـ ٤٤ القصص ». ومنها الموت والقتل :«فوكزه موسى فقضى عليه ـ ١٥ القصص».

ومنهاالخلق : «فقضاهن سبع سموات ـ ١٢فصلت» . الـى غيرذلك مـن المعانى التى انهاها بعضهم الى احد عشرمعنى .

ويستعمل القدرفى التضييق ، ومنه قوله تعالى : «واماانا.اابتـلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى اهاننى ـ١٦الفجر» . ويستعمل فى التعظيم: « «وماقدروالله حق قدره ـ١٩ الانعام» . وفى مبلغ الشيىء و مقداره: «قـد جعل الله لكل شيىء قدرا ـ٣ الطلاق ».. «اناكل شيىء خلقناه بقـدر ـ٤٩ القمر» . وقيل : المراد هناان كل شيىء ثابت فى علم الله كماهوفى طبيعته و خصائصه ، ويستعمل القدرايضا فى القضاء الحتم: و كان امرالله قـدرا مقدورا ـ٣٨ الاحزاب » .

واوضح معانى القضاء البت والامضاء الذى لامعقب و لامردلـه ؛و اوضح معانى القدر التقدير ، قال الامام الكاظم نجل الامام الصادق (ع) : القدرهو تقديرالشيىء من طوله وعرضه ، والقضاء هوالامضاء الذى لامرد له ، وقال الرضا حفيد الامام الصادق (ع) : القدرهندسة ، والقضاءابرام .

ويمكن ان يكون من هذاالباب ماروى ان عليا امير المؤمنين (ع) عدل من حائط مائل الى آخر مستقيم ، فقيل له : اتفرياامير المؤمنين من قضاءالله ؟ .قال :افرمن قضاءالله الى قدرالله عزوجل . اى من قضاءِالله بسقوط الحائط الى مابقى من عمرى الذى قدره الله ، وكتبه لى .

وكثير امايستعمل القضاءِ والقدرفى معنى واحد ؛وهوالحتم الذى لامعقب له ولامرد .

موضوع القضاء والقدر

وموضوع القضاء والقدر هومايحدث فى الطبيعة من ظواهر ،ويصدر

عن الانسان من اعمال ،وليس من شك ان لهذه الحوادث والاعمال موجبات واسبابا .. فماهى هذه الموجبات والاسباب ؟ . هل هى الطبيعة وسننها فقط لاغير ،كما يزعم الماديون ، اوهى قوة قاهرة تكمن وراء الطبيعة ، وتتصرف كما تشاء مباشرة وبلا توسط علة ونظام كما يظن المؤمن الغبى ، اوهى تلك القوة القاهرة العالمة ،ولكن بتوسط ربط المسببات باسبابها، والنتائج بمقدماتها ، كما يقول اهل الدين والعلم .

قال الامام جعفر الصادق (ع) : « ابى الله ان يجرى الاشياء الا باسباب ، فجعل لكل شيء سببا ، وجعل لكل سبب شرحا ـ اى علامة تدل عليه و تميزه عن غيره ـ وجعل لكل شرح علما ـ اى ان تلك العلامة تفيد القطع واليقين ـ وجعل لكل علم بابا ناطقا عرفه من عرفه ، وجهله من جهله». اى ان باب العلم لايخفى على اهله ، وهو العقل والوجدان ، و النبى و القرآن .

وقال الفارابى : ان الله هو علة وجود الاشياء ـ يريد الاسباب ـ اما الاشياء ذاتها فانما يؤثر بعضها ببعض وفق القوانين نعرفها بالتجربة .

وقال الملا صدرا فى شرحه لاصول الكافى : القضاء والقدر انما يوجبان ما يوجبان بتوسط اسباب وعلل مترتبة منتظمة ، بعضها مؤثرات، واخرى متأثرات ، ومتى اجتمعت الاسباب وارتفعت الموانع وجد الشيء المقضى المقدر .

وفى قول الله سبحانه غنى عن كل قول ؛ وهو واضح وصريح فى انه جلت حكمته ؛ يجرى الامور وفق القوانين ثابتة تضبط سير الحوادث و

الاعمال ، وتطرد على نسق واحد عبر القرون والاجيال ، وقد عبر سبحانه عن هذه القوانين بسنة الله التي لا تقبل التبديل والتحويل لانه هو خالقها والمسيطر عليها ، قال عز من قائل : سنة من قد ارسلنا قبلك ولن تجد لسنة الله تحويلا ٧٧ الاسراء » . وقال : « سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا - ٦٢ الاحزاب » . و قال : ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغير وما بانفسهم - ١١ الرعد » . الى آخر الايات التي دلت بصراحة و وضوح على ان قانون الاسباب والمسببات ؛ وربط النتائج بالمقدمات هو قانون كوني الهي يطرد في كل شيء ولا يخرج عنه شيء الا اذا خرج عن صنع الله .. ان وجد شيء ليس لله فيه صنع .

الايمان بالقدر ايمان بالعلم والعمل

وعلى هذا يكون الايمان بالقضاء والقدر هو عين الايمان بالعلم و العمل ، والجد والاجتهاد من اجل الحياة ، بل هو عين الايمان بان الله مع العاملين والمجاهدين ، وانه سبحانه ضد الكسالى و المخنثين : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب و الشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون - ١٠٥ التوبة . .. وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون - ١١١ النحل . ان الله سبحانه لا يفعل جزافا ، ولا يترك اعتباطا ، بل يعطى ويمنع حيث يوجد سبب العطاء او المنع : «ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك - ١٩١ آل عمران » .

اما الرضا بالقضاء والقدر (١) فهو الرضا بكد اليمين وعرق الجبين ،

---

١ - الرضا بالقضاء والقدر عند حلول المصيبة لا يجب لذاته و بما هو ، وانما الواجب ان لا يتفوه الانسان بمحرم ، اما الايمان بالقضاء و القدر بالمعنى الذى ذكرناه فهو من لوازم العلم بالله وصفاته .

والثقة بالله وبالنفس، هو النهوض بالعبء عن طيب خاطر ،وتحمل المسؤلية من غير تافف وتبرم . ونفض اليدين من الغرور مع النجاح ، على حد تعبير بعض الادباء وترك الاهات والحسرات مع الفشل ، وبكلمة هو ان يكون الانسان عاقلا متزنا فى جميع حالاته ، لاتبطره نعمة ، و لاتذله مصيبة : لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم ـ ٢٣ الحديد » .

ابعد هذا يقال بان الايمان بالقضاء والقدر يجعل المسلم كسولا متواكلا يدع اموره الى خالقه يعملها عنه و ينجزها له ؟ .. اذن لماذا الحث على الجهاد وآياته، وعلى الصبر والتضحية من اجل العمل المثمر ؟ . واذا كان الايمان وحده كافيا وافيا فلماذا قرنه الله بالعمل فى العديد من الايات، ثم اجملها بقوله . «وان ليس للانسان الا ماسعى ـ ٣٩ النجم »؟ .

ان السبب الاول والاخير الذى اوجب الايمان بالقضاء والقدر هو بديهة العقل التى ادركت بمعونة الحس و العيان ـ كما قد منا فى فصل اثبات الخالق ـ انه لاوجود لشيىء على الاطلاق الا ولله فيه تأثير و تقدير بنحو او باخر . حتى نظرات العين ، ونبضات العرق ، وخطرات القلب : «ولقد خلقنا الانسان و نعلم ما توسوس به نفسه ـ ١٦ ق » . لقد خلق سبحانه الاسباب وسلطها على المسببات ، وهو عالم بالاثنين معا ، و علمه تماما كارادته لا يتخلف عن المعلوم، ولو شاء لذهب بكل من السبب والمسبب والفاعل وفعله .. ماشاء الله كان ،وان لم يشأ لم يكن .

واذا كان الايمان بقضاء الله وقدره هو عين الايمان بالله و نظامه ، وقدرته وسننه التى هى سنن الطبيعة بالذات ـ اذن اين مكان الصراع و

العنادبين الايمان بالقضاءِ والقدر؛ وبين الايمان بالعلم والعمل ؟ . و ايـن مكان التواكل والكسل بل ماهو الفارق ووجه الخلاف بين المؤمنيـن والماديين من حيث العلم والايمان بان الاشياء تجرى على اسبابها ؟.. ابدا لاخلاف بين من آمن ومن جحد من هذه الحيثية والجهة ، والفرق انما هو من جهة ثانية .. ذلك بان الماديين قالوا : لاشيىء وراء الاسباب الكونية يدبرها ويقوم عليها : بل هى عنصر مستقل برأسه يفعل مايشاء ، و يحكم مايريد ... وقال المؤمنون العارفون : ان الاسباب والعلل بشتى انواعهـا تنتهى بكاملها الى المبدا الاول وسبب الاسباب ، ويفتقر اليه فى اصل وجودها واستمرارها وانه تعالى شأنه لو تخلى عنها طرفة عين فما دونها لـم تكن شيئا مذكورا .

وقد اثبتت التجارب العلمية ان بعض الاثار المترتبة بظاهرها على المادة يستحيل ان تأتى من ذات المادة وخصائصها ، وانما هى بتوسط قوة خارجة عن المادة ـ كما نقل عن علماء الطبيعة ـ .ومما قراته فى هذا الباب مانقله العقاد عن اهل الاختصاص فى كتاب الفلسفـة القرانيـة ص١٤٦ طبعة ١٩٦٩ ،وهو «ان الكشوف تعاقبت فى ميادين العلوم الطبيعية ،وكل منها يرجع الى قانون يزعم اصحابه انه صالح لتفسير كل ظاهرة من الظواهر الطبيعية بغير حاجة الى مدبر من وراء الطبيعة .. ثم تقدمت الكشـوف الذرية ، و ابطلت هذه النظرية» ثم ذكر العقاد الكاتب الاسلامى الشهير اسماء علماء الطبيعة الذين آمنوا بهذه الحقيقة واعلنوها على الملا .

والخلاصة ان الايمان بالله يلازم الايمان بالقضاءِ والقدر بالمعنـى

الذى ذكرناه ، وهوان الله سبحانه وتعالى قد جعل لكل شيىء سببا ، وان سلطانه فوق سلطان الاسباب وغيرها .

هل الانسان مسيرا ومخير ؟

ان افعال الانسان كغيرها من الحوادث لابد لها من سبب موجب ، و الامتنع وجود شيىء منها على الاطلاق ، لان الحكمة الالهية قضت ان يجرى كل شيىء بسبب ونظام ، وهذا السبب الموجب عبارة عن خط طويل يتألف من حلقات هى علل متتابعة يتولد بعضها من بعض تبتدى من واجب الوجود العلة الاولى ، وتنتهى بالعلة المباشرة لوجود الفعل بلا واسطة ، و ليست هذه العلل بكاملها فى تصرف الانسان ، وتحت قدرته، يقبل منها ما يشاء و يرفض ما يريد .. هذا مستحيل، والا كان الانسان مخيرا، فى كل شيىء حتى فى خلقه واصل وجوده ، واى كائن طبيعى لا يخضع لقوانين الطبيعة ؟. اللهم الا اذا امكن ان ينفصل الشيىء عن نفسه .

ولكن ليس من الضرورى ان تكون العلل فى الخط السببى كلها حتمية ابدا ودائما وفى كل الاحوال ، بحيث لا يستطيع الانسان ان يختار اى شيىء من الاشياء ، او يحدد لنفسه مسلكا من المسالك .. ولو صح هذا لم يكن للانسانية عين ولا اثر، اذ لا انسانية بلا حرية ، وما فضل الله الانسان على كثير من خلقه الا بعد ان منحه القدرة التى بها يفعل والعقل الذى به يميز و الارادة التى بها يختار .

واذن ، فالخط السببى قد يكون حتميا بجميع اجزائه وعلله الاولية والثانوية ، وعندئذ يكون الانسان مسيرا، لا مخيرا بالاتفاق .. و يستحيل ان يكون الخط السببى بكامله اختياريا .. ايضا بالاتفاق .. وقد

تكون بعض علل الفعل وموجباته حتمية لاصلة لها بقدرة الانسان وارادته، والبعض الاخر عين قدرته وارادته ، وهنا محل البحث والكلام في ان الانسان هل هو مخير او مسير في هذه الحال ؟.

ولا اشك في اني مخير في كثير من الافعال ، فها انا الان ادخن واكتب بملىء ارادتي واختياري ، وبالامس عرض على بائع البطيخ ان اشتري منه فاشتريت ، ودفعت الثمن عن طيب نفس ، وساتغدى بعد ثوان من اللحم المشوى مع «الزلاطة» . وصممت ان اصطاف بلبنان في العام المقبل ، ان كنت مع الاحياء كل ذلك كان مني لا من سواى ، وانا بالذات اخترته لنفسي ، وهكذا غيري .

هذا ما احسه من اعماقي ، ولا استطيع ان انكر احساسي ، و ما من احد يستطيع اقناعي باني في ذلك مسير لا مخير الا بدليل اقوى من الحس والوجدان .. فاين هو ؟ . وهل بعد الحس من دليل ؟ . وكلما تفاقم الخلاف في حرية الانسان ازددت ايمانا ويقينا بحريته .. ذلك بان الخلاف في حرية الانسان هو في ذاته اجماع على وجودها ، واعتراف صريح بها من الذين انكروها على المستوى النظري ، لانهم في انكارهم لحرية الانسان اما مسيرون ، واما مخيرون ، ولا ثالث ، وعلى الاول فانكارهم ليس بشيىء لان انكار المسير تماما كانكار المجنون واقراره ، وعلى الثاني يكون انكارهم في ذاته اعترافا عمليا بحرية الانسان ، واذن فالاجماع قائم و منعقد من الجميع على ان الانسان مخير لا مسير .

وتسأل : اذا كانت حرية الانسان في هذا المكان من البداهة فكيف

وقع فيها الخلاف بين ارباب العقول ـ ولو على المستوى النظرى ـ

الجواب :

ان ارباب العقول الذين اشرت اليهم يعترفون بان فى الانسان قدرة وارادة ، ولكنهم يزعمون أن الله يخلق الفعل فى الانسان بمجرد ان يهم به ، و يتجه اليه ، وان الاثر كل الاثر فى وجود الفعل الانسانى هو لله وحده ، ولا شىء فيه للانسان ومن الانسان .. كلا ، انه مجرد ظرف واداة للفعل .. حتى «البانزين» . فى السيارة افضل الف مرة من الارادة والقدرة فى الانسان ، لان «للبانزين» تاثيره البالغ فى حركة السيارة وسيرها ، اما القدرة والارادة فى الانسان فليس لهما ادنى تاثير فى نشاطه وعمله .. ويأتى البيان .

وبعد ، فان مقياس الفعل الاختيارى هو ان يكون مرادا ومقدورا فعلا وتركا لفاعله اياكان مصدر الارادة ومنشأها ، وعلى هذا الاساس قامت الاديان والاخلاق والاداب ، وشرعت الشرائع والقوانين ، وعامل الناس بعضهم بعضا تهمة وثقة ، وكرموا الابطال والهداة ؛ ولعنوا الخونة و الطغاة ، ولو كان الانسان مسيرا لامخيرا لكانت جميع افراده بمرتبة سواء لافضل لتقى على شقى ، ولا لعالم على جاهل ، لان العلم والتقوى من الله لا من الانسان .

وصدق من قال : ان الانسان حر لمجرد كونه انسانا .. اجل ، قد تتولد ارادة الانسان من الاضطرار ، كمن يقطع عضوه السقيم لسلامة بقية الاعضاء ، وايضا قد تتولد ارادته من البيئة او العادة او الوراثة ، ولكن لا شىء من ذلك يخرج بالانسان عن حريته مادام هو الذى يحدد المصلحة

لنفسه ، ويرجح اهون الشرين على اخطرهما ، ويقدم على الفعل باختياره وارادته .

ومن اجل هذا اهملت الشرائع والاديان البيئة والعادة و الوراثة ، ولم تدخل شيئا منها في حسابها من حيث المؤاخذة ؛ بل اخذت الفاعل بفعله ؛ وان ورثه عن ابيه وامه ، او من بيئته ؛ او من طبيعته الثانية مكتفية بقدر معين من الحرية .. اجل ؛ لقد اسقط الشارع المؤاخذة عن المريد المضطر ؛ كالجائع يأكل من الميتة ؛ او يسرق الرغيف ليقيم به الاود حيث لا وسيلة الا السرقة والميتة ..ولكن الشارع صحح معاملة المريد المضطر ، وعمل بارادته التي انشأها بالعقد ، وصرف ـ اي الشارع ـ النظر عن البواعث الخارجية ، والدوافع القهرية ، كمن باع ثوبه او داره من اجل التطبيب ، وفي الوقت نفسه ابطل الشارع معاملة المكره ـ بالفتح ـ ومعنى هذا ان مجرد الارادة كافية لان تجعل الانسان مخير الا مسيرا ايا كان نوعها وقدرها ومنشأها ومصدرها ، وما احاط بها من حدود ومقاومات .

الارادة والاختيار والرضى:

وبهذه المناسبة نشير الى الفرق بين الارادة والاختيار والرضى .. لاشك ان للانسان حالات تختلف بحسب ظروفه ، فقد يريد شيئا ويتمناه مع العجز عنه ، وقد يريده مع القدرة عليه بلا علل وشوائب ، فيختاره و يرضى به ، وهو مرتاح النفس والضمير ، وقد يقدر على الشيء ولكن مع العلل والمنغصات ، فاذا اضطر اليه اختاره ـ لا رضى به ـ بل ترجيحا لا هون الشرين .. وعلى هذا تكون الارادة اعم من الاختيار والرضى ، لانها تكون مع القدرة وعدمها ، ولا يكون الاختيار الا مع القدرة ، اما الرضى فهو اخص

من الارادة والاختيار ، اذ قد يختار الانسان فعلا دون ان يرضى به ، وترتاح اليه نفسه .. وقديما قيل : اذا لم يكن ما تريد فاردما يكون .

الجبر والتفويض وما بينهما:

قدمنا انه يكفي للحكم بان الانسان مخير لا مسير ان يكون له قدر من الحرية ، وان الحرية الكاملة والمطلقة من كل جهاتها ليست بشرط ، ودعمنا رأينا هذا بمنطق الحس وبديهة العقل ، وبهما نحتج على من خالف وانكر .

وقد اختلف الناس او المسلمون في مسألة الجبر والاختيار ، وافترقوا على ثلاث فرق ، اشار اليها الامام الصادق (ع) مع بيان الفرقة المحقة ـ باخصر عبارة وابلغها ، وذلك حيث قال : «لا جبر ولا تفويض ، بل امر بين امرين» . «لا جبر» اشارة الى قول الجبرية . و«لا تفويض» الى رأي المفوضة ، ويطلق عليهم ايضا القدرية . و«امر بين امرين» الى ما عليه الامامية . و التفصيل فيما يلي :

الجبرية

قال الشريف المرتضى في كتاب انقاذ البشر : اول من ابتدع الجبر في الاسلام جهم بن صفوان . وكان في صدر الدولة الاموية ؛ وتبعه في هذا القول ابو الحسن الاشعري امام السنة في العقائد ، وكان في القرن الثالث الهجري ، ويتلخص قول الجبرية بانه لا سبب حقيقي في الوجود على الاطلاق ، ولا شيء يؤثر في شيء من قريب او بعيد ، سواء أكان من نوع المادة ، ام من غيرها ؛ فلا علاقة للرجل بالمشي ، وللعين بالرؤية ولا للاذن بالسمع ؛ وللسان بالكلام ، ولا صلة للعقل بالعلم ، والمعدة بالهضم ، ولا

للماء بالحياة .

ابداً لاسبب ولاتاثير الالله ، فهو وحده يباشر كل شيء حتى النفس هو الذى يخرجه من الانف .. وحتى الثمرة هو الذى يقطفها من الشجرة ، ويرمى بها على الارض مباشرة وبلاواسطة ، اما جاذبية الارض وغيرها فكلام فارغ .

واما قدرة الانسان وارادته وعقله فنسبتها الى افعاله واقواله تماما كنسبة الحجر الى الانسان ، لان الله هو الذى يخلق الفعل والقول فى الانسان ، وما الانسان الا اداة او ظرف ككأس الشراب وأناء الطعام . هذا هو المراد بالجبر الذى نفاه الامام الصادق (ع) بقوله : «لاجبر و لاتفويض ، بل امر بين امرين»

وزعم الجبرية ان قولهم ضرورى لكمال التوحيد الخالص من كل شائبة ، لانه لو كان لغير الله ادنى تاثير لكان شريكا له فى خلقه ، ولم يكن الله هو الواحد الاحد ، والفرد الصمد .

وقد غاب عن عقولهم ان مبدأ العلية مبدأ الهى وطبيعى فى آن واحد وأن الله سبحانه هو الذى خلق الكون بارضه وسمائه ، وجعل كل شيء فيه يجرى بسبب ونظام لايتخلف عنه ، ولايتجاوزه الا ان يشاء الله ، وعلى هذا تكون الاسباب ومسبباتها ، والنتائج و مقدماتها ، ومنها افعال الانسان الخاضعة لقدرته وارادته ، كل ذلك وما اليه فى ملك الله وسلطانه ..وباسلوب آخر : خلق الله الكون على نظام يربط المسببات بالاسباب ، وهو سبحانه بالذات اودع فى كل سبب قوة التاثير والتيسير ، وجعل فيما جعل قدرة

الانسان وارادته من المقدمات والاسباب لانجاز أى فعل من افعاله الاختيارية.

لقد ذهل الجبرية عن هذه الحقيقة . وايضا ذهلوا انهم ارادوا ان ينفوا الشريك لله ؛ فنسبوه الى الظلم .. حتى الجاهل يتساءل بفطرته ويقول : اذا كان الله هو الذى قدر على كل شيىء وهو الذى فعل وترك وحده لا شريك له ، فلماذا يكلفنى ويحاسبنى ويعاقبنى ؟ .وكيف جاز ذلك فى عدله ؟ . وعن أى شيىء اتوب واطلب العفو ؟ .هل اتوب من فعل الله ، لامن فعلى ، واطلب العفو عما كان من مشيئته ، لامن مشيئتى ؟ .

لقد تجاوز الجبرية كل حد ، ولاشيىء يساوى قولهم هذا فى اى دين. قال النصارى : ان الله اقدر عباده على صلبه ، فصلبوه ، وتقبل هو الصلب لا لشيىء الا ليكفر عن خطيئة المذنبين ... وقال الجبرية : كلا: ان الله صلب الابرياء لالشيىء الا ليكفر هو عن فعله وعمله .. تعالى الله عن ذا و ذاك علواً كبيرا .

المفوضة:

وقف المفوضة ، ويقال لهم القدرية ايضا ، و قفوا فى الخط المقابل للجبرية ، وقالوا : ان الله خلق العباد ؛ ومنحهم القدرة على الفعل والترك ، وامرهم بالطاعة ، ونهاهم عن المعصية ، ثم فوض اليهم ان يفعلوا بهذه القدره مايشاؤن، اى انه تعالى بعد ان خلق القدرة ؛واعطاها لهم انتقلت منه اليهم؛ وصارت ملكا لهم ؛وانقطعت الاسباب والصلات بينها وبين خالقها فى كل مايفعلون ويتركون بسبب هذه القدرة تماما كالمبيع ينتقل من البائع الى المشترى بعد ان يتم عقد البيع ويلزم ؛ والفرق ان الله يسأل عباده يوم القيامة عن هذه القدرة ؛ ويحاسبهم من اجلها ، فيعاقب من اساء التصرف

بها . ويجزى من احسن بالحسنى ، اما البائع فلاشأن له مع المشترى ، اساء التصرف فى المبيع ، ام احسن ... هذا هو المراد من التفويض الذى نفاه الامام الصادق (ع) بقوله : «لاجبر ولاتفويض ، بل امر بين امرين» . وقل العارفون بمعنى التفويض حتى ان بعضهم فسره بالتفويض فى تشريع الاحكام .. وعلى هذا يكون كل انسان مشرعا ومصدر الدين الله وحلاله و حرامه .. واشكل منه تفسير الامر بين الامرين حيث حصل فيه خبط و وخلط كثير، ويأتى البيان ، وتقدم تفسير الجبر فى الفقرة السابقة .

والذى حمل المفوضية على هذا القول انهم ارادوا ان ينزهوا الله عن الظلم والجور الذى نسبه الجبرية اليه تعالى ـ فعزلوه عن ملكه ، وجعلوا له شريكا فى خلقه .. حاولوا الفرار من القبيح ، فوقعوا فيما هو اسوأ واقبح. قال الملا صدرا : كل من الجبرية والمفوضة اعور دجال .

ولوضح هذا التفويض لجاز للانسان اذا فعل شيئا ان يقول : فعلت هذا بحولى وقوتى لا بحول الله وقوته .. نستعيذ بالله ونستغفره .. و اذا كان اللازم على قول الجبريه ان يسد الله تعالى باب التوبة والعفو والرحمة ـ فان المفوضة يلزمهم القول بان يسد سبحانه باب التوكل عليه ؛ والثقة به ، والابتهال اليه ، وطلب التوفيق منه و الهداية .. سبحانه وتعالى عما يشركون ..

ان الذى يؤمن بالله وحده لابد ان يؤمن ايضا بان قدرته كاى حادث وكائن هى من الله ، وفى يد الله ، وانه تعالى هو الذى اراد لها أن تفعل وتؤثر كما اراد ذلك لغيرها من الاسباب ، وانها مسخرة لامره حدوثا واستمرارا ،

ينتزعها سبحانه من عباده ساعة يشاء .. حتى وهم يباشرون افعالهم واعمالهم ، و لا يستطيعون لها ردا .. وشاهدنا ذلك مرات: «الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله ـ ٤٣ الاعراف » .

امر بين امرين:

المراد بامر بين امرين منزلة بين الجبر والتفويض ، فقد سئل الامام جعفر الصادق (ع) : هل بين الجبر والقدر ـ اى التفويض ـ منزلة ثالثة ؟ .

قال : نعم ، اوسع ما بين السماء والارض . وفى رواية ثانية: «لا جبر ولا تفويض، بل امر بين امرين» . وفى ثالثة : «لا جبر ولا قدر ، ولكن منزلة بينهما فيها الحق الذى بينهما ولا يعلمها الا العالم او من علمها اياه العالم» وقال الملا صدرا : « ان تحقيق امر بين امرين مما يعجز عن ادراكه عقول كثير من العلماء والحكماء فضلا عن العوام».

وكنت قد قرأت لهذا الامر او هذه المنزلة العديد من التفاسير ، و اخترت بعضها، ثم استبان لى الخطأ فيما اخترت ، ولذا عدلت عنه الى الرأى التالى وعسى ان اكون فيه على بينة من ربى ، لا من فهمى الذى يخطىء ، وقد يصيب .

بعد ان اتضح ظلم الجبر وجوره ، لان الله اكرم وارحم من ان يكلف عباده ما لا يطيقون ، ويعذبهم على ما فعل بهم هو وصنع .

وايضا اتضح فساد التفويض وبطلانه؛ لان الله اعز واجل من ان يخرج شيىء عن حكمه وسلطانه . كيف وهل يضاد الله فى ملكه ، او بلغ به التناقض الى ان ينهى ويفوض ، ويقدر ويجبر فى آن واحد ؟ . بعد ان اتضح فساد

الامرين معاوجب البحث عن امر ثالث ، ولكن اين يوجد هذا الامر؟ .وهل من ثالث للجبر والتفويض ؟ .اجل ؛ هناك ثالث ، وهذا بيانه :

من البداهة والخبرة بمكان ان الله قد اوجب على العبد ما اوجب، وحرم عليه ماحرم ، ومن اجل هذا ارسل الانبيا و انزل الكتب ،وشرع الشرائع .. وايضا من البداهة والخبرة ان العبد قادر على ان يفعل ما امر الله به ، و يترك ما نهى الله عنه ، وليس وراء الحس و البداهة من دليل ، و اذن للعبد قدرة على الفعل و الترك ، و بها يكون حرا و مكلفا ومسؤلا .

وايضا لاعاقل منصفاً يشك فى ان الله على صلة دائمة بجميع خلقه من اصغر ذرة الى اعظم المجرات ، وان ما من شيىء فى الارض ولا فى السماءِ الا وهو مسخر لامره تعالى ، وفى قبضته مباشرة ، او بسبب من اسبابه كخصائص الكائنات ولوازمها التى لاتنفك عن ذاتها وطبيعتها .. وقدرة العبد من جملة ماهو مسخر بامره تعالى و فى قبضة يده ، ينتزعها منه متى شاء حتى حين يهم بالفعل او هو يباشره ، ومعنى هذا ان القدرة الثابتة للعبد بالفعل ، والتى عليها مدار حريته وتكليفه ومسؤليته هى بالذات مملوكة لله يتصرف فيها كيف يشاء ، وان العبد مسير فى اصل ثبوتها له ، وفى بقائها واستمرارها لايستطيع بحال ان يرفضها : ولا ان يحتفظ بها .. وبهذا يكون العبد مسيرا فى قدرته حدوثا وبقاء ، وهو فى نفس الوقت مخير فعلا وتركا كالما وجب عليه ، اوحرم .وعليه يكون تكليف الله لعباده حقا وعدلا ، لانه اقدرهم ومكنهم من الفعل والترك ، و جعل لهم الخيار

فى ان يفعلوا ، اويتركوا دفعا لشبهة القهر والالجاء الذى التزم به الجبرية.. وايضا يكون سبحانه - فى تسخيره القدرة لامره و ابقائها فى قبضته - متفرداً فى خلقه ولاشريك له فى ملكه الذى يلزم وجوده على القول بالتفويض .

وهذا المعنى هو المراد من امر بين امرين فى قول الامام الصادق (ع) وقد استوحيناه من كلام قاله ذو العقل الكبير الملاصدرا ، وهو يفسر الامر بين الامرين فى شرحه لاصول الكافى ، و هذه عبارته بالحرف الواحد :

«لم يرد الامام (ع) بقوله :لاجبر ولاقدر - اى تفويض ان العبد خال من الجبر والاختيار ، ولا بقوله : ولكن منزلة بينهما - اى امر بين امرين - ان فيه شيئا ضعيفا من الجبر ، وشيئا ضعيفا من الاختيار ، ولا ايضا ان فيه تركيبا بينهما كالمركب من الحلاوة والحموضة .. بل المراد ان العبد مجبور فى قدرته قادر فى جبره ، مضطر فى عين اختياره ، مختار فى عين اضطراره ، والفعل ثابت له من حيث هو ثابت لله ، وصادر منه من حيث هو صادر من الله » .

ونفسر هذه العبارة تيسيرا على الافهام بعد أن فسرنا قول الامام بوحى منها . يريد ذو العقل الكبير أن العبد مجبر فى الزامه بالقدرة لعجزه عن رفضها وعن الاحتفاظ بها ايضا، وهو برغم هذا العجز قادر على ان يفعل و يترك لان الله قد مكنه من احدهما على سبيل التخيير .ولا محرب له من ذالك ،أى ان العبد مخير ضمن الاطار الذى يضم الفعل والترك معا تماما

كفردى الواجب التخييرى فاذا اختار العبد الفعل اسنداليه حيث آثره على الترك وايضا يسند الى الله، لانه هو الذى اقدره عليه، ومكنه منه، وهكذا يقال لو ترك، واذن فلا يقال: ان العبد مخير مطلقا ومن كل الجهات، ولا هو مسير كذلك بل مخير من جهة ومسير من جهة وهذا كاف واف فى حريته التى تبرر تكليفه ومسئوليته.

الله ومعصية العبد:

وتسأل: اذا كانت قدرة العباد مسخرة لله وفى قبضته، و انه بهذا الاعتبار تنسب افعالهم الى الله واليهم معا اذا كان الامر على هذا فمعناه ان العبد اذا عصى و فعل الشر جاز ان ننسب شره ومعصيته الى الله كما ننسبها الى العبد. وعليه يكون الله شريكا لعبده فى المعصية وفعل الشر ومن البداهة بمكان انه لا يجوز فى منطق الحق والعدل ان يعاقب اقوى الشريكين شريكه الضعيف على شىء هما سواء فيه ؟

الجواب :

ليس من شك ان العبد اذا أطاع وفعل الخير ينسب اليه حيث كان فى مقدوره ان يتركه، وينصرف الى الشر، ومع هذا لم يفعل، وايضا تنسب هذه الطاعة وهذا الخير الى الله بقول مطلق، لانه تعالى هو الذى اقدر العبد عليه، وأمره به، فاستجاب واستحق الثواب، اما اذا عصى العبد وفعل الشر فانه يسند اليه حيث فعله وهو قادر على تركه، ولذا يستحق العقاب، وايضا يسند هذا الشر الى الله، ولكن لا بقول مطلق، بل بقيد واعتبار ان القدرة التى عصى العبد ربه

بواسطتها هي من الله سبحانه،

وانه قادر على سلبها منه بمجرد أن يهم بالمعصية، ولكن الله تعالى لم يفعل لحكمة نشير اليها في سياق هذا الكلام .

ولله جلت عدالته ، ان يحاسب العاصي ، ويعاقبه على المعصية حيث نهاه عنها ، وحذره منها بعد ان اقدره منها ، ولكنه عاند وتمرد ، قال الامام الصادق (ع) : قال رسول الله: (ص) من زعم ان الله يأمر بالسوء و الفحشاء فقد كذب على الله ومن زعم ان الخير والشر بغير مشيئة الله فقد اخرج الله من سلطانه ، ومن زعم ان المعاصي بغير قوة الله فقد كذب على الله ، ومن كذب على الله ادخله النار ».

يريد الامام (ع) بمشيئة الله للشر انه تعالى منح عباده القدرة على الشر تماما كقوله تعالى: «وما تشاؤن الا ان يشاء الله ـ ٣٠ ـ الانسان» أي لا تقدرون على شيء الا بقدرة من الله . . ان الله سبحانه نهى عن المعاصي ، وتوعد العبد عليها ؛ ولكن العبد ارادها لنفسه ، وفعلها بسوء اختياره مستعينا بقدرة هي منحة من الله لعبده؛ فتركه سبحانه وشأنه ، ولم يردعه عن المعصية بالقهر والالجاء حرصا على انسانيته ، اذ لا انسانية بلا حرية ، وايضا ليفصح عن نفسه و يظهر للملا على حقيقته، ويتميز عن الطيبين باختياره وارادته وبالتالي لتكون الحجة لله عليه اعظم وألزم حيث عصاه مختاراً بقدرة هي نعمة عليه من الله .

وبعد ، فان كثيراً من العلماء تعرضوا في مؤلفاتهم لمشكلة الجبر والاختيار ، وايضاً وضعوا فيها كتبا مستقلة قرأت اكثرها ، او الكثير من طوالها

وقصارها، وبعضهم شوه الحقيقة، وشوش العقول والافكار، وزاد المشكلة غموضا وتعقيدا.. وفي استطاعتي ـ لو شئت ـ ان اسود عشرات الصفحات، فألخص من الكتب واوضح، واقلم واطعم .. و لكني لم افعل حرصا على عقل قارئي ورفقاً به، ولا اقول: ان كلمتي هذه حاوية واعية، او فيها بلغة الكفاف، لان الكاتب يجب ان يتوارى خلف ما يكتب ، ويدع الحكم له او عليه للذي يتقن فن القراءة، ويجيد التفكير فيما يقرأ، وانا اعرف هذا من نكهة حديثه ، وفي عقيدتي أن من قرأ ولم يفكر فقد تنكر للعلم الصحيح، ولنعمة الله وفضله . قال كونفوشيوس: «العلم بلا تفكير اخطر من التفكير بلا علم» ومهما يكن فنصيحتي ان يقيس الانسان القراءة على الطعام ، فلا يقبل عليها الا اذا كان مستعداً ، والا فقد ظلم نفسه ، والكاتب الذي يقرأ له .

* * *

اشكال وحل

وهنا اشكال معروف، وايضاً جوابه معروف، ويتلخص الاشكال بان الله سبحانه يعلم مقدماً بان الانسان المجرم سيرتكب الشر ويفعله ، وليس من شك ان علمه تعالى لا يتخلف عن المعلوم تماماً كارادته التي لا تتخلف عن المراد وعليه تكون ارادة الانسان مغلوبة لعلم الله ، وبالتالي يكون الانسان مسيرا لا مخيراً، وبتعبير الفلاسفة او المتفلسفين ان كل ما علم الله صدوره عن العبد فهو واجب الصدور، والا لزم انقلاب علمه سبحانه جهلا . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

الجواب: فرق كبير وبعيد جدا بين سابق علمه تعالى بسوء اختيار العبد لفعل الشر، وبين سابق علمه سبحانه بفعل الشر من حيث هو، وبصرف النظر

عن ارادة فاعله واختياره له. . فان العلم الاول مجرد كشف عن وجود المعلوم في الحال او الاستقبال تماماً كعلم الاستاذ بان لهذا التلميذ النجيب مستقبلا زاهراً، وكعلمك بان فلانا الذي تعرفه جيدا سيرفض لامحالة لونا معينا من الطعام متى قدم له .

واما العلم الثاني فليس كشفا عن وجود الفعل بل علة لوجوده .. وبكلام آخر: فرق بين قولك: علمت بان زيداً سيسافر غدا، وبين قولك : لما علمت بانه سيسافر سافر... وعلمه تعالى بصدور الفعل من العبد من النوع الاول .

الشقي والسعيد:

وبهذا نجد تفسير الحديث المشهور : «الشقي من شقي في بطن امه ، والسعيد من سعد في بطن امه» اي ان الله يعلم قبل ان يخرج هذا من بطن امه أنه سوف يعمل عمل السعداء، وايضاً يعلم قبل ان يخرج ذاك من بطن امه انه سوف يعمل عمل الاشقياء . وقد سئل الامام الكاظم (ع) عن معنى هذا الحديث، فقال: «الشقي من علم الله، وهو في بطن امه، انه سيعمل عمل الاشقياء والسعيد من علم الله ،وهو في بطن امه ، انه سيعمل اعمال السعداء» قال السائل : فما معنى قول الرسول الاعظم (ص) : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ؟ . فقال الامام (ع): «ان الله جل وعز خلق الجن والانس ليعبدوه، ولم يخلقهم ليعصوه فيسر كلا لما خلق له، فالويل لمن استحب العمى على الهدى» .

اي ان كل انسان يجد الطريق امامه موسعاً وميسرا ما يختاره لنفسه من طاعة او معصية ، فان اختار الطاعة يسرها الله له ، وان اراد المعصية ايضاً يسرها له، بل واردها ايضاً عقوبة له على ما اراد.. وهذا ماقصده الامام بقوله : «الويل لمن استحب العمى على الهدى» اي ان الذي آثر العمى ألزمه الله بما

الزم به نفسه ، وعامله بما اراده لها .

وعلى هذا يكون لله سبحانه ارادتان: ارادة مستقلة كارادته لخلق الكائنات وارادة تابعة لارادة العبد بما يختاره لنفسه، ولكن بعد أن يلقى عليه الحجة، ولا يبقى له من سبيل للاعتذار .

والخلاصة ان الله جلت عظمته وحكمته خلق الانسان على وضع يستطيع به ان يختار بين الهدى والضلال ،وهذا ثابت بالحس والبديهة . ومن يختار الهداية يجد اسبابها ،ومن يختار الضلالة فكذلك : «فامامن اعطى واتقى و صدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وامامن بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ـ ١٠ الليل» .

ليبلوكم ايكم احسن عملا:

وتسأل : ان قوله تعالى : «ليبلوكم ايكم احسن عملا ـ ٧ هود» يتنافى بظاهره مع القول بان الله سبحانه يعلم الشقى والسعيد قبل ان يخرجا الى هذه الحياة ؟حيث دلت الاية بظاهرها على ان الله يبتلى عباده بالتكليف ليميز الخبيث من الطيب ، ومعنى هذا انه تعالى لا يميز الا بعد الابتلاء ،ومادام العبد فى بطن أمه فلا ابتلاء .

الجواب : ان الله سبحانه لا يختبر عبده ليعلم منه مالم يكن يعلم .. كلا؛ فانه اعلم به من نفسه ، وانما يمتحنه لامور :

«منها» : ان يترجم ماهو كامن فى نفسه الى عمل ملموس،حيث اقتضت حكمته تعالى ان لا يحاسب الناس على مايعلمه منهم،ولا على ماهو كامن فى نفوسهم ، بل يحاسبهم على الاعمال ، قال الامام على (ع) :«يقول الله :

واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة » ومعنى ذلك انه يختبرهم بالاموال والاولاد ليتبين الساخط لرزقه والراضى بقسمته ؛ وان كان سبحانه اعلم بهم من انفسهم ، ولكن لتظهر الافعال التى بها يستحق الثواب و العقاب .

و «منها»: ان يتميز الخبيث من الطيب ، وتظهر حقيقته امام الناس، فيعاملونه بما يستحق .

و «منها» ان بعض الناس ، اواكثرهم يجهلون حقيقة انفسهم ، و يقولون : «لوسمحت لنا الظروف لكنا كذا وكيت »فيمنحهم الله الاستطاعة ليلقى الحجة عليهم ، ويعرفهم بحقيقتهم وواقعهم .

الهدى والضلال:

وتسأل : لقد ورد فى كتاب الله آيات تدل بظاهرها ان الله سبحانه يخلق فى العبد الهدى والضلال ، تماما كما يخلق العبد بجسمه وروحه ، و منها قوله تعالى : « فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ـ ٨ فاطر» .

وقوله : «من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ـ ٣٩ الانعام» .وعليه يكون العبد مسيرا ، لامخيرا ؟ .

الجواب . ان الله سبحانه وهب الانسان القدرة والعقل والارادة ، و بالقدرة يفعل ، وبالعقل يميز ، وبالارادة يختار ،ثم ارشده الى طريق الخير وطريق الشر ، وحذره من هذا ، وامره بذاك ؛ وهو سبحانه ـ ،بموجب عدله يعامل كل واحد من عباده بما يختاره لنفسه ،فمن اساء الاختيار ، وسلك سبيل الضلال اصبح ضالا ، لامحالة ، وصحت نسبة الضلال اليه ، لانه هو الذى اقدم عليه بسوء اختياره وتصح نسبة الضلال الى الله . لانه هو الذى

جعل هذا الطريق مؤديا الى الضلال ، تماماكماجعل السم سببا للموت، و التردى من شاهق علة للتحطيم والهلاك .

والانسان فى البداية حرفى ان يقدم اويحجم عن طريق الضلال ، فان اقدم سلبت منه الحرية ، ولزمه الضلال حتماوقهرا ..ونظير ذلك ان يقول قوى لضعيف: اياك ان تدخل هذاالكهف ، والاسددت بابه عليك حتى تموت فيه جوعا وكمداً جزاء لعصيانك وتمردك ؛ فاذادخل بعدهذا التحذير، و سدالقوى باب الكهف على الضعيف ،وهلك فيه صح ان يقال : اهلك الداخل الضعيف نفسه بنفسه ، وان يقال ايضاً : القوى اهلكه ،ولكن اللوم كل اللوم، اواشد اللوم على من دخل الكهف ، وهو يعلم انه هالك فيه لامحالة .

وفى القرآن الكريم آيات عديدة وصريحة فى هذا المعنى ، منها : «فلمازاغوا ازاغ الله قلوبهم ـ ٥ الصف) .اى انه تعالى اراد لهم الزيغ بعدأن ارادوه لانفسهم.ومنها:«ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بانهم قوم لايفقهون ١٢٧ البقرة»«كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ـ ٣٤ غافر» . . والذين اهتدوا زادهم الله هدى ـ ١٧ محمد»..ويضل الله الظالمين ـ ٢٧ ابراهيم» . . «كذلك يضل الله الكافرين ـ ٧٤ غافر». . واوضح الايات دلالة فى هذا الباب قوله تعالى «كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم بالبينات والله لايهدى القوم الظالمين ـ ٨٦ آل عمران» .

ويتضح من هذه الايات ونظائرها ان افعاله تعالى تنقسم الى نوعين : الاول يهدف الى ماهو مطلوب بالذات ، والثانى يهدف الى ماهو مطلوب بالعرض ،والاضلال من النوع الثانى اى انه تعالى لم يرد الاضلال من العبد

على كل حال حتى ولو اراد الهدى لنفسه ، بل اراده من العبد اذا اراده العبد لنفسه، ونظير ان تريد الخير والهداية لمن تحب ، وترغبه فيها بكل وسيلة ، ولما أصر وعاند وابى الا الضلال كرهته، والزمته بكل مايترتب على الضلال من آثار عملا بمبدأ «الزموهم بما الزموا به انفسهم» .

سؤال ثان: ان الله سبحانه يعلم انه لو خلق هذا الشقى لاثر الشقاء على السعادة، وليس من شك ان عدم الشقى الفاسد خير من وجوده . واصلح له . لان مصيره الى الخلود فى جهنم وعذابها ، وايضاً عدمه اصلح للمجتمع لانه يرتاح من شره وضره .

الجواب اولا : ان من شأن الخالق هو ان يفيض الوجود على الممكنات على ان لا يتنافى ذلك مع عدله ورحمته، والله سبحانه قد احسن الى الشقى الفاسد، وانعم عليه بالوجود، وزوده بالقدرة والعقل والارادة ؛ وهداه النجدين ، ولكنه اختار الشر : فكان هو المسئول دون غيره.. وعليه يكون عدم الشقى خير من وجوده بالنسبة اليه، لا بالنسبة الى الخالق .

ثانيا : لو اخذنا بهذا المبدأ لما صح الاتكليف من نعلم بانه يسمع ويطيع مع ان التكليف يصح توجيهه للجميع .

ثالثاً : ان الحجة لا تقوم لله على عباده الا اذا اوجدهم واقدرهم وكلفهم.

رابعاً : ان وجود الشقى فيه شر ، وفيه خير ايضاً ، حيث به يتميز التقى ويظهر فضله على غيره .

فلسفة النبوة

النبوة

يتفرع هذا البحث عن الايمان بوجود الله تعالى ، و من انكر وكفر فلا يحق له الحديث عن النبوة والانبياء ،لان الفرع ينتفى بانتفاء الاصل ، و ايضا الحديث عن نبوة محمد (ص) و غيره من الانبياء يتفرع عن اثبات النبوة كفكرة بصرف النظر عن نبوة الاشخاص ، ولذا نبدأ الكلام قبل كل شيء عن تحديد النبوة من حيث هي ، ثم عن اثباتها ، فان استطعنا ذلك، تحدثنا عن نبوة الرسول الاعظم (ص) في الفصل التالي :

البعثة

النبوة بعثة من الله الى عباده ، وسفارة بينه و بينهم ، وغايتها ارشادهم الى مافيه لله رضا، ولهم خير وصلاح ، فالرسول مبعوث من الله ، ورسالته النصيحة :« ابلغكم رسالات ربى وانصح لكم ـ٦٢ الاعراف » . و لكن هل يحتم العقل ان يكون لله رسل الى خلقه و سفراء بينه و بينهم ؟ .

الجواب : اذا كان لكل مصلح رسالة الى اهله وقومه فبالا ولى ان يكون للخالق رسالة الى خلقه ، واية حاجة للناس باله لايهتم بهم ، ولا يعنيه من امرهم قليلا ولاكثيرا ؟ .

و يمكن ان نقرر حكم العقل بهذا الاسلوب ، وهو بعد ان افترضنا وجود الله سبحانه ، وانه متصف باعلى صفات الكمال والجلال . بعد هذا الافتراض يلزمنا حتما ان نؤمن بان ما من شيىء حسن فى ذاته الا والله سبحانه فاعله وليس من شك ان ارشاد من يحتاج الى الارشاد حسن فى ذاته وان الناس كل الناس فى حاجة الى من يرشدهم الى النجاح والصلاح ، فينتج من ذلك ان الله سبحانه لابد أن يرشد عباده الى مافيه خيرهم وصلاحهم ، وحيث لاسبيل الى ذلك الا بأرسال الانبياء فيتعين ان لله انبياء ورسلا .

وبالاختصار ان فى افعالنا خيرا وشرا ، ونحن نجهل الكثير منها ، و الله عالم بما نفعل ونجهل ، فيجب ، وهذى هى الحال ، ان يرشدنا ما يعلمه من صلاحنا باجدى الوسائل ، وارسال الرسل ... واليك هذا المثال للتوضيح : اعمى كاد أن يتردى فى حفرة امامه ، وانت قريب منه وعلى مرأى ، فتجا هلته حتى هوى ومات ... ولو تفوهت بهذه الكلمة فقط : «انتبه امامك» لسلم ومع هذا تجاهلت من غير عذر ، لو حصل معك مثل هذا لكنت مذموماً وآثما عند الله والناس وعند ضميرك ايضاً .. والله سبحانه اجل واعظم ، واعدل وارحم ان يخلق عباده ثم يتركهم سدى يسيرون فى طريق الهلاك من غير حارس ودليل .. ان الله ارحم بعباده من الام العطوف بوليدها . كما فى الحديث .

هل يغنى العقل عن الانبياء : وقال قوم ، وهم البراهمة ، لاحاجة اطلاقا الى الانبياء ، لانهم ان جاءوا بما يوافق العقل ففيه غنى عنهم ، وان خالفوه وجب ردهم والانكار عليهم .

واجيبوا بان العقل لايحيط بكل شيىء علما ، بل يدرك شيئا ، ويغيب عنه اشياء ، لايدركها الا علام الغيوب ، فيبينها سبحانه للناس بلسان انبيائه

ورسله .

واصدق شاهد لهذا الجواب ان القرآن الكريم كشف عن كثير من الحقائق التي لم يهتد اليها العلم والعلماء الا بعد الف سنة او اكثر وعلى سبيل المثال دون الحصر نذكر قوله تعالى :«وجعلنا من الماء كل شيء حي ـ ٣٠ الانبياء» حيث اثبت العلم الحديث ان الماء مبدأ الحياة ،وقوله «وارسلنا الرياح لواقح ـ ٢٢ الحجر» ايضا اثبت العلم ان الرياح تنقل لقاح الازهار الذكور الى الازهار الاناث لتخرج الثمر والفواكه؛ وقوله :«وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم ـ ٣٨ الانعام» وبهذا قال اهل الاختصاص بعلم طبائع الحيوانات والطيور والحشرات، الى آخر الايات التي تتفق نصا وروحا ،او تتفق معها الكشوفات الحديثة .

ونعطف على جواب من رد على البراهمة، نعطف عليه الحقائق التالية .

١ ـ ان قول البراهمة واضرابهم لو صح لانسد باب العلم والنصيحة والامر بالمعروف بشتى انواعه، وباب الاصلاح والمصلحين، وجاز لكل انسان اذا ارشده مرشد، افهم واعلم أن يرد عليه، ويقول له لي من عقلي غنى عنك وعن تعاليمك .

٢ ـ لقد رأينا او قرأنا ان بعض الذين يدينون بالنبوات يعبدون الاحجار والاشجار، وبعضهم النيران او الكواكب او الحيوانات ، او البرق والرعد ، والاشباح و الارواح ويفضلونها على عبادة الواحد الاحد التي تطهر النفوس من الاوهام والخرافات.. وقرأنا ايضا ان لبعض الامم مجموعة من الالهة كثيرة وهائلة... فاله للسماء واله للارض، وثالث للفضاء بينهما، ورابع للشعر؛ وخامس للجمال، وسادس للحب؛ وآخر للبغض، أو للسلم أو الحرب و لكل شيء رب

يربه حتى القبائل، لكل قبيلة رب.. اما صفات هذه الالهة والارباب فعجيبة غريبة ،فمنهم الطويل الاشقر، ومنهم الاسمر ، وآخر يعشق الجميلات و ينكح البنات الى آخر الاساطير والسخافات.. وايضا قرأنا ان بعض الاقوام الذين لا يدينون بالنبوة ينكحون امهاتهم وبناتهم، ومنهم من يأكل لحوم البشر الى ما لا يبلغه الاحصاء من المآثم والمنكرات. . وصدق الله العظيم «ان الانسان لظلوم كفار ـ ٣٤ ابراهيم» .

ومن هنا كان الدين السليم ضرورة لكل انسان بالغا ما بلغ من العلم والعقل ،فان كثيراً من الذين تعودوا اساليب العلم وطرقه الدقيقه فى هذا العصر يؤمنون بالخرافات..قال (غوستاف لوبون) فى كتاب الاراء والمعتقدات «ان العلماء تبدو عليهم السذاجة كما تبدو على الجهلة الادميين. . . فالعالم قلما يبدو اسنى من الجاهل فى الامور التى ليست من اختصاصه، وبهذه الملاحظة ندرك السبب فى ان افضل العلماء يؤمنون باشد الاوهام خطلا» ثم ضرب على ذلك كثيراً من الامثلة منها ان عالما كبيراً فى عصره كان لا يخرج من بيته الى المختبر الا ومعه قطعة من حبل المشنوق تقيه ـ بزعمه ـ حسد الحاسدين، وسحر الساحرين» .

واغرب ما قرأت فى تأليه الانسان للانسان فى عصرنا هذا ، عصر النور والحضارة، هو ما ذكره عبدالرحمن عزام فى كتابه الرسالة الخالدة ، قال ما يتلخص بانه ذهب سنة ١٩٣١ الى جبال النوبة فى جنوب كردفان ؛ فوجد قوما من الزنوج يعبدون واحداً منهم كاله ، ويسمونه «الكجور» ويرفعون اليه الدعاء ويقدمون له القرابين ، ويقدسونه كل تقديس ، ويعتقدون بانه القدير على تصريف الامور الكونية، وانه هو الذى ينزل المطر من السماء ،

فاذا اجدبت الارض ،وهلك الزرع سألوه المطر، فان تأخر عليهم شكوه الى الحكومة،ولم يتركوها بحال حتى تأمر بحبسه، واذا لم ينزل الغيث قتلوه واقاموا غيره مكانه ـ وهنا تذكرت الاعرابي الذى صنع صنما من تمر ، ولما جاع اكله ـ وقال المؤلف :وقد جالست هذا الرب ، وتحدثت معه بواسطة المترجم،وفى اثناء حديثى معه جاءت زوجته، وكشفت عن ساقها ، فارتنى آثار الضرب. . فقال المترجم ان بعض الذين يعبدون زوجها قد ضربها ،وهى تشكوه اليك ظانة انك الحكومة قلت ـ مازال الكلام للمؤلف : كيف ، وهى زوجة الرب المتصف بالقدرة عندهم ؟

ولا ادرى كيف نطق عبدالرحمن عزام بهذا التساؤل ، وهو يروى عنهم انهم يقتلون الاله الذين يعبدون ويقدسون اذا لم ينزل الغيث؟. ان الذى يعبد غير الله الواحد الاحد لا يكثر عليه شيىء حتى ولو كان عالما كبيراً فى عصره كالذى يحمل حبل المشنوق خوفا من حسد الحاسدين،وسحر الساحرين كما حدثنا عنه غوستاف لوبون .

٣ ـ من تتبع سيرة الانبياء، ودرسها بروية وامعان يجزم بانهم اول من دعا الى دين واحد، وامة واحدة ، والى الصلاح والاصلاح بشتى انواعه ، وان دعوتهم هى التى غيرت وجه التاريخ،ولولاهم لما تقدمت الانسانية خطوة واحدة الى الامام ، ولا كان لها تاريخ و حضارة واية دعوة اسمى واكمل من دعوة الاسلام التى تخاطب العقل والفطرة، وترتكز على الاقناع والتحرر من الجهل والخرافات ، وتقليد الاباء والاجداد .

٤ ـ ان انكار النبوة والانبياء معناه ان البشرية فى غنى عن الدين

والشرائع السماوية واحكامها، لان الانسان بمواهبه ـ كما يزعم المنكرون يستطيع ان يسد حاجاته في كل زمان ومكان مستقلا عن جميع الاديان .

وقد يبدو هذا صحيحا للوهلة الاولى عند البسطاء السذج، ولكن الاذكياء يعلمون ان غاية الدين لا تنحصر بتنظيم العيش في هذه الحياة، بل هي اعم واشمل، ان غاية الدين ايضا ان يفهم الانسان معنى الحياة وقيمتها ومصدرها واهدافها ومصيرها . وليس من شك ان كل عاقل يتمنى من اعماقه ان يعيش في حياته هذه حرا كريما، لا ظالما ولا مظلوما ، وايضا يتمنى بفطرته ان يحيا حياة ابدية سعيدة لا يشوب صفوها اية شائبة ـ لو اتيح له ذلك والاسلام يقف معه، ويؤازه فيما يبتغيه من الحياة الفانية ، ويرشده الى طريق الحياة الخالدة الراضية المرضية . ومن جادل وخاصم نحيله الى الدعوة المحمدية التي تقدس العقل ، وتمتدح العلم ، وتساوي بين الناس على اساس الحق والعدل ، نحيله الى كتاب الله وسنة نبيه او على ما كتبه العلماء المنصفون في هذا الموضوع شريطة ان يقرأ ويدرس بتجرد وروية .

هل العلم يغني عن الدين:

وجاء بعد البراهمة من يقول اجل ، ان العقل وحده وبما هو لا يغني عن غيره، ولا يخرج الانسان من العيش مع الحيوانات في الغاب والكهوف ، ولكن العلوم الطبيعية هي التي تخرجه من الهمجية والوحشية الى الحضارة والمدنية، ومن الظلمات الى النور .

الجواب: ليس من شأن العلوم الطبيعية ولا في قدرتها ايضا ان تفسر القيم الانسانية ورغباتها كالسلم والحرية والمساواة ـ مثلا ـ وانما تصف الحوادث

والتجارب وتسجلها، كماهي في واقعها، ومن هنا قال كثير من علماء الطبيعة انفسهم ان العلم وحده لا يحقق امانى الانسان ،وانما ينبغى ان يقترن بقيم انسانية وشريعة عادلة توجه العلم الى مايضمن اعظم قدر من تحرر الانسان وسعادته .

وقال الدكتور فؤاد زكريا في مقال نشره بمجلة عالم الفكر الكويتية ج ١ ٤٤ بعنوان العلم والحرية الشخصيه ، قال : «في العصر الحديث اصبحت الصورة التى يرسمها العلم للكون تتصف بالآلية ، ولاتترك مجالا لقيم الانسان ورغباته لقد اصبح العالم موحشا يسير في طريقه المرسوم بدقة وانضباط لامكان فيهما لمشاعر الانسان .. ان العصر الحديث اوجد انفصالا قاطعا بين عالم الطبيعه وعالم الانسان ، وقضى على التداخل بين هذين المجالين » .

ونذكر نحن صفة اخرى اضر واخطر من هذا الانفصال ، وهى ان تلك المصانع والمعامل قد حولت طعام الجياع ، ولباس العراة ، وبيوت البائسين ومستشفيات المرضى ، وروضات الاطفال ، ومعاهد العلوم ؛ حولتها الى اسلحة جهنميه ترعب البشرية بكاملها ،والى آلات التجسس على الدول والشعوب والافراد ، لالشيء ألا للايقاع والاضرار بهم .

ومن اغرب ماقرأت في هذا الباب ان في الولايات المتحدة يوجد بنوك للمعلومات عن اسرار الملايين ، تختزنها العقول الالكترونية ،وتباع تلك الاسرار لمن يشاء ساعة يشاء..وقد بلغ استخدام هذه الاجهزة حداً يفوق التصور حتى لم يبق لاحد من سر مكتوم .

واخطر من ذلك آلات التصوير التى تنفذ اشعتها من الجدران،وتعكس

كل مافيها حتى مايجرى فى الحمام، ويدور على الفراش ، ويكتنز بالخزائن.. وغريبة الغرائب ان هذه الاجهزة تباع علنا بالاسواق ، وعلى مرأى من الحكومة ومسمعها حتى ارتفعت اصوات الاحتجاج تنبه الى الخطر الذى تعرضت له الحريات والكرامات .. هذى هى العلوم الطبيعية التى تغنى عن دين الله القائل . «اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ايحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا» ١٢ الحجرات ».

والخلاصة ان احدث النظم التى يسمونها بالعلمية لاتغنى عن دين الله شيئا ، لانها لا تعبر الا عن الذين يصنعونها ، و لاتعكس الا اطماعهم و اهواءهم .

وقال احمد امين المصرى فى بعض ماكتب ونشر : «ان كان العلم فى كل اشكاله يحقق رغبة الانسان من حيث مادته ، فالدين يحقق امله و طموحه من حيث نفسه وقلبه ، لقد اراد الماديون ان يؤسسوا نظاما للاخلاق على العقل البحت فلم يفلحوا. ان الاخلاق اذا كان يحميها القانون فقط او الحكومة او الضمير او الرأى العام لم تكن اخلاقا محصنة ،فكل هذه وسائل لاتمنع الاجرام ، فكم من الجرائم يستطيع الانسان ارتكابها ولا يصل اليها القانون ولا الحكومة ولا الرأى العام ، وما سمى بالضمير ليس الا مرآة منعكسة للعرف والتقاليد فالضمير فى الهند كان يسمح للزوجة ان تدفن حية مع زوجها ، والضمير فى امريكا يسمح للامريكى الابيض ان يعامل الزنجى معاملة الانسان للغنم،والدين هو الذى يسد هذه الثلمة ، فيربط قلب الانسان بربه ، وضميره بالهه ؛ والهه مطلع على خفاياه يحاسبه حتى على نياته ، ويراقبه حتى فى خلجات نفسه » .

محمد والقرآن

فى فصل اثبات الخالق حاولنا ان نعتمد على مبادى اولية ، و حقائق يقينية فى منتهى الوضوح ، ونحاول هنا ايضا وفى كل ما نكتب ان نسير على هذه السبيل . ومنه تعالى نستمد العون والتوفيق .

القرآن ومعجزات الانبياء

قالوا : كان لكل نبى معجزة تفسرها حوادث عصره وتعين نوعها الظروف التى كانت تحيط به ، ثم تذهب بذهاب تلك الظروف والحوادث ، او بموت النبى كعصا موسى ؛ وابراء الاكمه والابرص على يد السيد المسيح ، اما معجزة الرسول الاعظم فهى القرآن ، والقرآن باق على مدى الايام ، وقد تفرد بهذه الفضيله نبينا محمد وامتاز عن سائر الانبياء .

وهذا القول صحيح وصادق فى واقعه ؛ ولكن لا يواجه به غير المسلم بخاصة المتعصب المتعنت ، لان له ان ينكر ويقول : اول الكلام ان القرآن معجزة تثبت نبوة محمد .

والذى يجب سلوكه مع المنكر هو ان نقول له : ان القرآن تتوافر فيه جميع الصفات والمؤهلات التى تجعله موضوعا للبحث والدرس فى انه هل هو معجزة خارقة للعادة شكلا ومضمونا فى كل مكان وزمان ، وعلى مدى العصور والاجيال ، اولا شىء فيه من هذه الصفات والمؤهلات ، بل ان حاله تماما كحال الانجيل والتوراة ، وغيرهما من المؤلفات والمصنفات؟ .

وليس من شك ان غير القرآن من الكتب .. حتى التوراة و الانجيل لا تتوافر فيه هذه الصفات و المؤهلات . وبالتالى لا يصح ان يكون موضوعا لهذا النزاع والاختلاف .، والدليل على ذلك حسى ويقينى من وجوه ، وهى :

اولا : انه ما من يهودى او نصرانى تجرأ حتى على الدعوى والزعم بان توراته او انجيله معجزة ، او شبه معجزة .. لا فى مبناه ولا فى معناه .. وايضا ليس فى واحد من الكتابين تصريح بذلك ولا تلميح على عكس القرآن، كما ترى فى الايتين التاليتين :

ثانيا : ان القرآن الكريم هو الكتاب السماوى الوحيد الذى تحدى المعاندين له فى كل زمان ومكان ، وقال لهم بلسان واضح وفصيح : «فأتوا بسورة من مثله وادعوا شركاءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ـ ٢٤ البقرة» .

وقال ايضا ؛ «قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ـ ٨٨ الاسراء» .ومضى على هذا التحدى اكثر من الف وثلاث مئة سنة ، وما اتى ولن ياتى احد بمثله على الرغم من كثرة خصومه وعلمهم ومقدرتهم .. ومن اجل هذا آمن به علماء وفلاسفة كثيرون ولا يزالون يدخلون فى دينه، ولن يزالوا على مدى العصور والاجيال .

ثالثا : كل معجزة من الانبياء كانت خاصة بعصره وتاريخ قومه لا تتعداه الى غيره. كعصا موسى ، واحالة الماء خمرا فى عرس «قانا الجليل»

على يدالسيد المسيح ، كماقال الانجيل ، اوابرائه الاكمه والابرص كما يقول القرآن ..

ولاشيىعلى الاطلاق فى الدنيا بكاملهانطق بلسان المقال اوالحال ، وتجرأ ان يقول : انا المعجزة الكبرى مدى الدهر لفلان ابن فلان ،وان الله قد اوجب على جميع عباده بلااستثناء طاعتى وطاعته ، وهذادليلى البالغ القاطع ، وهوالتحدى ..ابدالاقائل بهذاالاالقرآن الكريم ، معجزةمحمد الخالدة على مدى العصور والاجيال .. ذلك بانه «كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ١ـ هود» .و به آمنت وصدقت ملايين الملايين على مدى القرون .

وبهذا يتبين معنا ان المعجزة التى يدعيها المسلمون لمحمد (ص) ليست عصا، ولاماء يحول الى خمر، ولاى لون من الوان المادة التى تذهب وتزول مع الاحوال والايام ، بل هى روحية عقلية ، لهامبادى واحكام انسانية تطمئن بها النفوس ، وتذعن لها العقول ، وتصلح لحياة الناس كل الناس فى جميع الميادين ، وعلى كر العصور واختلاف الامم ، لانهاتهدى باسسها الى التى هى اقوم، ومن ارتاب وتردد قالت لهمعجزة محمد : « فاتوا بسورة من مثله » .

هذاهو الفارق بين معجزة محمد ، ومعجزة غيره من الانبياء ،وبهذه المعجزة اى بالقرآن ونظامه وشريعته كان محمد سيدالانبياء وخاتمهم ، وكانت رسالته عامة وخالدة الى آخر يوم تماما كمعجزته .. « و ماارسلناك الاكافة للناس بشيرا ونذيرا ـ٢٤فاطر» .

« وماارسلناك الارحمة للعالمين ـ ١٠٧ الانبياء» . اما الانبياء السابقون فشريعتهم خاصة كمعجزاتهم ، والذى يؤيد هذا انه لااشارة فى التوراة اوفى الانجيل الى ان موسى اوعيسى هورسول الله الى الناس كافة على تعاقب عصورهم، وتباين لغاتهم ، اوانه خاتم النبيين ، ولااحد من الانبياء السابقين ـ على محمد ـ وصف رسالته بالعموم والشمول ، اونفسه بخاتم المرسلين ، بل منهم من بشر بمحمد من بعده ، وتأتى الاشارة الى ذلك .

هل لمحمد معجزة غير القرآن ؟

يرى البعض انه لامعجزة لمحمد (ص) الاالقرآن، امانحن فنؤمن بان معجزاته لايبلغها الاحصاء، ذلك بان على الحكيم ان يخاطب كل قوم بلغتهم ، وبما تستسيغه عقولهم كى تتم الحجة عليهم ، والاكانت الحجة لهم عليه ، ولاتتم الحجة بحال ، ويستحيل ان تتم الااذا كانت صحيحة فى نفسها، وواضحة فى بيانها واسلوبها كنور الشمس بحيث لاتدع منفذا لاية شبهة فى فى ذهن المخاطب .. والافان «الحدود تدرأ بالشبهات» .. وبحيث يعد المنكر مكابرا ومتعنتا فى نظر العقلاء جميعاً .واشرنا الى ذلك فى بعض ما تقدم .

وعلى هذا ينبغى ان تتنوع المعجزة وتختلف باختلاف الموارد و الاشخاص ، كما استدعت حكمته سبحانه ان يباهل نبيه الكريم نصارى نجران .. هذا اذا كان طالب المعجزة يبتغيها بصدق ، و اخلاص ، اما الكاذب المتعنت الذى لايجدى معه شيى ء فيقتصر معه على القرآن ،لان اعجازه عام لايختص بعصر دون عصر، ولابفئة دون فئة ، اوبفرد دون فرد.

والذى يدلنا على ان معجزات الرسول الاعظم (ص) متعددة ومتنوعة

ان رجل الدين فيما مضى كان يستدل على نبوة محمد بما جاءت به الاخبار من تكلم الحصى ، وسعى الشجرة اليه ، ونبع الماء من بين اصابعه .. الى غير دلك من المعجزات التى انهاها بعضهم الى اربعة آلاف واربعمئة واربعين معجزة ، كما فى البحار وكان الناس يتقبلون هذا آنذاك ، اما اليوم حيث يتطلع العالم الى حياة افضل فانا نستدل على نبوة محمد (ص) ـ فيما نستدل : بانه خاطب العقل وحارب الجهل ؛ وساوى بين الناس ، ووقف مع المستضعفين ، وقاوم الطغاة المترفين ، واخرج بشريعته وتعاليمه العالم من ظلمات التوحش والهمجية الى نور الحضارة و المدنية ، وبفضله نزع رعاة الابل التيجان عن رؤس الجبابرة ، والقوابها تحت اقدامهم .

وقد تستدعى الحكمة ان لاتعرض المعجزة على الشخص اطلاقا ، كما لو اكتفى بمجرد شعوره واحساسه ، فقد روى الرواة ، وفيهم ابن حنبل والبخارى ومسلم .

«ان رسول الله (ص) بيناهو فى المسجد اذ دخل رجل . وقال . ايكم محمد؟ .

فارشد اليه . قال الرجل لمحمد (ص) : انى اسألك فمشدد عليك فى المسألة فلاتجد على فى نفسك .

قال النبى : سل ما بدا لك .

قال الرجل : اسألك بربك ، ورب من قبلك : هل ارسلك الله الى الناس كلهم ؟ .

النبى : اللهم نعم .

الرجل :انشدك الله :هل الله امرك ان نصلى الصلوات الخمس فى اليوم و الليلة ؟

النبى : اللهم نعم .

الرجل : انشدك الله : هل امرك ان نصوم هذا الشهر من السنة ؟ .

النبى : اللهم نعم .

الرجل :انشدك الله :هل امرك ان تأخذ الصدقة من اغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟ .

النبى : اللهم نعم .

الرجل : آمنت بما جئت به ، وانا رسول قومى اليك ، انا ضمام بن ثعلبة اخو بنى سعد بن بكر .

والخلاصة ان معجزات الانبياء على نوعين :خاصة كابراء الاكمه، وعامة كالقرآن،ومعجزات الانبياء السابقين كلها خاصة لاتتعدى زمانها، وما لواحد منهم معجزة تشمل وتعم ، امامحمد (ص) فله معجزات خاصة، كثيرة ومتنوعة ،وله وحده المعجزة العامة الخالدة ، وهى القرآن ،ويأتى الكلام عن اعجازه .

اماقول من قال بانه لامعجزة للرسول الاعظم الاالقرآن لان غيره يتنافى مع قانون الطبيعة اماهذا القول فرده اولا: بان اعجاز القرآن يتنافى ايضا مع طبيعة الانسان ، والاامكنه ان يأتى بمثله . ثانيا: بان الطبيعة بما فيها من كائنات ترجع الى اصل واحد ، هوالله ، وارادة واحدة ،هى ارادته التى تقول للشيىء : كن فيكون ... ومامن كائن على الاطلاق له مع الله

سبحانه ارادة ولاقانون ولاخصائص ؛ ولااى اثر ،بل ولاوجود ايضا ..وله مع غير الله وجوده وخصائصه وآثاره ، هذاهو الجواب الحق فيمانعتقد ، وما عداه اوهام وتكثير كلام .

وتجدر الاشارة الى ان المعجزة ليست من باب العجز فى المقدور ، لا فى القادر كاجتماع النقيضين اوارتفاعهما ، وكدخول الجمل فى سم الخياط ، والالم يكن للمعجزة من موضوع ، وكان الكلام عنها جنون وهراء .

ماهو الدليل على صحة الاسلام:

وجه الى هذا السؤال شيخ افريقى يطلب العلم فى قم..وفى اللحظة الاولى لسؤاله تبادر الى ذهنى انه يشعر بمسئولية الدفاع عن دينه ، وانه يرغب الى ان امده وازوده بما املك من وسائل الدفاع، فاجبته، وانا اشرح هنا وافصل ما اجملته هناك ، لان الكتابة بعد التفكير والتدبر غير الجواب السريع ، اجبته وقلت: ان الاسلام هو رسالة محمد بالذات (ص) على انها وحى من الله ، لاصنع محمد، واصدق الادلة على هذه الحقيقة هو القرآن الكريم ، وما على المشكك والمتردد الاان ينظر اليه برويةوامعان، فان توافرت فيه خصائص الوحى من الله فالاسلام حق وصدق، والافلا وحى ولااسلام .

ونحن نسأل من تشكك وارتاب فى نبوة محمد (ص) ورسالته ، اوقطع وجزم بذلك بلاتردد ،نسأله هل انت من الذين ينكرون وجود الله من الاساس كالماديين، اومن الذين يؤمنون بوجوده، وينكرون ان يكون لله وحى ، وللانسان بعث كاصحاب الدين الطبيعى (١) اوانت من الذين يؤمنون بالله

---

(١) هم قوم يؤمنون بخالق الطبيعة ؛ وينكرون البعث والنبوات ، وسموا انفسهم باصحاب الدين الطبيعى لان ايمانهم بالخالق تفرضه البحوث الطبيعية دون غيرها من المغيبات .

وكتبه ورسله، ولكن ينكرون نبوة محمد ورسالته بالخصوص كالنصارى . . فان كنت من النوع الاول فلا يحق لك ان تجادل و تخاصم في النبوات والكتب السماوية فضلا عن القرآن ونبوة محمد (ص) ولك كل الحق ان تطالب بالدليل على وجود الله ، وقد اوضحناه في فصل سابق بعنوان اثبات الخالق، فان اقتنعت فذاك، والا قلنا مع نبينا الاكرم «لكم دينكم ولي دين» . وان كنت من النوع الثاني فنفس الشيء ، ولك ان تطالب بالدليل على وجوب الايمان بكتب الله ورسله، وقد ذكرناه في الفصل المتقدم بعنوان النبوة .

وان كنت من النوع الثالث أي تؤمن بالله وكتبه ورسله ، ولكن تنكر نبوة محمد، وتقول : ان القرآن بشري، لا الهي، ان كنت هكذا سألناك هل تعتقد بان القرآن من عند محمد وابداعه بالذات ، او تعتقد بان محمداً أخذه من مخلوق مثله. والفرض الاول ابعد من كل بعيد، لان تفسير أي كتاب وتقييمه والحكم عليه يجب ان يكون في ضوء شخصية مؤلفه وظروفه الاجتماعية ، وما سبقه واحاط به من عوامل تؤثر في عقله وعاطفته، ومهما كان الانسان قويا في شخصيته ، وعبقريا في مواهبه فيستحيل عليه ان يتحرر من جميع آثار البيئة التي عاش فيها حتى كانه غريب عنها لان الانسان ابن الارض التي ولد منها وعاش عليها .

وعليه، فاذا قارنا بين القرآن شكلا ومضمونا ، وبين بيئة محمد و عواملها تبين معنا ان الفرق بينهما هو عين الفرق بين العلم والجهل ، والظلم والعدل، والحق والباطل، والهدى والضلال، وقد اشار القرآن الى هذا بقوله : «هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة و ان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ـ اول الجمعه» . كانوا

فى ضلال مبين من الشرك وتعدد الالهة ، ولما جاءهم محمد (ص) بالتوحيد عجبوا وقالوا : «هذا ساحر كذاب أجعل الالهة ألها واحداً ان هذا لشيء عجاب ـ ٥ ص» .

وكانوا يحللون الربا والزنا والخمر والميسر ، والكذب والغيبة ، والسلب والنهب، وقتل النفس المحرمة ، كما تنابزوا بالالقاب ، وتعصبوا للانساب، وتفاخروا بالاموال والاولاد وقطعوا الارحام، ووأدوا البنات خوفا من العار، وقتلوا الاولاد خشية الاملاق وجعلوا المرأة فى عداد الحيوانات .. الى آخر الرذائل والبربرية التى حرمها محمد وانكرها اشد الانكار على قومه واهل بلده ولاقى منهم لذلك من الوان الاذى مالم يلقه نبى من قبله . . اذن فاين وجه الشبه بين محمد وبيئته وماهى الافكار التى استوحاها وتأثر بها من ظروفه ومحيطه. واذا كان محمد بافكاره وميوله انعكاسا لبيئته و تقاليد قومه فلما ذا جيشوا الجيوش لحربه وقالوا عنه فيما قالوا : ساحر و شاعر ومجنون وكذاب واذا اضفى النبى الصبغة الدينية على دعوته ليستجيب اليه العرب عن هذا الطريق كما قال احد المستشرقين اذا كان هذا صحيحا فلماذا سفه النبى احلامهم وسب آلهتهم التى يعبدون وآباءهم الذين يقدسون؟

لقد كانت دعوة رسول الله (ص) غريبة لدى العرب . . تفوق عقولهم وتصورهم حتى انهم لم يجدوا لها تفسيراً الا السحر وقال الكافرون للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين ـ ٢٣ سبأ» . وعلى الرغم من هذا وغير هذا يكابر اعداء الاسلام وخصومه ويصرون على ان محمداً يرتبط فى رسالته بحياة قومه ايما ارتباط على حد تعبير المستشرق الانكليزى «جب» ..

ابدا .. لاعامل من بيئة ، ولاسبب من ذات، ولاشيء على الاطلاق الا الوحي من السماء .

وتسأل : ان الاشخاص الذين يقاسون بظروفهم ؛ هم العاديون؛ او العباقرة غير محمد صاحب الشخصية المبدعة الخلاقة التي تعطي البيئة ولا تأخذ منها ؛ وتتأثر به ، ولا يتأثر بها ؟ .

ونجيب اولا : اجل ، ان شخصية رسول الله لاتدانيها اية شخصية عبقرية ، ولكن العبقرية ـ مهما سمت ـ فانها لاتاتي ولن تاتي بالمعجزات وخوارق العادات .. فالعبقري الذي لم يدرس فن الطب ـ مثلا ـ يستحيل ان يؤلف كتابا فيه صحيحا وسليما في جميع اقواله ونظرياته بخاصة اذا كان فيه كشوف جديدة ... ولو افترض ان جاءنا بكتاب مثل هذا الجزء منا في الحال ومن غير تردد بأن وراءه عالما قديرا في فن الطب هو الذي وضع هذا الكتاب، واعطاه للعبقري ، او العبقري سرقه منه .

وهذي هي الحال بالنسبة لمحمد(ص) ، فلقد جاء بالقرآن ، وفيه اشياء واشياء لايمكن ان تكون الا من خالق الكائنات ، كالاخبار بالمغيبات و عجائب الارض و السموات ، وخلق الانسان وغيره من الحيوانات و الحشرات ، وفيه النظام الكامل الشامل لشتى ميادين الحياة.. الى غير هامن الحقائق الكونية والانسانية التي يعجز محمد والعلم في عصره عن معرفة القليل منها .. اذن، فلابد ان تكون تنزيلا من لدن حكيم خبير على قلب الرسول الامين: «ماكنت تدري ماالكتاب ولاالايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ـ ٥٢ الشورى».

ثانيا : ان للعبقرى المبدع علامات تدل عليه ؛ وللثائر المصلح صفات تميزه عن غيره ، والنبى يشارك العبقرى والمصلح ، فى كل فضيلة ، ما فى ذلك ريب ، ولكنه يمتاز بصفات لا يشاركه فيها احد ، ان العبقرى او المصلح يستوحى آراءه ومبادئه من الارض ؛ لا من السماء ، يستوحيها من عقله وبيئته ؛ والنبى يتلقى الوحى من السماء ؛ من الله جلت عظمته ، و الوحى معصوم ، والعقل يخطىء ويصيب ، والبيئة شهوات واهواء .

وايضا العبقرى يبدع فى شيىء دون شيىء ولا يبدع فى كل شيىء والمصلح يهدف الى ناحية واحدة او اكثر من حياة فئة او امة فى بقعة من الارض ، ولا يهدف الى اصلاح اهل الارض جميعا فى كل شيىء وفى كل زمان و مكان .

اما محمد فهو رسول الحق والعدل الى الانسانية جمعاء لينقذها من الجهالة والضلالة ، ويحملها على نهج الهداية والنجاة .. واين العبقرى و المصلح من هذا او شبه هذا ؟.

وبعد ، فان محمدا لا يقال : هو عبقرى خلاق ؛ ولا مصلح ثائر ، ولا عظيم خالد .. كلا ، والف كلا ، فما اكثر العباقرة والمصلحين والثائرين !. ان محمدا رحمة مهداة من اله السماء لاهل الارض اجمعين : « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين ». ورحمة الله سبحانه فوق العبقرية والعباقرة ، والاصلاح والمصلحين ، وفوق العظمة والعظماء الخالدين ، بل فوق الناس مجتمعين والسموات والارضين ، لانها تتسع لكل شيىء ولا يتسع لها شيىء الا قلب محمد ومن سار على طريقته وعمل بمبادئه وسنته .

القرآن والتوراة والانجيل

قدمنا ان الذى يؤمن بالله ورسله ، وينكر نبوة محمد (ص) اما ان يزعم بان القرآن من محمد بالذات ، واما ان يدعى ان محمدا اخذه من غيره ، وابطلنا الزعم الاول بكلام مفصل ومطول ، ونجيب الان عن الزعم الثانى، و هو من سموم المبشرين الذين ينفثونها ضد الاسلام والمسلمين ، وتتلخص اقوال المبشرين ضد القرآن بانه: ماخوذ من التوراة والانجيل و من بعض الرهبان والقسيسين ! ..

وقال صهيونى عريق : انبثقت المسيحية من اليهودية ؛ وانبثق الاسلام منهما معا ! . ونجيب .

١ ـ اثبت التاريخ ان اليهود كانوا اعدى اعداء محمد (ص)، وانهم حاربوه وكادوا له ؛ والبوا عليه العرب ؛ ولم يكفوا عنه الا بقوة السلاح؛ و ايضا جرت بين رسول الله (ص) وبين النصارى بعض الحروب والغزوات كغزوة مؤتة وتبوك ، كما جادله نصارى نجران فى الدين والسيد المسيح ، حدث هذا ،وما نقل ناقل صادق ولا كاذب ان نصرانيا او يهوديا احتج على رسول الله بانه اخذ القرآن من التوراة والانجيل ؛ على ان القرآن رد هذا الوهم قبل ان يتفوه به ناطق ، وذلك حيث تقول الاية ٤٩ من العنكبوت: « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمنك اذا لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات فى صدور الذين اوتوا العلم و ما يجحد بآياتنا الا الظالمون » .

اجل ؛ ان كان القرآن قد أخذ بعض الايات من التوراة و الانجيل فهى هذه : «قل يا اهل الكتاب لستم على شيء ـ ٦٨ المائدة » .. «قل يا اهل

الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ـ ٧١ آل عمران» .. «قل يا اهل الكتاب لاتغلوا في دينكم غير الحق ـ ٧٧ المائدة » .. لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ـ ٧٣ المائدة » .. « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم و لعنوا بما قالوا ـ ٦٤ المائدة» ..

مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ٥ ـ الجمعة» الى آخر الايات التى نددت باليهود والنصارى ، ونعتتهم بالكفر والافتراء على الله ، وتحريف كتبه و قتل رسله ؛ ووصفتهم بكل قبيح .

٢ ـ ما هو وجه الشبه بين القرآن ؛ وبين التوراة والانجيل ؟. هل هو في الشكل او المضمون او هما معاً ، اما الشكل والاسلوب فان تلامذة المدرسة الابتدائية لا يعجزون عن تقليد التوراة والانجيل .. ويأتى الحديث عن اسلوب القرآن ، واما وجه الشبه في المضمون فنتساءل : هل تشبه التوراة والانجيل القرآن الكريم في تنزيه الله عن الشريك والولد ، او في الشريعة واحكامها او في الحرص على حقوق المرأة او في الاخبار عن المغيبات ، وعن عجائب الارض والسموات .. الى غير ذلك من الحقائق .

هذا ، الى ان القرآن تحدث عن انبياء لا ذكر لهم في الانجيل و ـ التوراة لا تصريحا ولا تلميحا ، كهود وصالح وذى الكفل ، كما ان في التوراة انبياء لم يشر اليها القرآن كعاموس وميخا وناحوم وغيرهم...

وقد شهد علماء الغرب بان المسلمين بفضل القرآن وتعاليمه ملا وا الشرق والغرب بعلومهم وحضارتهم ، قال «سديو» احد وزراء فرنسا في

كتابه تاريخ العرب :

كان المسلمون متفردين في العلم والفلسفة والفنون والجميلة وقد نشروها اينما حلت اقدامهم، وتسربت عنهم الى اوروبا ، فكانوا سببا لنهضتها وارتقائها ، و معلمين للاوربيين و ملقنين لهم النهوض و المدنية » . وامثال هذه الشهادة كثير وكثير ، ومع هذا يصر اعداء الاسلام على ان القرآن اخذ من التوراة والانجيل ، وان المسلمين اخذوا الادب من الفرس ، والحكمة من الهند ، والفقه من الرومان، والفلسفة من اليونان ، وليس لهم فيها كثير ولا قليل ... الى مثل ذلك من العداء والافتراء .

و آمنت ، وانا اقرا هذه الاكاذيب ، ان افضل وسيلة للمسلم ، اذا احب ان يكون على يقين من دين آبائه و اجداده ـ ان يقرأ ما يقوله اعداء الاسلام عن الاسلام ...

٣ ـ ان كل مايستند عى الشك في القرآن كوحي من الله ـ لو فرض وجوده ـ فهو يوجب الشك والريب في التوراة والانجيل بطريق اولى... وبالمناسبة ان اليهودية سبقها كثير من الانبياء ، منهم نوح وابراهيم ، وكان في عهد موسى وعيسى ديانات وكهانة وسحرة ... فكل مايقوله اليهودى والمسيحى في حق القرآن ومحمد يصح للمسلم ان يقوله بالذات في حق التوراة و الانجيل وموسى والمسيح ... بل ويزيد عليه ايضا .

الاسلام والصهيونية والاستعمار :

ولمناسبة ماذكرناه عن اعداء الاسلام نشير الى ان الصهيونية خصصت جماعة من اصحاب الادمغة للافتراء على الاسلام ، و وجهت لهذه الغاية الصحف الكبرى والاذاعات ، والصور المتحركة ، وعدداً غير قليل من

المؤلفين والممثلمين ودور النشر، وتعاونت مع بعثات التبشير المسيحى التى تملك مؤسسات و مراكز تنتشر فى انحاء البلاد الاسلامية بخاصة افريقيا ،منها ٤٠ مركز للسويد ، وأكثر من ٥٠٠ للنروج و ٤٥٠٠ لامريكا عدا مالايطاليا وفرنسا وانكلترا.. قال العقاد فى كتاب «مايقال عن الاسلام» «ان الغربيين يعرفون اكاذيب الصهيونين، وانما يساعدونهم . لان خطر الاسلام عليهم اكبر من خطر الصهيونية ، وما يماثلها من سائر الاخطار»

و نقل الشيخ محمد الغزالى فى كتابه « معركة الاسلام » عن «لورانس براون» انه قال :لقد كنا نتوجس الخوف من خطر اليهود والخطر الشيوعى ، و الخطر الاصفر . ثم تبين لنا ان اليهود اصدقاؤنا والبلاشفة حلفاؤنا ، اما الخطر الاصفر فهناك دول كبرى تتكفل بالقضاء عليه ـ يشير بهذا الى الخلاف بين الروس والصين ـ ان الخطر الحقيقى يكمن فى نظام الاسلام، وفى قدرة الدين الاسلامى وحيويته، انه الجدار الوحيد الذى يقف فى وجه الاستعمار» .

اعجاز القرآن:

تكلم العلماء كثيراً عن اعجاز القرآن، واطالوا الكلام (١) وحاولوا جاهدين ان يكشفوا عن اسرار هذا الاعجاز ، او عن بعضها ، وربما خيل الى واحد منهم ـ على الاقل ـ انه قد ادرك ما اراد، ولكن هيهات ! ،انى يكون له ذلك. والمفروض ان القرآن ان اعجز العقول والقرائح ، فبالاولى ان يعجز الالسن .

(١) انظر: دلائل الاعجاز للجرجانى من القدماء ، والمعجزة الخالدة لهبة الدين الشهرستانى من الجدد .

أجل؛ان العالم يفهم المعنى الذى يتبادر الى ذهنه من لفظ القرآن وظاهره، ويستحيل عليه ان يحيط علما بجميع معانيه واسراره ؛ وعلومه وانواره. .وعلى هذا فاذا تحدث العالم عن اسرار القرآن فانما يتحدث عن اعجاز مافهمه هو من لفظ القرآن وظاهره، لاعن اعجاز القرآن كما هو فى واقعه.. حتى هذا المعنى الظاهر ينطوى على كثير من الخصائص والاسرار، ولا يعرف العالم منها الاقليلا .. واذن هو يعبر عن هذا النزر القليل؛ الذى يعلمه.. ومن اراد الاطلاع على هذه الرشحات او المحاولات فليرجع الى ماكتبه الجرجانى والباقلانى وابو عيسى الرمانى ، وغيرهم ممن الفوا فى هذا الباب.. اما نحن فنشير فيما يلى الى سر الاعجاز ومكان التحدى باختصار جامع وسريع .

التحدى :

نحن نقر ونعترف بان الذين كفروا وجحدوا بالقرآن الان وقبل الان كثيرون جداً، ويعدون بالملايين، لا بمئات الالوف، وكيف ننكر هذه الحقيقة ويشهد لها الوجدان والبديهة! .ولكن هذا الاعتراف من المؤمنين يقابله الاعتراف من الكافرين بان القرآن تحداهم ـ مدى الدهر ـ على ان يأتوا بمثله، ويدعوا من شاءوا، وما ارادوا .. واذا لم نجد نحن ملجأ ولا مفراً من الاعتراف بوجود من جحد وكفر فان الجاحد الكافر لاملجأ له ايضاً ولا مفر، الا الاذعان والتسليم بان القرآن تحداهم ومازال، وبان التاريخ ماحفظ محاولة ناجحة لتقليده على كثرة اعدائه، والجاحدين به، وبمن نزل على قلبه .

نحن نعترف بوجود هؤلاء الكافرين ، وهم بحكم الحس والبديهة

يعترفون بهذا التحدى. .كيف لا . والقرآن يعلن بلسان واضح وصريح : «قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ـ ٨٨ الاسراء» . . حتى فصحاء العرب وبلغائهم تصدوا للقرآن ،واعترفوا بالعجز عن تقليده، وقال قائلهم وسيدهم الوليد بن المغيرة: ان له لحلاوة، وان عليه لطلاوة ، وان اعلاه لمثمر ، وان اسفله لمغدق.. وانه ليعلو ولا يعلى عليه.. وقال آخرون . . محمد ساحر و شاعر».. وهذا القول اقرار واعتراف بان القرآن يذهل العقول ، ويخرس الالسن .

اما سر هذا الاعجاز فلا يكمن فى نفس اللغة، وان سمت وعظمت، ولا فى اختيار الكلمات ، وسبكها وتشكيلها، ووضع كل كلمة فى مكانها ، كما قيل، فكم من اديب يتذوق نكهة الكلمة ويضعها فى مكانها من شعره او نثره ويشكل اسلوبا بالغ الروعة فى نعومته وطراوته..كلا، ليس السر فى التشكيل والتجميل. .بل هناك سر ابعد واعمق.. وهو ذات المتكلم وجلاله وعظمته.. ويستحيل الفصل بين الاسلوب ؛ اى اسلوب، وبين صاحبه باتفاق اهل الخبرة والاختصاص، قال الكاتب العالم الفرنسى بافون:«الاسلوب هو صاحب الاسلوب» وقال عارف آخر : ليست الكتابة الا التعبير عن طبيعة الكاتب وطابعه وقال خبير ثالث : الاسلوب جزء من صاحبه .

ومن اجل هذا يستحيل على الانس والجن ان يأتوا بمثل هذا القرآن او بسورة من مثله، تماما كما يستحيل ان يأتوا بمثل هذا الكون، او بجزء من مثله .

ونفترض ـ جدلا ـ ـ وفرض المحال ليس بمحال، نفترض ان المخلوق يستطيع ان يقلد خالقه ، وخالق الارض والسموات، ولو في اختيار الكلمات وتشكيل العبارات ، وان في مقدوره وامكانه ان يأتي بمثل القرآن حلاوة وطلاوة ـ على حد تعبير الوليد بن المغيرة ـ فهل يستطيع ان يأتي بكتاب تحدث تلاوته في القلب ما يحدثه كتاب الله من الرهبة والخشوع، ويكون له من الاثار ما للقرآن في الاخلاق والاداب والتشريع والتاريخ والفلسفة. . الى غير ذلك من العلوم والحكم التي فتحت ابواب الجد والعمل للدنيا والاخرة، واوجدت امة بعد العدم : وجمعت صفوفها بعد الشتات ، وامدتها من القوة ما اكتسحت به دولتين عظيمتين تماما كامريكا وروسيا في هذا العصر واقامت على انقاضهما امبراطورية تمتد شرقا وغربا ، وتملا الدنيا حضارة وعلما ؟ .

هنا يكمن سر الاعجاز في كتاب الله وهنا مكان التحدي فيه . . وهذا التحدي باق ما بقي الدهر ..اذن رسالة محمد باقية ما بقي الدهر ، وبدوامها وخلودها انسد باب الوحي، وختمت النبوات ، والشرائع السماوية .

القرآن يتحدى الطغاة المعاندين

وتسأل: هل الذين اسلموا وآمنوا بمحمد(ص) في عهده كلهم او جلهم آمنوا بسبب تحدي القرآن؟..ولو صح هذا لكان الاسلام جديرا باسم دين التحديات وعرض العضلات من بين الاديان كلها .

الجواب : كلا . . كيف والاسلام دين الهداية والاخاء؟ على ان الناس اواكثرهم لا يهتمون بالتحديات، وبالخصوص اذا كان القصد من التحدي

مجـرد الايمان والاعتقـادبعظمة المتحدى ولوقـام الاسلام على مجرد التحدى لما دخل الناس فيه بالملايين ؛ ولاكان لهالآن وقبل الآن عين ولااثر.. انالتحدى ـ كما تدل اسباب النزول ـ قدجاء فى القرآن الكريم لكبح المعاندين، وافحام المشاكسين، فان جماعة من عتاة الشرك وطغاته كابى سفيان وابى جهل قد اغرقوا فى التعنت ، وتجاوزوا فى اذى الرسول كل حد، ولم يرتدعوا بحلم، ولابناية وسيلة، فتحداهم القرآن ، ليفتضحوا امام الملا حيث الفضيحة اولى بهم واجدى، ولوانهم سكتوا لسكت عنهم القرآن

وهذا النوع من الناس موجود فى كل زمان ومكان، والقرآن يتحداهم اينما كانوا ومتى وجدوا ، و من كف الاذى عن الاسلام و نبيه فهـو غير مقصود بالتحدى ، قال تعالى : « وان كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم انتم بريئون مما اعمل وانا برىء مما تعملون ـ ٤١ يونس » .

اخبار القرآن بالمغيبات:

من اعجاز القرآن اخباره بالمغيبات ، وتحققت كما اخبر .

« منها» قوله تعالى : «لتدخلن المسجد الحرام انشاء الله آمنيـن محلقين رؤسكم ومقصرين لاتخافون ـ ٢٧ الفتح» . فدخلوا آمنين وما كانوا يطمعون .

« و «منها» : «هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحـق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون ـ ٣٣ التوبة » . وظهر .

و «منهـا» «و عدكم الله مغانـم كثيرة تأخذونها ـ ٢٠ الفتح». و اخذوها .

و «منها» «واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم ـ ٧ الانفال» .و صارت لهم .

و « منها» : « قل للذين كفروا ستغلبـون ـ ١٢ آل عمران » وغلبوا .

و«منها :«غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بعض سنين ـ اول الروم» . وغلبوا اعداءهم الفرس في بضع سنين .

و « منها» : «ام يقولون نحن جمع منتصر سيهزمون ويولون الدبر ـ ٤٥ القمر» . وهزموا وولوا الدبر .

و « منها» : «ان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة مـن مثله ـ الى قوله ـ فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ـ ٢٣ البقرة» . و مافعلوا ولا طمعوا في ان يفعلوا .

و « منها» : آيات كثيرة كشفت اسرار المنافقين ، وما كانوا يقولون ويبيتون من الكيد والمكر، كقوله تعالى: «يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ـ ٧٤ التوبة » ... «سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم ـ ٩٠ التوبة » الى كثير من الايات التى لا ينطق بها حقا وصدقا الاعلام الغيوب .

وبعد ، فان ما اشرنا اليه من اعجاز القرآن هو غيض من فيض..وما كل الذين آمنوا بمحمد (ص) آمنوا به من اجل المعجزات ..كلا ؛بل هم على انواع والتفصيل فيما يلى :

١ـ الثقة بالصدق واهله:

آمن كثير من الناس بمحمد (ص) في عهده لمجرد الثقة به وبصدقه

وامانته ، فلقداشتهر بين قومه بلقب الصادق الامين وتميز عنهم منذ نشأته بالبعد عن كل قبيح كانوا يزاولونه ، وقداجمع اهل السير والتاريخ ،ومنهم المنصفون من قادة الفكر في الشرق والغرب ، ومن كل دين ، اجمعوا على ان محمدا كان قبل البعثة تماما كما كان بعدها المثل الاعلى لكل فضيلة ،وان عددا غير قليل تأثر بشخصيته وعظمته .

وضربنا مثلا لهؤلاءِ بقصة ايمان ضمام بن ثعلبة في فقرة «هل لمحمد معجزة غير القرآن ؟ .

وفي كتاب لماذا اخترنا الدين الاسلامي : ان المؤرخ والكاتب الشهير «ولز» الذي ذاعت مؤلفاته الكثيرة وترجمت الى العديد من اللغات ـ قال: « من الذي يشك ان القوة الخارقة للعادة التي استطاع بهـا محمد ان يقهر خصومه هي من عند الله ؟ . وقد اجمعوا على ان من انصع الادلة على صدقه ان المطلعين على جميع اسراره اول من آمن به ؛ ولو ارتابوا في صدقه لما آمنوا .»

٢ ـ البشارة بمحمد:

مامن نبي من الانبياءِ ـ حتى نوح وابراهيم ـ الا واخذ الله عليه عهدا و ميثاقا ان يبشر بمحمد (ص) وينوه باسمه ، كما تشير الاية ٨١ من آل عمران: « واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به » . وقال الامام علي (ع) : مابعث الله نبيا الا اخذ عليه العهد في محمد (ص) وامره ان يأخذ العهد على قومه فيه بان يؤمنوا به ، وينا صروه اذا ادركوا زمانه .

واشارت بعض الكتب الموغلة جدا في القدم الى محمد ورسالته ، و فوق ذلك ذكرت اسم ابى لهب بالحرف ونصبه العداء لرسول الله (ص) .فقد نقل العقاد في كتاب العبقريات الاسلامية تحت عنوان الطوالع والنبوات- عن عبد الحق في كتاب محمد في الاسفار الدينية العالمية المطبوع بالانكليزية ، نقل عنه مايلى :

«ان اسم الرسول العربى مكتوب بلفظه العربى احمد في «الساما فيدا» من كتب البراهمة ؛ وقد ورد في الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثانى مانصه بالحرف : ان احمد تلقى الشريعة من ربه ، و هى مملوءة بالحكمة ..وان وصف الكعبة ثابت في كتاب «الاثار فافيدا» وانه قد جاء في كتاب « زندافستا» الذى اشتهر باسم الكتاب المقدس في المجوسية جاء فيه الاخبار عن نبى يوصف بانه رحمة للعالمين يدعو الى اله واحد لم يكن له كفوا احد ؛ ويتصدى له عدو يسمى ابولهب » .

وفي القرآن الكريم اكثر من آية تصرح بوضوح ان البشارة بمحمد (ص) جاءت في التوراة والانجيل ، وان بعض علماء النصارى واليهود على يقين من ذلك ، وانهم كتموا الحق حرصا على مكانتهم ؛ وخوفا على جاههم قال تعالى : «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه - اى محمدا - كما يعرفون ابناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون-١٤٦ البقرة» .

اجل كان هذا العلم موجودا ايام نزول القرآن عند بعض احبار اليهود و رؤساء الكنائس، والا ما اعلن القرآن ذلك على سمع منهم، وما سجل التاريخ عن راو واحد انهم نفوا وكذبوا ، وكانوا يبحثون عن كل صغيرة و

كبيرة يدينون بها الرسول والقرآن .

اما الفريق الاخر من اهل الكتاب فقد اعلن هذا العلم ودان به ، قال اهل التفسير :«ان عبدالله بن سلام كان من احبار اليهود وكبار علمائهم ، وقد اسلم هو وجماعته على يد رسول الله (ص) وقال فيما قال : انا اعلم بنبوة محمد منى بابنى لانى لا اشك فى ان محمدا نبى ؛ اما ولدى فلعل امه قد خانت.. وكان اسمه الحصين ، فسماه الرسول عبدالله ؛ و فيه نزلت هذه الاية : « وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ـ ١٠ الاحقاف » . وايضا الاية ٤٣ الرعد : « قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم و من عنده علم الكتاب ».

وكان عدى بن حاتم الطائى نصرانيا، ومن اشد الناس عداوة لرسول الله ثم اسلم على يده طوعا وايمانا بالحق . ومن الايات التى اشارت الى الذين آمنوا من اهل الكتاب الاية ١٥٧ من الاعراف:«الذين يتبعون الرسول الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل». اى التوراة الحق التى انزلها الله على موسى، والانجيل الصدق الذى انزله على عيسى، اما توراة الناس وانجيلهم فمحرفان مزوران. و على رغم التزوير والتحريف فان فى التوراة فقرات تنطبق على محمد والتبشير به ، قال: «ول» فى قصة الحضارة تعريب محمد بدران ج٢ من المجلد الرابع ص ٢١ مانصه بالحرف : «ويمكن ان تنطبق على محمد بعض فقرات تبشر به». وهذا القائل مسيحى امريكى واكبر مؤرخ فى هذا العصر .

اهل الكتاب يعترفون بتحريف كتابهم:

وتسأل: لماذا تجيزون للمسلم ان ينسب التحريف والتزوير الى التوراة

والانجيل ، وتحجرون على غير المسلم ان ينسب ذلك الى القرآن .

الجواب : نحن مع الدليل اينما كان بصرف النظر عن دين الاباء والاجداد ،واذا درسنا كل واحد من الكتب الثلاثه في ضوء ما احيط به من ظروف وعوامل،او على اساس شكله ومحتواه ـ تبين معنا الفرق والسبب المانع من قياس الكتابين على القرآن.. من حيث الشكل والمضمون ، ومن حيث العوامل الخارجية..فان معاني القرآن واسلوبه والعوامل التي احاطت به كلها،تشهد وتعترف بانه من عندالله ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه،اما اسلوب التوراة والانجيل،ومافيهما من محتويات ومضامين، واحيط بهما من ظروف وملابسات ـ فانها تبعث على الاعتقاد بان الله وموسى والسيد المسيح بريئون من هذه التوراة والاناجيل، وممن كتبها وآمن بها. . وفيما يلي البيان بما امكن من السرعة والايجاز .

اما الفرق من حيث الظروف و العوامل الخارجية فقد روى الرواة والمؤرخون من كل دين ، وفي كل عصر على انه قد كان للنبي (ص) كتبة للوحي معروفون،ومنهم باتفاق الجميع ـ كما في اعجاز القرآن للرافعي ـ الامام علي بن ابي طالب (ع) وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب ، وعبدالله بن مسعود،فاذا نزلت الاية سجلوها على ورق او جلد او عظم ونحوه ، حتى كتبت آي الذكر الحكيم كلها في عهد الرسول (ص) وبامره ، ولكنها لم تجمع في مصحف واحد،في حياته(ص) لانه كان يتوقع ان ينزل عليه جديد من الوحي ، وايضا كان عدد غير قليل من الصحابة يحفظون القرآن في عهد الرسول(ص) ،منهم ـ كما في اول تفسير القرطبي ـ الخلفاء الاربعة ،

وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وسالم بن ابى حذيفة وعبدالله بن عمرو بن العاص .

ولما انتقل النبى (ص) الى الرفيق الاعلى ، وانقضى عهد الوحى جمع المسلمون القرآن فى كتاب واحد فى عهد ابى بكر وبمدينة الرسول ، وبعده بلا فاصل، ونصوص النسخ كلها واحدة حروفا وكلمات وترتيبا وسياقا . .

اجل، حصل بعض الاختلاف فى قراءة آيات منه ، وهذا امر طبيعى لخلوه انذاك من النقط والشكل، فحاول عثمان ايام خلافته ان يجمع الناس على قراءة واحدة، واذن فالقرآن ثابت بالنقل المتوافر المتواتر عن محمد بالذات باعتراف الجاحدين لنبوته .

قال هيكل فى كتاب حياة محمد (ص) ص ٣١ الطبعة التاسعة: «الذين يزعمون تحريف القرآن من المستشرقين هم قلة بين اشد المستشرقين تعصبا اما كثرتهم فيقرون بان القرآن الذى نتلوه اليوم هو بعينه القرآن الذى تلاه محمد (ص) على المسلمين اثناء حياته لم يحرف ولم يبدل ـ الى ان قال ـ وقد أورد المستشرقون كثيراً من التحريف ، ونختار من هذا الكثير الذى قاله المستشرقون ، بعض ما كتبه السير « وليم موير» فى كتابه حياة محمد (ص) ليرى الذين اسرفوا على انفسهم وعلى التاريخ شدة ما اسرفوا حتى اطمأنوا الى تحريف القرآن و«موير» مسيحى شديد الحرص على مسيحيته والدعوة اليها؛ شديد الحرص على ان لا يدع موضعا لنقد نبى الاسلام وكتابه دون أن يقف عنده ومحاولة دعمه». أى دعم النقد للنبى والقرآن .

ثم نقل هيكل عن «موير» المتعصب صفحات عديدة تشهد أن القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن هذه الصفحات ما نصه بالحرف :

«ان كل ما في القرآن صورة صادقة كاملة لما أوحى به الى محمد (ص) .. ونستطيع أن نؤكد استناداً الى اقوى الادلة أن كل آية من القرآن دقيقة في ضبطها تماما كما تلاها محمد» .

هذه شهادة واضحة نطق بها كبير يدين بالمسيحية، ويتعصب لها ، و لكنه درس وحقق ظروف القرآن وكل ما احاط به من ملابسات ، ثم اعلن نتيجة دراسته وتحقيقه، وهي ان القرآن الذي أوحي به الى رسول الله (ص) هو هذا الذي عند المسلمين لازيادة فيه ولانقصان .

وبعد اعتراف جماعة من كبار اليهود والنصارى بان القرآن أخذ من رسول الله (ص) شكك المحققون منهم وارتابوا في نسبة التوراة الى موسى ، ونسبة الاناجيل الى عيسى. .ذلك بان التوراة التي نزلت على موسى (ع) قد فقدت من بعده باعتراف اليهود والنصارى انفسهم ، وانه بعد سنين طوال ادعى من ادعى بانه يحفظها عن ظهر قلب ، وكتب دعواه هذه، وقال لها : كوني توراة فكانت .

ونفس الشيء حدث للانجيل الاصيل الذي أنزل على عيسى (ع) ، قال صاحب اظهار الحق ص ٤٢ : ان قسيسا اعترف بضياع الانجيل بسبب المصائب والفتن التي وقعت على المسيحيين مدة ٣١٣ سنة فالتجأوا في اثباته الى الظن والتخمين . .

ومن الطريف ان انجيل السيد المسيح قد اولد بعده اكثر من ١٧٠ انجيلا ،انظر اظهار الحق ص ١٤ . وفي سنة ٣٢٥م اجتمع رؤساء النصارى واقروا اربعة منها .

و آخرما قرأته فی هذا الموضوع کتابین حدیثین : الاول کتاب القاموس المقدس اشترك فی وضعه ۲۷ عالما ورئیسا دینیا من المسیحین وجاء فی مادة یوشا من هذا الکتاب مانصه بالحرف : « مما لاشك فیه ان معظم الاسفار المقدسة اتلف اوفقد فی عصر الارتداد عن الدین والاضطهاد» وجاء فی مادة اسفار : «هناك رأی ـ ای لاهل الکتاب ـ یقول : ان الذی اضفی صفة القانون علی اسفار العهد القدیم هم کتاب الاسفار انفسهم »و هذا اعتراف صریح لایقبل الشك بان الاسفار لاعین لها ولااثر، وان هذه الاسفار المتداولة من عند کتبتها .

والکتاب الثانی قصة الحضارة لمؤلفه : «ول دیورانت» فقد جاء فی الجزء الثانی من المجلد الاول ترجمة محمد بدران ص۳۶۷ ـ ما نصه بالحرف : «کیف کتبت هذه الاسفار ؟ ومتی کتبت؟ واین کتبت ؟ذلك سؤال بریی لاضیر منه ، ولکنه سؤال کتب فیه خمسون الف مجلد »و هذا ـ السؤال البریی من عالم ومورخ مسیحی اوضح دلیل علی شکه فی مقدسات آبائه واجداده ..ولو کانت تلك الاسفار حقا وصدقا لکان جواب السؤال عنها بسطر اوسطرین ؛ تماما کجواب السؤال عن القرآن الکریم... و مما یکن فان الخمسین الف مجلد التی ألفت فی الجواب قد أکدت شبهة التحریف ، وحولتها الی القطع والیقین بالتزویر والتحریف .

هذا مجمل الفرق والتضاد بین ظروف القرآن التی تشهد بصدقه، و ظروف التوراة والانجیل التی تنطق بالتحریف والتزویر فیهما .

اما الفرق من حیث الشکل و الاسلوب فلسنا بحاجة الی الکلام

عنه.. وحبذا لو سجلت الفاظ التوراة والانجيل كما سجلت المفردات فى قواميس اللغة .. واما من حيث المحتوى و المضمون فهذا نموذج من محتويات التوراة والانجيل: زنى لوط بابنته ، وزنى داود بزوجة احد اتباعه وقتله ، وعبد هارون العجل مع من عبد ، وشرب عيسى الخمر ، و قال فيه قول العاشق الولهان ، وسقاه فى الاعراس للشبان ؛ و تجلى الله فى صورة انسان ، وحملته مريم فى بطنها ، واولدته كما تلد النساء .. وشكى من ظلم عبيده الذين شتموه وضربوه ، ثم صلبوه ودفنوه فى التراب .الى غير ذلك من الاساطير والخرافات.. واطرف من كل طريف ان سفر التثنية من التوراة التى نزلت على موسى بالذات ـ قالت مانصه بالحرف :«فمات موسى، ولم يعرف انسان قبره الى اليوم ..هل نزل هذا الخبر على موسى قبل موته او بعده ؟ ومن بلغه الى الكاتب الذى خط التوراة بيمينه .

وايضاً حدثتنا الاناجيل عن صلب السيد المسيح ودفنه، ثم عن خروجه من القبر وصعوده الى السماء واختتام حياته على الارض ...فهل حديث الصلب والدفن الموجود فى الاناجيل ، هل هذا الحديث وحى من الله ،اوهو خبر من بعض الناس ، فان كان وحيا من الله فعلى من انزله بعد المسيح ؟ وان كان من بعض الناس فكيف دون فى الاناجيل ، ونسب الى الله؟.

وبعد ، فان علماء الاسلام قد وضعوا العديد من الكتب فى تحريف التوراة والانجيل ، منها كتاب الرحلة المدرسية ، و كتاب الهدى الى دين المصطفى للشيخ جواد البلاغى ، وكتاب محمد رسول الله فى بشارات الانبياء لمحمد عبد الغفار ، وكتاب محمد رسول الله هكذا «بشرت الاناجيل» لبشرى

زخاری مخائیل ، وكتاب البشارات والمقارنات للشيخ محمد الصادقی .

كتاب اظهار الحق:

ومن اراد ان يقنع أی انسان بتحريف التوراة والانجيل، او يفحمه بمعادلة شبه حسابية لاتقبل الشك ـ فليقرأ كتاب اظهار الحق لرحمة الله الهندی ، فانه يتيم وعظيم فی هذا الموضوع ، يحتوی على مئة دليل حسی على التحريف والتزييف ...ولصاحبه عقل اشبه بالعقل الالكترونی فی حفظ الارقام والاحاطة بها و حفظها ،فهو يعرف كل مافی اسفار التوراة والاناجيل ومتی فقد كتاب موسی ، وكتاب عيسی ؟ وكيف اختفيا من كل مكان؟ وايضا يعرف اول من كتب هذه التوراة المتداولة فی ايدی الناس ، ونسبها كذبا وافتراء الی كليم الله، واول من كتب هذه الاناجيل ، ونسبها الی روح الله، ومتی كان ذلك؟ وكيف قلمت بالنقصان، وطعمت بالزيادة مع مرور الزمن ، ثم يقارن بين النسخ اللاحقة والسابقة ،ويبين وجه التهافت والتناقض بينهما بل يعرف زمان الطبع ومكانه ، وعدد اللغات التی ترجم اليها كل من الانجيل والتوراة .

وفوق ذلك احاط علماً بالكتب المؤلفة فی تفسير الكتابين ؛ ونقل عن اقطاب المفسرين: الاعتراف الصريح بتحريف الكثير من آيات التوراة والانجيل ؛ وهو يذكر اسم المفسرين ورقم الاية المحرفة ورقم الصفحة من التفسير وسنة الطبع . .الی غير ذلك من التدقيق والتثبت .

ويقع هذا الكتاب المفعم المتخم بالعلم والارقام ، فی جزأين، ويقول المؤلف فی المقدمة: ان الانكليز بعد ان استعمروا الهند حشدوا رجال الكنيسة للرد على الاسلام واهله، فوضعوا لهذه الغاية الكتب والرسائل ،ونشروها فی

كل قطر.. ثم دعاه رئيس الكنائس فى الهند للمناظرة علنا ؛ فاستجاب الشيخ رحمة الله ، وانعقد مجلس المناظرة فى بلدة «اكبر آباد» بمحفل عام فى شهر رجب سنة ١٢٧٠ هـ ، وتقرر أن تكون المناظرة فى خمسة موضوعات : هى تحريف التوراة والانجيل ، ونسخ الشرائع ، وعقيدة التثليث ، وحقيقة القرآن ونبوة محمد (ص) ولما ظهرت الغلبة للمؤلف فى مسألة التحريف والنسخ احجم رئيس الكنائس عن المناظرة ، وسد بابها ، وولى هاربا .

ثم الف رحمة الله فى الموضوعات الخمسة كتاب اظهار الحق ، وقال فى آخره : ابتدأت به فى ١٦ رجب سنة ١٢٨٠ هـ ، وانتهيت منه فى آخر ذى الحجة من السنة نفسها.. وقد طبع الكتاب سنة ١٣٠٥ هـ ، وهو نادر الوجود الافى بعض المكاتب القديمة ، واتمنى لو طبع ثانية طبعة حديثة على ان يجعل للموضوعات عناوين بارزة ، ولكل مسألة فقرة خاصة مع جملة فى رأس السطر بالحرف الاسود تشير اليها ، وايضا مع الفواصل ، ورؤس الاسطر .

٣ـ الفتح

اشرنا فيما سبق الى ان الذين آمنوا برسول الله على انواع ، وذكرنا منهم نوعين : نوع آمن به لمجرد الثقة بصدقه ، وآخر لورود البشارة به فى التوراة والانجيل ، واضطرنا حديث البشارة الى الكلام عن التحريف واوجزنا بقدر الامكان ، ونعود الان الى الموضوع ، ونذكر فى هذه الفقرة النوع الثالث وهو ان الله سبحانه بعد ان فتح على نبيه الكريم ، ونصره على عتاة اليهود والمشركين ، و امتلات قلوبهم منه رعبا ـ دخل الناس فى دين الله قبائل وافرادا كما جاء فى سورة النصر ، لان كثيراً منهم كانوا ينتظرون فى اسلامهم

فتح مكة ، ولما فتحها الله على نبيه عظم امر الاسلام ، وانتشر في الجزيرة العربية كلها .

٤ - ايمان العقل والوعي

ابتدأ محمد (ص) دعوته بقوله ايها الناس قولوا: لا اله الا الله تفلحوا . . هو الذي خلقكم من نفس واحدة.. ان اكرمكم عند الله اتقاكم.. ان الله بالناس لرؤف رحيم . . ولكنه لا يحب الظالمين والمفسدين . . ويحب المتقين والمحسنين .

هذه امثلة مما قاله محمد (ص) للناس عن ربه وربهم . . وقال لهم عن نفسه: انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين.. فمن يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احداً.. ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكمة والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله .

هذا هو اصل الدعوة الالهية المحمدية : الايمان بالله وحده الذي يحب المتقين، ويكره المعتدين ، والايمان برسوله ، وهو واحد من الناس وبشر مثلهم كما نطقت الاية ١٢٨ من التوبة : «لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم» . هذا هو أصل الدعوة المحمدية، وعليه تتفرع جميع مبادى الاسلام واحكامه..واذا لم يأت الانبياء بهذا الدين فبأي شيء يأتون.وهل ابسط واوضح، وانقى واصفى من هذا .

وجاء في كتاب «لماذا اخترنا الدين الاسلامي»: ان « ليون روش » الفرنسي قال في كتابه « ثلاثون عاما في الاسلام » : وجدت الاسلام افضل

دين عرفته ..انه انسانى يجمع المحامد والفضائل ولوانه وجد رجالا يعلمونه الناس حق التعليم ، ويفسرونه تمام التفسير لكان المسلمون اليوم ارقى العالمين ، واسبقهم فى كل الميادين ومعنى قوله هذا، ان الاسلام تركن اليه النفس ، ويقره العقل ، وان الناس يجهلون حقيقته واهدافه . حتى المسلمين .. وانه لواتيح له من يبينه للناس على حقيقته ،ويبشر به كما بشر بالمسيحية لظهر على الدين كله ، وآمن به اكثر من فى الارض ، وعاشوا فى أمن ورخاء.. ويؤيد هذا الفهم للاسلام قول الرسول الاعظم(ص) :«المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف » وليس من شك ان كل انسان يود ان يكون قويا ، لاضعيفا ، لانه بالقوة يعمل ويبنى ، و بها يحيا وينمو .

وآمن كثيرون بمحمد(ص) فى عهده ، واخلصوا لدعوته ،آمنوا بها وبه عن عقل وعلم ،وقناعة ودراية ؛ لا للمحاكاة والتقليد ، ولا لمجرد الثقة بصدقه وامانته ، اولجاهه و سلطانه.. و من هؤلاء النجاشى ملك الحبشة ، ومعه كثيرون من الرهبان والقسيسين ، وغيرهم من المسيحيين ؛وحديثه مع جعفر بن ابى طالب مشهور ومدون فى كتب السيرة والتاريخ ،

اسلام على واسلام ابى بكر

و اول من آمن برسالة محمد(ص) عن هدى وبصيرة هو على بن ابى- طالب(ع) . قال محمد حسين هيكل فى كتابه حياة محمد فى ص ١٤٠ الطبعة التاسعه ـ مانصه بالحرف: « دعا محمد(ص) ابن عمه عليا الى عبادة الله وحده لاشريك له ، والى دينه الذى بعث به نبيه ..فاستمهل على ابن عمه محمدا حتى يشاور اباه ، ثم قضى ليله مضطربا حتى اذا اصبح اعلن لرسول الله و

خديجة انه يتبع دين محمد من غير حاجة الى رأى ابى طالب ، وقال على : لقد خلقنى الله من غير ان يشاور ابا طالب ، فما حاجتى انا الى مشاورته لاعبدالله ..

وبعد ان نطق هيكل بهذه الحقيقة اخذه عرق من تربيته ؛ و انسجم مع بيئته ، وقال : «وكذلك كان على اول صبى اسلم» .

ان عليا سبق ابابكر الى الاسلام باتفاق الكل ، وسبقه ابو بكر الى الخلافة ، فقال من آمن بالله ورسوله : كيف تقدم ابو بكر على اول القوم اسلاما واقدمهم بالله ايمانا ؛ والله يقول: «والسابقون السابقون اولئك المقربون ١١ ـ الواقعة » ؟ وحار فى الجواب من تنكر للحق واهله.. واخيرا اسعفته القريحة على اللف والدوران ، فتلاعب بالالفاظ ، وقال : « اول من اسلم من النساء خديجة ، ومن الصبيان على ، ومن الرجال ابو بكر ».

اجل ، ان ابابكر كان رجلا حين اسلم ، مافى ذلك ريب ، و ايضا كان رجلا كبيرا ، وهو يعبد الاصنام .. و لكنه لم يكن ذا عقل نير ينهاه و يردعه عن عبادة الاحجار كعقل ورقة بن نوفل ، و عثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو ، وغيرهم من الحنفاء الذين تمردوا على عصرهم الجاهلى ، و ادركوا بفطرتهم الصافية ان عبادة الاصنام جهالة وضلالة... ان اسلام ابى بكر لم يكن عن عقل ووعى ، بل لمجرد صداقته مع رسول الله ، وثقته بصدقه ، كما قال هيكل فى نفس الصفحة من الكتاب السالف الذكر ؛ و هذى هى عبارته بالحرف : « وكان ابو بكر بن ابى قحافة التيمى صديقا حميما لمحمد يستريح اليه ، ويعرف فيه النزاهة والصدق.. ولم يتردد ابو بكر فى اجابة

محمد » .

اما ايمان على فهو ايمان العقل والعلم الذى اعلنه بقوله:« لقد خلقنى الله من غير ان يشاور ابا طالب ، فما حاجتى انا الى مشاورته لا عبدالله ؟ » و ليست هذه وحدها من هفوات هيكل، فقد ذكر فى الطبعة الاولى حديث «ان النبى (ص) عندما نزلت هذه الاية «وانذر عشيرتك الاقربين» جمع بنى عبدالمطلب ، وقال لهم : قد امرنى الله ان ادعوكم اليه ؛ فايكم يؤازرنى على هذا الامر على ان يكون اخى ووصيى وخليفتى فيكم، فاسمعوا له واطيعوا » ذكر هيكل هذا فى الطبعة الاولى ، ثم حذفه فى الثانية ، لانه قبض خمس مائة جنيه ثمنا لهذا التحريف.. والعهد على ذمة ناقل الرشوة .

الاسلام والقائلون بالحق

اسلم الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه ، وآمنوا بدعوة محمد (ص) فى عهده ، وفى كل زمان ومكان ، وتنبأ كثيرون من قادة الفكر فى هذا العصر بان الاسلام هو دين المستقبل مهما طال الامد ، و عللوا ذلك بان العالم يتجه الى العلم واستغلاله لخير الانسان و صالحه ، والاسلام هو الدين الذى يوجه العلم لهذه الغاية .

قال تلستوى الفيلسوف الروسى الشهير :«ان الشريعة الاسلامية ستعم البسيطة كلها، لانها تأتلف مع العقل والحكمة والعدل» .

وقال الكاتب الفرنسى «هنرى» فى كتاب الاسلام :ان السبب الوحيد لانتشار الاسلام بسرعة تشبه خرق العادة هو بساطة هذا الدين ، وسهولة

تعاليمه ، وخلوه من الخرافات ، ومن كل ما يصعب على العقل قبوله .

وقال الفيلسوف الشهير واديب القرن العشرين برنادشو الانكليزى:

«ان الاسلام دين المستقبل، ولابد ان تعتنق الامبراطورية الانكليزية النظم الاسلامية.. ولو بعث محمد فى هذا العصر لحل المشكلات العالمية ، وقاد العالم الى السعادة والسلام ، فما احوج العالم الى رجل كمحمد» (كتاب لماذا اخترنا الدين الاسلامى) .

وهذا العظيم يمثل اسمى ماوصلت اليه الثقافة فى هذا العصر، وقد نطق بهذه الحقيقة ، وهو يعنيها ويؤكدها ؛ لانها نتيجة حتمية لدراسة طويلة وعميقة ، وثمرة يانعة لتفكير صاف وسليم .. لقد تطلع هذا الفيلسوف الى الوقت الذى يصبح فيه كل الناس مسلمين ، لانهم يتطلعون بفطرتهم الى الامن والرخاء ، والعدل والمساواة ، ولاتتحقق هذه الامنية للناس كافة الا اذا آمنوا بالعدالة والاخوة الانسانية ، ودخلوا فى السلم كافة على هذا الاساس وهذى هى دعوة محمد ولاجلها بعث .

لقد ادرك برنادشو الكثير من خصائص محمد (ص) التى استحق بها ان يختاره الله لرسالته ، وايضا ادرك ان العصر الذى نعيش فيه تماما كعصر الجاهلية الجهلاء فسادا وتناحراً ، وان اختلف الشكل والمظهر ، وانقذ محمد الناس من جاهليتهم الاولى، فينقذهم من توافرت فيه خصائصه من الثانية .. واذا لم يكن محمد (ص) فى هذا العصر بشخصه فانه موجود بسنته وشريعته، وقد آمن بها كثير من العلماء وقادة الفكر المنصفون بعد الدراسة والتمحيص ، وفيما يلى نذكر امثلة من هؤلاء الذين يعدون بالعشرات .

من الذين آمنوا:

اكتب هذه الفقرة ، ولدى من مصادرها كتاب التكامل لاحمد أمين العراقى ، وكتاب مايقال عن الاسلام للعقاد ، وثالث كتاب محمد والقرآن لكاظم آل نوح، ورابع كتاب لماذا اخترنا الدين الاسلامى للرضوى ،وفى هذه الكتب الاربعة عدد غير قليل من الذين آمنوا بان رسالة محمد (ص) الهية ، لابشرية ، وكلهم من اهل المعرفة وحملة الشهادات العاليـة ، و فيهم الانكليزى والفرنسى والالمانى والامريكى والدنمركى و الايطالى والهولندى والبلغارى .

قال اللورد «هيدلى» البريطانى : اعتنقت الاسلام نتيجة لبحث سنوات عديدة .. ان الاوربين ينظرون الى الاسلام كانه وحشية و همجية مع ان كل اعمال محمد كانت لازالة التوحش والهمجية ، ولكن المبشرين المسيحيين لايد خرون وسعا لتحريف الاسلام ، و هذا هو الكذب الذى يخزيهم .

وقال الدكتور «بنوه» الفرسى : تصفحت القرآن لانتقده ، فاذا بى أؤمن به واقدسه .

وقال «دولاند» الامريكى : اسلمت بعد ان قرأت القرآن و شيئـا من سيرة محمد (ص) فرأيت ان الجانب الانسانى يتجلى فى كل وصية من وصايا الاسلام .

وقال الدكتور « ماركوس» الالمانى بعد ان اسلم : عقيدة التوحيد قدسية ، وتعاليمها منزهة عن الخرافات ، وتهدف الى تأسيس حرية جماعية

عامة . (انظر صور هؤلاء الاقطاب الاربعة فى كتاب لماذا اخترنا الدين الاسلامى للسيد الرضوى) .

وجاء فى كتاب «ما يقال عن الاسلام» للعقاد بعنوان الاسلام والنظم الاجتماعية : نحمد صنيع الكاتب الفاضل الاستاذ : « ليوجولد فايس» النمساوى .. لقد دان بالاسلام منذ خمس و ثلاثين سنة ، وتسمى باسم «محمد اسد» ،ودافع عن الاسلام ، ودأب منذ اسلامه على تصحيح اخطاء الاوربيين .. والف فى الموضوعات الاسلامية كتاب الاسلام على مفترق الطرق ، وكتاب اصول الفقه الاسلامى ، وكتاب الطريق الى مكة ،وكتاب مبادى الدولة والحكومة فى الاسلام .

وبهذه المناسبة نشير الى ان الكتب التى الفها غير المسلمين فى عظمة الاسلام ـ كثيرة، منها كتاب الاسلام والعصر الحديث للدكتورة الالمانية «السليختستادتر وكتاب الاسلام والجماعة المتحدة، للاستاذ موتنجومرى عميد قسم الدراسات العربية بجامعة ادنبرة (انظر ما يقال عن الاسلام للعقاد) وكتاب حياة محمد لوليم ميود ، ايضا كتاب حياة محمد لثبورت اسمت (انظر كتاب لما ذا اخترنا الدين الاسلامى؟ للرضوى) . و كتاب اقوال محمد لتنلى ليـن بول ، وكتاب اشعة خاصة بنور الاسلام (انظر كتاب محمد والقرآن لكاظم آل نوح) .

محمد خاتم النبيين

وتسأل : قال سبحانه فى الاية ٤٠ من الاحزاب : «ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » . وقد فهمنا ان محمدا نبى

ولكن لماذاخاتم النبيين ؟ .

الجواب : انالغاية من بعثةالانبياءهى ان يبلغ النبى قول الله الى عباده فيما يحتاجون اليه من امر دينهم ودنياهم ، واى مبدأ من المبادى التى يحتاج اليهاالانسان فى هذا العصر وغيره - غير موجود فى كتاب اللـه و سنة نبيه ، وهل من شيىء اصدق فى الدلالة على ان الاسلام هو دين الحياة فى شتى مراحلها من اسلام من اسلم عن بصيرة فى هذا العصر ؟ .

قال سبحانه : « مافرطنا فى الكتاب من شيىء ـ ٣٨ الانعام» . و قال الرسول الاعظم (ص) : مامن شيىء يقربكم الى الله الاوامرتكم به؛ وما من شيىءٍ يبعدكم عن الله الاونهيتكم عنه .

وقال ايضا : انمثلى ومثل الانبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنيانا فاحسنه الاموضع لبنة ، فجعل الناس يطوفون به ، ويقولون : هلاوضعت هذه اللبنة ؟ .فانااللبنة ، وانا خاتم النبيين .

وقلنا فى ما ألفنا : انمحمدا ودين محمد قداستوفيا جميع صفات الكمال ، وبلغا الغاية منهاوالنهاية ؛ تماماكما بلغت الشمس الحد الاعلى من النور ؛فلاكوكب ولاكهرباء يمتلىء الكون بنورهما بعدكوكب الشمس.. كذلك لانبى يأتى بجديد لخير الانسانية بعد محمد .

العصمة نوعان :

معنى العصمة:التنزيه عن الخطأ و الخطيئةوهى نوعان :الاول العصمة فى تبليغ الوحى عن الله سبحانه ، أى ان المعصوم لا يخطىء فيه لاجهلا ولا نسيانا ، ولا يتعمد الكذب اطلاقا ، و هذه العصمة تجب حتما لمن

اصطفاه الله لابلاغ رسالته والا استحال ثبوت الوحى بحال من الاحوال حيث لا وسيلة لاثباته الا عصمة المبلغ .

وتسأل : هل هذا النوع من العصمة يكون بالقدرة والاختيار ، او بالجبر والقسر ؟

الجواب :

اما نحن فلا نرى مانعا من العقل ان تكون العصمة فى التبليغ بالقسر لا بالاختيار ، ودليلنا على ذلك :

اولا : انها فى تبليغ الاحكام عن الله ، لا فى امتثالها .

ثانيا : ان النبى فى هذه الحال هو لسان الله وبيانه . ولسانه تعالى يستحيل عليه الخطأ .

ثالثا : ان ظاهر القرآن يدل على ذلك ، قال تعالى فى سورة الاعلى مخاطبا نبيه الكريم : « سنقرئك فلا تنسى » و« لا » هنا للنفى و الاخبار ، لا للنهى والانشاء ، لان المعنى نحن نقرئك القرآن يا محمد ، و نحفظه فى قلبك وعلى لسانك بكامله بحيث لا تنسى منه حرفا واحدا ؛ و الى هذا يومىء قوله تعالى : « ان علينا جمعه وقرآنه ـ ١٧ القيامة » وقوله: « نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ـ ٩ الحجر »

النوع الثانى : العصمة فى امتثال الاحكام بحيث يفعل المعصوم الواجب مع قدرته على تركه ، ولا يفعل المحرم مع قدرته على فعله... ابداً لا يفعل هذا ، ولا يترك ذلك ، لا عمدا ولا جهلا ولا سهوا. وهذه العصمة ممكنة ، بل هى ثابتة لاهلها ، ما فى ذلك ريب .

اين هو المعصوم:

وتسأل: قد يوجد انسان يعرف حدود الله وحلاله وحرامه، ويلزم بها نفسه، ولا يتعمد المعصية في قول او فعل، ولا يقصر في فريضة بل ولا في سنة . . ولكن هل يوجد انسان واحد يستحيل في حقه الخطأ بما هو انسان بحيث لا يخفى عليه مكر ولا خديعة، ولا يجوز عليه سهو ولا نسيان .. كيف وهو ابن الارض والطبيعة.. حتى سيد الانبياء (ص) قال: « انما انا بشر مثلكم يوحى الي ـ ٦ فصلت» ونحن نؤمن بعصمته في التبليغ، اما في غيره فهو كما وصف نفسه، وان قال قائل : ان العصمة بالطبيعة او بالقسر قلنا له : اذن لا فضل بها ولا اجر عليها .

الجواب:

ان الانسان بما هو انسان ليس بمعصوم، وايضا لا تأتيه العصمة بالكسب والعمل، كما هي شأن العدالة ، ومن هنا اسقط سبحانه التكليف عن الجاهل والناسي مع التحفظ وعدم التقصير.. وايضا لا تكون العصمة في امتثال الحلال والحرام بالجبر والالجاء، حيث لا طاعة ولا امتثال الا مع القدرة والارادة ، ولكن ليس معنى هذا انه لا وسيلة عند الله سبحانه الى العصمة في الامتثال الا الجبر والاكراه .. كلا هناك طريق آخر اليها عنده تعالى ، وقد اشار اليه بقوله: وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ـ ٢٩ الحديد».

واليك البيان :

وبقصد التوضيح نمهد بهذا المثال : لك صديق وحبيب تحرص كثيراً على مصلحته حتى كأن شيئا لو اصابه قد اصابك بالذات . . ورأيته يهم بامر ظنه خيراً له وصلاحا ، وانت تعلم علم اليقين انه شر وفساد ، وهو يثق بعلمك و

نصحك، فتطلعه على الحقيقة ، وهو بدوره يحجم ويمتنع بارادته واختياره بمجرد الاشارة منك ، فيكون لك، وهذى هى الحال، فضيلة الاخلاص والنصيحة وله ايضا فضيلة الاستماع اليها، والعمل بها .

والله سبحانه أمر عباده ونهاهم ، ووعد الطائع منهم بالثواب ، وتوعد العاصى بالعقاب، ثم ترك كل امرىء ومايختاره لنفسه، ولايتدخل فى شئونه عند الطاعة او المعصية، ولكنه يعذر المخطىء اذا هو احتاط ولم يقصر . . هذا شأنه، جلت حكمته، مع جميع عباده الامع المعصوم فانه يشمله بعنايته ويمده بارادة التسديد لا التكوين ، فاذا اوشك ان ينسى اوينخدع نبهه سبحانه بطريق او بآخر، وكشف له عن الواقع، فينتبه المعصوم ويمتنع مختاراً لا ملجأ .

وقد حدث هذا مع الانبياء اكثر من مرة ، من ذلك ماجاء فى السبب الموجب لنزول هذه الاية :ومن يرتكب اثما ويرم به بريئا فقد احتمل بهتانا واثما مبينا ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم ان يضلوك وما يضلون الا انفسهم ـ ١١٢ النساء» قال المفسرون : ان رجلا من المسلمين سرق متاعا ،ورمى به بريئا ، فناصرت السارق طائفة من الصحابة ، وحاولوا جاهدين ان يخدعوا رسول الله (ص) فى براءة السارق ، وكاد الرسول ان ينخدع ويثق بما اظهروه من الصلاح ، وبما اقسموا من الايمان فاطلعه الله على كذبهم ومكرهم . فعامل الرسول الاعظم (ص) كلا بما يستحق .

وهكذا سبحانه يسدد المعصوم، ويمده بارادة لاهى بالتكوين فينتفى الفضل والاجر، ولا بالتشريع فيستوى المعصوم وغير المعصوم، بل بين بين...ونحن

على هذا الفهم والرأى حتى يثبت العكس ، وبهذه الارادة أى ارادة التسديد لا التكوين أو التشريع ـ نفسر ارادته تعالى فى آية التطهير: انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً ٣٣ ـ الاحزاب) .

لقد اراد سبحانه للنبى وآله التطهير والتنزيه عن الخطأ والخطيئة ، اراد ذلك بالنص الصريح فى هذه الاية التى لا تقبل التأويل بوجه . . ولكن من أى نوع هى الارادة الالهية؟ هل هى من نوع التشريع ، واذن فلا مبرر للتخصيص باهل البيت (ع)، او من التكوين ، واذن فلا فضيلة لهم ما داموا . ولا نتصور نوعاً ثالثاً لارادته تعالى الا ارادة التسديد والتأديب، واليها اشار النبى (ص) بقوله: «ادبنى ربى فاحسن تأديبى» ولنا ان نفسر هذا التأديب الربانى بقول امير المؤمنين (ع) : «لقد قرن الله نبيه محمدا (ص) من لدن ان كان فطيما اعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن اخلاق العالم ليله ونهاره. ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل أثر امه ، يرفع لى فى كل يوم من اخلاقه علما ويأمرنى بالاقتداء به» .

وبعد، فهل من دليل على الارادة الثالثة أصرح واقوى من هذا الدليل

الشيعة والعصمة

والشيعة اول من ادرك أن العصمة يحتمها وجوب العمل بالوحى ، وقرروها باساليب شتى. واستدلوا عليها بمنطق العقل وبداهته . وعنهم اخذ السنة فكرة العصمة كما قال الدكتور احمد شلبى ـ من السنة ـ استأذ التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية بجامعة القاهرة ، فقد جاء فى الجزء الثالث من كتابه مقارنة الاديان طبعة ١٩٦٧ ـ ما نصه بالحرف «الشيعة يثبتون عصمة

الانبياءِ والائمه ايضاً، ويرون ان الرسول لو لم يكن معصوماً من الزلل لقلت الثقة به، ولانتفت فائدة البعثة.. والعجب ان قول الشيعة بعصمة الانبياء تسرب الى اهل السنة؛ واصبح رأى جمهور المسلمين».

ومع هذا يقول صاحب الخطوط العريضة بكل جهل وصلافة : ان الشيعة ينفون .العصمة عن الانبياء و بناء على افترائه هذا احمل عليهم باضاليله و اباطيله ،وتجاهل قول الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد : «من العسير اقامة الدليل العقلى ، او اصابة دليل شرعى يقطع بما ذهب اليه الجمهور» اى من وجوب العصمة للانبياء .

وبعد ، فان النبى بشر بطبعه وطابعه ، وقد غالى وتجاوز الحد من قال:« ان محمدا (ص) هو الحقيقة التى خلق الله منها الوجود ، والروح التى سرت فى جميع الكائنات علويها وسفليها ، كلا، لافرق بين محمد سيد الانبياء ، وغيره من البشر الافى الجهات التالية :

١ ـ انه قد ارتفع الى اعلى مراتب الانسانية كمالا، بحيث لو تجاوزها قيد شعره لكان ألهاً او نصف اله .

٢ ـ يوحى اليه .

٣ ـ ان الله قد لطف به كما لطف بجميع الانبياءِ ، فقربهم من كل فضيلة ؛ وابعدهم عن كل رذيلة ، لطف بهم ، لافى بيان الاحكام فقط، بل فى اقوالهم وافعالهم ، ومن اجل هذا كان قول النبى وفعله وتقريره دليلا على الحق .

ومن المفيد ان نختم هذا الفصل بما قلناه في المجلد الاول من تفسير الكاشف ص١٩٨ : ان فكرة العصمة لا تختص بالشيعة وحدهم ؛ فان السنة قالوا بها ، ولكنهم جعلوها ايضا للامة ، لا للائمة ، مستندين الى حديث لم يثبت عند الشيعة ، وهو: «لا تجتمع امتي على ضلالة » .. و المسيحيون قالوا بعصمة البابا ، والشيوعيون بعصمة ماركس ولينين ، وقال القوميون السوريون بعصمة أنطون سعادة ، والاخوان المسلمين بعصمة حسن البنا، و كثير من البعثيين بعصمة عفلق، وكل من استدل بقول انسان ، واتخذ منه حجة ودليلا على الحق فقد قال بعصمته شعر بذلك ام لم يشعر .

وفي الصين مئات الملايين اليوم تؤمن بعصمة ماوتسي تنغ، واذا اختلف الشيوعيون فيما بينهم ، وكذلك غيرهم ممن ذكرنا فانهم يختلفون في تفسير اقوال الرؤساء والقادة ،لا في وجوب العمل بها، تماما كما يختلف المسلمون في تفسير نصوص القرآن ، والمسيحيون في تفسير الانجيل .

فلسفة الولاية

اصول الدين

«مايجب بلاشرط ،ومايجب مع الشرط»

هذاالفصل:

هذا الفصل هام جدا ، وعليه ترتكز مباحث هذا الكتاب ، وكان من حقه ان يكون الاول فى الترتيب ، ووضعناه هنا عن قصد ، لانه بمباحث الولاية اليق والصق ، وعلى اية حال ، فالمقصود الاول من البحث امران:

الاول :بيان مايجب على المسلم ان يلتزم به كاصل و ركن من اصول الدين والعقيدة بحيث يكون مسؤلا عنه امام الله ، ولايعذر فيه ان قصر واهمل .

الثانى : تحديد الطريق الى معرفة هذا الاصل ، ومايتفرع على ذلك من صحة التقليد ؛ وحكم العاجز عن المعرفة والغافل .

بساطة العقيدة ووضوحها:

وعقيدة الاسلام فى منتهى الوضوح والبساطة ، لانه دين الفطرة التى لاتشوبها شائبة من دنس البيئة والتربية ، فاصل الاصول فيه هو التوحيد، وأى عاقل يأبى الايمان باله لاشريك له ولانظير ؛ وانه الحليم الكريم ، والغفور الرحيم ، والقادر العليم ؟ .

اما الايمان بمحمد (ص) فهو ايمان بالدليل الصادق الناطق بحلال الله وحرامه .. ومن اجل هذه البساطة ، وهذا الوضوح اسلم من طلب الحق لوجه الحق في هذا العصر ، واشرنا الى بعضهم في فصل محمد والقرآن ، وايضا شهد كثيرون من قادة الفكر الاجانب بان الاسلام هو دين الحياة في كل زمان ومكان ، ونقلنا طرفا من اقوالهم في الفصل المذكور .

اصول الدين على نوعين:

يعترف للشيخ الانصاري بالسبق والاستذة في الغوص وبعد النظر - كل من تأخر عنه من اهل الفضل والاجتهاد ، وعلى كتابيه في الفقه و اصوله مدار الدرس والمذاكرات .. عليه الرحمة والرضوان .. وان كان لا يرحم طالبا ولا استاذا في تعبيره واسلوبه .

فقد اتعب عشرات الالاف ، واجهد عقولهم ، واسهر عيونهم حتى الصباح في تفسير معاني الكلمات وطلاسمها .. ومرة ثانية عليه رحمة الله ورضوانه .

قال هذا الشيخ العظيم في كتابه المعروف بالرسائل ما توضيحه : ان اصول الدين على نوعين :

الاول: ما يجب البحث والنظر مقدمة لمعرفته ، وتمهيدا للتدين و الالتزام به ، ويسمى هذا النوع في عرف الفقهاء و الاصوليين بالواجب المطلق ؛ اي ان العلم به شرط لوجوده ، لا لوجوبه تماما كالطهارة بالنسبة الى الصلاة - مثلا - من تنبه الى الخالق وشك في وجوده فعليه ان ينظر ويبحث، ولا يجوز له ان يهمل ويقول : ان علمت بطريق او بآخر أن الله

موجوداً منت واذعنت ، والافماعلى من سبيل ! ..بل عليه ان يسعى ،ولا يدخر شيئاً من جهده وطاقته .

النوع الثانى : لايجب تحصيل العلم بمع انه فى الواقع من اصول الدين ، ولكن لايجب التدين به ، ولاتتم به الحجة الابعد الاطلاع عليه ، اى ان العلم به شرط لوجوبه ، لالوجوده فقط ، فمتى علم به المكلف باى طريق من الطرق وجب عليه ان يلتزم ويذعن ، و الا فلا يجب السعى و بذل الجهد لتحصيل العلم تماماكالاستطاعة بالنسبة الى الحج ؛ و يسمى هذا النوع بالواجب المشروط .

وزادالاشتيانى تلميذالشيخ الانصارى قسماثالثافى حاشيته الكبرى على رسائل استاذه، وقال مانصه بالحرف : «ان هناقسما ثالثالايجب التدين به ولوبعد العلم بثبوته عن النبى(ص) واخباره به على سبيل الجزم واليقين ، وان كان انكاره بعدالعلم بثبوته عن النبى (ص) موجبا للكفر من حيث رجوعه الى انكار النبوة وتكذيب النبى(ص) فان تكذيبه ولوفى الاخبار العادية موجب للكفر قطعا ،وهومايرجع الى امور واقعية لاتعلق لها بالدين مثل بيان مبدأخلق السماء والارض- الى ان قال - لايقال : لامعنى لهذا التقسيم لان كل مابينه النبى(ص) يكون من الدين لامحالة، والالم يبينه... لانانقول : هذا غلط واضح ،وخلط ظاهر ، فان الرسول (ص) قديخبر عن الشيىء من حيث كونه شارعاومبلغاعن الله تعالى ومامورا بتبليغه الى العباد، وقد يخبر عن الشيىء لامن هذه الحيثية ، بل من حيث كونه عالما بالغيب بافاضة الله سبحانه،ومن المعلوم ان هذالايرجع الى الاخبار عن الامر الدينى»..

(انظر صفحة ٢٧٦) .

وقد تنبه الشيخ الانصاري لهذا النوع ؛ واشار اليه بقوله : «نعم ظهر في الشريعة امور، صارت ضرورية الثبوت من النبي (ص) ، فيعتبر في الاسلام عدم انكارها» . تنبه الانصاري الى هذا النوع ، ولكن لا يعتبره قسما لاصول الدين التي يجب التدين ببعضها من غير شرط ، وبالبعض الاخر مع الشرط، وغاية الامر يحرم انكاره ؛ وبديهة ان حرمة الانكار اعم من وجوب التدين، وجواز الوقوف على الحياد بلا انكار ولا اقرار .

وعلى اية حال ، سنتحدث فيما يلي عن كل واحد من هذه الانواع الثلاثة في فقرة على حدة .

١ - ما يجب التدين به من غير شرط:

الاصول الاولى التي يبنى عليها الاسلام ، وعنها تتفرع سائر الاصول ، وكل الفروع، وتجب مطلقا وبلا شرط العلم بها هي التوحيد، ونبوة محمد (ص) والمعاد روحا وجسما .

اما الامامة: فقال الخوارج: ما هي من اصول الدين ولا من فروعه في شيء على ما نسب اليهم - وقال السنة : هي من الفروع، لا من الاصول ، وان وجوبها كفاية لا عينا، اذا قام به البعض سقط وجوبها عن الكل.. ولا ادري كيف يجتمع قول السنة هذا مع قول من قال منهم بكفر الشيعة لانهم ينكرون خلافة الشيخين.(١) وهل انكار الفرع يستدعي الكفر حتى ولو كان من ضرورات المذهب، لا من ضرورات الدين ؟ .

واتفق الشيعة على ان الامامة اصل، واختلفوا فيما بينهم : هل هي

(١) انظر: آخر الصواعق المحرقة لابن حجر.

من اصول الدين، اومن اصول المذهب وضروراته ، وان الاعمال تصح بدونها ، ويسقط التكليف عن منكرها اذا قام بما عليه من عبادات ، ولكنه لا يستحق الثواب من اجلها ـ كما عليه جماعة ـ ونحن نعتقد بانه لا يسوغ لغير المعصوم ان يتحدث عن ثواب الاخرة وعذابها الامع النص القاطع سندا ومتنا. . اللهم الا رجاء الترغيب والترهيب.. وعلى اية حال، فان لحديث الامامة والولاية العديد من الشعب ، ويأتي الكلام عن الكثير منها .

وبعد ان ذكر الشيخ الانصاري بعض الروايات ،عن اهل البيت (ع) كدليل على ان الاصول الاولى للاسلام هي التوحيد والنبوة والامامة ـ قال : «تدل هذه الروايات على عدم اعتبار ما زاد.. وهذا هو الظاهر من جماعة من علمائنا الاخيار» وعلق الاشتياني على ذلك بقوله : «لا أشكال في عدم اعتبار الزائد عما ذكره في الايمان» .

وتسأل: لقد ثبت في الحديث: من قال: لا اله الا الله محمد رسول الله دخل الجنة. وأذن، فمن اين جاءت الزيادة على الاقرار بالشهادتين ؟

الجواب: اولا لقد كان هذا عند بدء الاسلام وظهوره، قال الامام الباقر (ع) بعث الله محمداً (ص) وهو بمكة عشر سنين ، ولا احد في هذه المدة يشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله الا ادخله الله الجنة .

(ملاحظة) اقام النبي بمكة ١٣ سنة بعد البعثة، ولعل مراد الامام (ع) انه في السنوات الثلاث الاخيرة كان لا يطلب من المسلم اكثر من الاقرار بالشهادتين او ان الناقل سهى عن كلمة ثلاث .

ثانياً: ان المراد بدخول الجنة ان من اقر بالشهادتين لا يخلد في النار ،

بل يعذب بقدر ما يستحق ـ ان كان قد اذنب ـ ثم يدخل الجنة .

ثالثاً: ان الاقرار بالشهادتين يتضمن الاقرار بكل ما جاء به محمد (ص) ولو على سبيل الاجمال .

رابعاً: لا قائل من المسلمين بان مجرد الاقرار كاف في الاسلام حتى مع انكار البعث .

٢ ـ ما يجب التدين به على شرط:

لكل اصل من الاصول الاولى شعب تتفرع عليه، فمن الشعب او المسائل التي فرعها العلماء، على اصل التوحيد رؤية الله تعالى ، وهل : هي ممكنة بذاتها او ممتنعة ومسألة صفاته تعالى، وهل: هي عين ذاته، او غيرها . وهل : افعال العباد مخلوقة لله. وهل: اللوح المحفوظ هو لوح كاسمه ، او هو كناية عن علمه تعالى. وهل: لله ان يعفو عن المسيىء بعد التهديد والوعيد وهل القرآن حادث، او قديم؟. وهل نزل الوحي نجوماً، او دفعة واحدة؟.. الخ .

وفرعوا على نبوة محمد (ص) انه هل: كان يعلم الغيب؟ وهل : فوض الله اليه امر التشريع ؟. وهل: اسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى بالجسد، او بالروح ؟ الخ.

وفرعوا على الامامة هل : الائمة المعصومون افضل ، او انبياء ما عدا محمداً . وهل كانت الملائكة تحدثهم . وهل فاطمة افضل، ام مريم بنت عمران ! . الخ .

وفرعوا على المعاد اشياء واشياء ،كالبرزخ ، وحساب القبر ، وحشر الحيوانات، وكيفية النفخ في الصور، ودقة الصراط وحدته، وكيفية نشر الصحف

وشجرة طوبى والزقوم، وتعذيب ابن الزنا واطفال الكفار... الخ .

كل هذه الشعب ونحوها لا يجب تحصيل العلم من اجل الايمان بها ، وان كانت من اصول الدين او شئونها؛ بل اذا اتفق وحصل العلم بها وجب الاذعان والافلا، على العكس من الاصول الاولى التي يجب تحصيل العلم للتدين بها والايمان .

والخلاصة ان الاعتقاد بالتوحيد، ونبوة محمد(ص) والمعاد الجسماني وامامة الائمة الاثنى عشر- على قول الشيعة- يجب مطلقاً ومن غير قيد ، والعلم شرط لوجود هذا الاعتقاد، لا لوجوبه ، وما عدا ذلك فالعلم لوجوبه لا لوجوده، وعلى من جهل ان يحجم عن القول بغير علم نفيا واثباتا ،قال الامام الصادق (ع)»لو أن العباد اذا جهلوا وقفوا ولم يجحدوا لم يكفروا «.

وتسأل :ان الاعتقاد من صفات القلب، لا ارادة فيه للانسان ، ولا خيار ، وعليه يكون التكليف به تكليفا بما لا يطاق ،فكيف تعلق الامر به .

الجواب : اجل؛ ان الاعتقاد والايمان من حيث هو فوق القدرة والاستطاعة ؛ سواء أتعلق بوجود الله ، ام بغيره ، ولكن الانسان يستطيعه ويقدر عليه من حيث مقدماته وايجاد اسبابه ، وايضاً يقدر عليه من حيث اظهاره وآثاره ، والايمان مطلوب بهذين الاعتبارين ، فمعنى آمنوا بالله ورسوله اطيعوا الله ورسوله ؛ ومعنى لا تكفروا لا ترتبوا آثار الكفر في قول او فعل ، ومن كان في شك فليبحث وينظر الى حجج الله وبيناته التي تؤدي بطبعها الى الايمان والاعتقاد .

سؤال ثان اوحى به الجواب عن السؤال السابق ، و هو: لقد علمنا ان

للايمان بالله ورسوله واليوم الاخر ـ اعظم الاثر ، حيث يبعثنا على التقوى والعمل الصالح ، اما الايمان بان الله لا يرى بالبصر، وان القرآن حادث ؛ وان لنا اماما مستورا ،اما هذا الايمان ونحوه فلا اثر له يحس ويلمس..ان المهم هو طاعة الله ، لا جواز رؤيته ، او عدم جوازها؛ وايضا المهم العمل بالقرآن ، لا الايمان بحدوثه ، او قدمه ، والانتفاع بالامام ، لا مجرد الاعتقاد بوجوده؟ .

الجواب : ان الحق احق ان يقال ، والاعتراف به فضيلة للمعترف وتعظيم وتكريم للحق واهله ، وانكاره قبيح في نظر العقلاء واي اثر اظهر من ذلك واوضح ؟ .،

ان قول الحق حسن بذاته ، حتى ولو لم ينتفع به القائل والمعترف، و الاجاز ان نتجاهل الانبياء والعظماء الاموات منهم والاحياء الامع المنفعة، وان نترك الشهادة بالحق الا اذا جرت الينا نفعا ، او دفعت عناضرا ، مع ان العكس هو الصحيح .. ولو اخذنا بمبدأ المنفعة بالشهادة لانسد باب القضاء وعمت الفوضى ، وضاعت الحقوق على اهلها . . ودفعا لهذه المفاسد و غيرها يجب علينا ان نقر بالحق، ونعلنه اينما كان و يكون، ولا يجوز جحوده و انكاره بحال ، ومن ذلك الاعتراف: بان الله لا يرى ، و بحدوث القرآن ، ووجود الامام المستور .. على ان الايمان بوجود هذا الامام ليس باعجب واغرب من الايمان بنبوة نوح وهود وصالح ؛ وغيرهم من الانبياء الذين عفى الدهر على آثارهم ، واكل وشرب ، ويأتي الحديث عن ذلك انشاء الله .

وبعد ؛ فان للحق بماهو حق قدسيته وجلاله ، ومن تنكر له فى اى مورد من موارده صغر مكانه من نفسه ؛ واجترأ عليه اينما كان ويكون، و فى ذلك ضلال وفساد عظيم .

٣- ما يحرم انكاره فقط:

هذا النوع لا صلة له باصول الدين ولا بفروعه ، ولا هو من الاخلاق، او- الامر بالمعروف ، ولا يسأل عنه الانسان غدا ، ويحاسب على الجهل به ، لانه مجرد اخبار عن موضوع خارجى ، كالاخبار عن عمر الارض واصلها، وطولها وعرضها ، ومافوقها وماتحتها ، وعدد من عاش عليها من قبل ومن بعد ، واذا لم يكن هذا النوع من الدين فى شيىء فكيف يجب التدين به؟ ، اجل ، اذا اخبر المعصوم عنه حرم الرد عليه والاعتراض ، لانه تكذيب له ، وليس من شك ان تكذيب اهل العصمة كفر والحاد .

طريق المعرفة الى اصول الدين:

قال الرسول الاعظم (ص): «اصل دينى العقل » وقال الامام الصادق (ع) :من كان عاقلا كان له دين،وقال كبير من علماءِ الامامية ، وهو المحقق القمى : العقل حجة الله على عباده .. ولا نعرف دينا اشاد بالعقل والعلم كما اشاد بهما الاسلام ، فلقد تتبع بعض العلماء آى الذكر الحكيم ، فوجد فيها لكلمة العقل ومشتقاتها ومترادفاتها ٨٠ كلمة،ولكلمة العلم كذلك ٨٨٠... وليس معنى هذا ان العقل يدرك ويستقل بمعرفة الاسلام عقيدة وشريعة ، ولا يفوته شيىء من اصوله وفروعه،والا كان وجود الاسلام تحصيلا للحاصل، وتوضيحا للواضح ، بل معناه ان الاسلام والعقل على وفاق تام فى جميع

مبادئه وكلياته وجزئياته ، ولايتنكر لشيىء منهاعلى الاطلاق .

اجل ، ان العقل يدلنا بمعونة الحواس على وجود الله تعالى ،حيث لاطريق الى معرفة الله سوى ذلك ؛ والادار او تسلسل على حد التعبير المشهور ، وسبق الكلام عن ذلك فى فصل اثبات الخالق . وايضا العقل وحده يستقل فى اثبات فكرة النبوة من حيث هى ، وانه لامحالة من ان يكون لله انبياء ورسل الى خلقه ،كماتقدم فى فصل النبوة ، اما الطريق الى معرفة النبى وتعيينه باسمه وشخصه كمحمد وعيسى وموسى فهو العقل، ولكن بضميمة النظر الى المعجزة وظهورها على يده بالذات ، وتحدثنا عن ذلك فى فصل محمد والقرآن . وايضا يحكم العقل بامكان المعاد ، والحساب والجزاء بعد الموت ، اماوجوب الوقوع فيؤخذ من النقل ؛بل و ومن العقل ايضا ؛ ولكن بلحاظ العدالة الالهيه ، لان ترك الظالم دون ان يقتص منه للمظلوم هو الظلم بعينه ، ويأتى البيان فى فلسفة المعاد انشاءالله، اماالامامة فهى تماما كالنبوة ، و الفرق ان تعيين النبى بشخصه يكون بالمعجزة ، وتعيين الامام يكون بالنص من الله ، اوالمعصوم .

هذا بالنسبة الى اصول الدين الاساسية التى اشرنا اليها فى الفقرة الاولى ، والتى يجب التدين بهامطلقا وعلى كل حال ، واماالشعب التى اشرنا الى بعضهافى الفقرة الثانية ، ولايجب التدين بهاالابعد العلم ، اما هذه فيثبت بعضهابالعقل كامتناع رؤية الله ، وكون الانسان مسيرا،لامخيرا، وكعصمة الانبياء ، وبعضها الاخر يثبت بالضرورة الدينية اوالمذهبية نصا كان سببها اماجماعا اماى شيى ؟ . ولكن التمييز بين ماهوضرورى وغير

ضروری صعب مستصعب. قال صاحب القوانين : اختلف العلماء في ضرورات الدين ، يحكم احدهم بان هذا الشيء من ضرورات الدين، ويحكم الاخر بان عدمه من ضرورات الدين .

وايضا يثبت بعض الاصول بالنقل ، شريطة ان يكون قطعي السند و الدلالة كبعض آيات القرآن الكريم ، وبعض الاخبار المتواترة و الخبر المحفوف بالقرينة القطعية على صدوره من المعصوم ، على ان يكون قطعي الدلالة ايضا .

وتسأل. لقد ثبت بالدليل القاطع ان الظن الذى يستند الى ظواهر الكتاب والسنة ،والى الخبر الواحد هو حجة تماما كالعلم ، وبناء على هذا يجوز لنا ان نثبت الاصول والعقائد بالخبر الواحد وان كان ظني السند ،و بظواهر الكتاب والسنة المتواترة ، وان كانت ظنية الدلالة ، وشرط القطع سنداً ودلالة لادليل عليه ، بل قام الدليل على عدمه .

الجواب : ايضا ثبت بالدليل القاطع ان التدين يجب ان يعتمد على العلم واليقين ، ولا يجوز التعويل فيها على الظن ايا كان مصدره . قال الشيخ الانصارى في الرسائل :

« ظاهر كلمات كثير من العلماء انه لا يجوز العمل بظواهر الكتاب والخبر المتواتر في اصول الدين ؛ ولعل الوجه في ذلك ان وجوب التدين بهذه الاصول انما هو من آثار العلم » . وقال الاشتياني : «ان اكثر الايات و الاخبار الامرة بالعمل بالعلم ، الناهية عن الظن تختص باصول الدين » ومثله في بعض الكتب المعتبرة .

وعليه يجب ان نخصص الدليل على جواز العمل بالظن الخاص ، و هو الناشيء من الخبر الواحد ، و بعض الايات و السنة المتواترة ، ان نخصص هذا الدليل بالمسائل الفرعية العمليه دون اصول الدين العقائدية

التقليد في اصول الدين:

قال اكثر العلماء : لايجوز التقليد في اصول الدين . وقال اهل التحقيق : يجوز . ومن هؤلاء الاردبيلي والانصاري والمحقق الطوسي ، ونحن معهم ، سواء اكان المقلد قادرا على تحصيل المعرفة ، ام عاجزا عنها، لان المطلوب الاول هو التدين والاعتقاد الجازم بالواقع على ماهو عليه من اي طريق سلكت اليه ، والمعرفة بالدليل وسيلة ، لاغاية ،ووجوبها مقدمة لوجود غيرها ، ومتى وجد ذو المقدمة سقط بطبيعة الحال وجوب المقدمة .

هذا ، الى ان سيرة العلماء منذ القديم ـ ومنهم القائلون بعدم جواز التقليد ـ قائمة على معاملة المقلدين في اصول الدين معاملة المسلمين، بل وعدالة من اتقى وعمل صالحا . وقد اشبعنا هذا الموضوع بحثا و تفصيلا في المجلد الاول من التفسير الكاشف عند تفسير الاية ١٧٠ من البقرة ، فقرة التقليد واصول الدين ، و ذكرنا للمقلد ٦ اقسام، و قلنا في آخر البحث مايلي :

« ان العبرة في اصول العقائد هي الايمان الصحيح المطابق للواقع، ومن اجل هذا قبل النبي (ص) اسلام كل من آمن به ، وما طلب الاجتهاد منه واستعمال النظر.. اما الايات التي وردت في ذم اتباع الاباء فان سياقها يدل

على ان المراد منها التقليد في الباطل والضلال ، لا في الحق والهداية، و تتجلى هذه الحقيقة لكل من امعن الفكر في قوله تعالى: « اولو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم » . وقوله: «واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا» . وقوله: « اولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » . فان المفهوم من هذه الايات ان آباءهم اذا كانوا على الهدى الذى نزل على الرسول جاز اتباعهم ، لان المطلوب هو اتباع ما انزل الله ، فاذا اتبعوه فقد امتثلوا واطاعوا ، و لا يسألون بعد الطاعة عن شيء» .

الشاك في اصول الدين:

من شك في دين آبائه واجداده فلا يخلو ان يكون واحدا من ثلاثة

١ ـ ان يعجز عن البحث والسؤال ، كما لو عاش في الصحراء ، او بلد ناء عن الاسلام والمسلمين ، واهله لا يهتمون الا بالدنيا و اشيائها ، و ليس من شك ان هذا معذور من حيث الحساب والعقاب ؛ ولا فرق في ذلك بين ان يكون ابواه مسلمين ، ام كافرين . وفي رسائل الانصارى عن الشيخ الطوسى انه قال : « العاجز عن تحصيل العلم بمنزلة البهائم» .. ولكن لا نرتب عليه آثار الاسلام اذا لم يقر باصول الدين ، و يظهر النطق بالشهادتين .

٢ ـ ان يقدر على السؤال والبحث ، وتتهيأ له اسباب المعرفة ، وهذا يجب عليه ان يبحث ؛ ويبذل الجهد لتحصيل المعرفة حتى يشعر بالعجز ،

و عندئذ يعمل بماتوصل اليه من العلم ، فان كان محقا فذاك ، و الا فهو معذور .

وان اهمل البحث ولم يكترث ، ومع هذا لم ينطق بالشهادتين فهو كافر ظاهرا وواقعا . قيل للامام الصادق (ع) : ماتقول فيمن شك بالله ! قال : كافر . قيل فشك في رسول الله (ص) ؟ . قال : كافر .

٣ ـ قد رعلى اسباب المعرفة ؛ ولكنه اهمل ولم يبحث ، ومع هذا اقر باصول الاسلام و اعلن الشهادتين ، و هذا يعامل في الدنيا معاملة المسلمين ، وفي الاخرة حكمه الى الله ، ونقل لنا عن الامام (ع) انه قال : « لوان الناس اذا جهلوا وقفوا ولم يجحد والم يكفروا » . وقال الشيخ الانصاري : « تدل هذه الرواية بظاهرها ان المقر ظاهرا الشاك باطنا الغير مظهر لشكه ـ غير كافر » .

الغافل و اصول الدين :

اكثر الناس ينشأون على دين الاباء والاجداد ، ويطمئنون اليه ؛ ولا يشكون فيه على الاطلاق ، ويعتقدون انه الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وان كل ماعداه هراء وضلال ، ولا يختص هذا بالعوام ـ كما يظن ـ بل عليه العديد من العلماء واصحاب الكتب والمؤلفات .. و منهم من يقول ايضا بحرمة التقليد في اصول الدين ، ووجوب البحث والنظر لمعرفتها والعلم بادلتها .

وليس من شك ان الغافل الذاهل غير مكلف ولا مسؤل عما غفل عنه وذهل حتى ولو كان المحقق الاول ، لان التكليف مع الغفلة تكليف بغير

المقدور ؛ وقداطال المحقق القمى الكلام عن ذلك فى كتاب القوانين ، ونذكر من اقواله بعض المقتطفات مع التصرف فى الاسلوب فقط بقصد التوضيح والتيسير على الافهام ؛ قال عليه الرحمة والرضوان :

ان الله عادل وحكيم ورؤف رحيم ؛ وعليه اذا افترض ان انسانا نشأ منذ طفولته على دين الاباء والاجداد ، واستمر على ذلك حتى الموت دون ان يلتفت الى ان التقليد يصرف عن الحق ؛ ولا خطر له هذا على بال؛ اذا كان الامر على ذلك فبأية وسيلة يتحرر من التقليد ؟ ..ان التحرر من هذا التقليد صعب وعسير حتى العلماء المرتاضين الذين يحسبون انهم خلعوا من اعناقهم اغلال التبعية والمحاكاة .. كيف والمفروض انهم لا يحتملون الخطأ بحال ؟ .وأى انسان بلغ به الامر الى هذا الحد فهو بحكم البهائم والمجانين.. ابدا . لا يتجه اليه امر ولا نهى ، ولا حساب ولا عتاب ؛ سواء أكان مسلما ؛ام غير مسلم .

واليك عبارة القمى بحروفها لتكون على يقين مما اراد : «هذا الكلام لا يتفاوت فيه الحال بين الموافق والمخالف ؛ والمسلم والكافر على ما تقتضيه قواعد العدليه .. والقول بتعذيب الكفار والمخالفين دون المسلمين خروج عن العدل ـ الى ان قال ـ : وان كان اطمئنان الغافل من جهة حسن ظنه بابيه وامه من غير فرق بين ما صادف الواقع وعدمه فى عدم العقاب» ويشهد لقول هذا المحقق)العقل الحاكم الجازم بان الله لا يكلف نفسا الا وسعها. وايضا يشهد له النقل؛ وهو قوله تعالى: « و من يشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت

مصيرا ـ ١١٥ النساء » و معنى هـذا ان من اتبع سبيل الكافرين و الضالين عن جهل وقصور فان الله سبحانه لا يوليه ما تولى اى لا يكله الى من اعتمد عليه ؛ و اخذ منه الكفر والضلال ؛ ولا يصليه نار جهنم و بئس المصير .

ثم قدم صاحب القوانين هذا المثال او هذا السؤال : ما قولك و حكمك فيمن نشأ بين قوم يكرهون الشيعة بالغ الكره واشده؛ ولا يسمع من علمائه ورؤساء دينه الا تكفيرهم ، والاحاديث الموضوعة ، وتكذيب او تأويل كل حديث اخذ به الشيعة بما يتفق مع اهواء خصومهم واعدائهم ! . ما ظنك بمن نشأ على ذلك، ولم يحتمل ان الحق على غير ما سمع. وما هو المبرر لحسابه وعذابه؟ (انظر المجلد الثانى من القوانين من صفحة ١٦٦ الى صفحة ١٧٣ طبعة عبد الرحيم) وابلغ حجة قيلت فى هذا الباب ما روى عن الامام الصادق (ع): «ان امر الله كله عجيب الا انه قد احتج عليكم بما قد عرفكم من نفسه». وعلى هذا يقع الوزر على السبب الاول الذى اضل الناس عن الحق و اهله وسن بغض الشيعة لا لشيء الا لانهم يقدمون اهل بيت النبى (ص) على غيرهم عملا بآيات الله واحاديث رسول الله .

وتسأل: هل يسقط التكليف بالواقع من الاساس بالنسبة الى الذاهل عن اصول العقائد، او ان التكليف بالواقع ثابت لا ريب فيه ، ولكنه لم يصل الى مرحلة التنجيز التى يجب ان يتبعها العمل والامتثال بلا فاصل ، كما هى الحال بالنسبة الى الغافل عن الصلاة ـ مثلا ـ واستمرت غفلته حتى مضى الوقت.

الجواب : فرق بين اصول الدين وفروعه ، لان التكليف فى الاولى يتعلق بالايمان والاعتقاد، لا بالافعال ، وفى الثانية يتعلق التكليف بالافعال

كالصلاة ونحوها ، وليس من شك ان الافعال يمكن قضاء واستدراك مافات منها كمافات، وعليه يصح التكليف بها من حيث هي، وبصرف النظر عما يعرض للمكلف من الموانع والطوارى عن الامتثال والطاعة ، فاذا عرض له مانع من غير تقصير كان معذوراً، ومتى زال المانع وجب القضاء والاستدراك ، اما الايمان والاعتقاد فلا نتصور بحال القضاء فيه ، وبالاولى ان لا نتصور قضاء مقدماته التى تؤدى الى تحصيله..ومن الذى يقدر على ايجاد الفرع مع العجز عن الاصل كما هو الفرض؟ وبكلمة ان للفرع بدلا، ولذا وجب انشاء أعلى الاطلاق وتنجيزاً مع الالتفات، اما الاصل فلا بدل له ، واذن ، فاية جدوى من انشاءِ وجوبه حين الغفلة ؟ .

سؤال ثان: اذا كان غير المسلم معذوراً عند الله مع الغفلة والذهول فلماذا لا نعذره نحن كما عذره الله سبحانه، ولا نعامله معاملة غير الكافر. لماذا نحكم بنجاسته ونحرمه من الارث والمناكحة، ونحو ذلك من الاحكام التى تجرى على المسلمين. وهل يجب ان نكون ربانيين اكثر من العدالة الربانية !

الجواب : ان الفرق بين احكام الدنيا ، واحكام الاخرة تماماً كالفرق بين الدنيا والاخرة ، ان الاحكام فى حياتنا تتبع الاسماء ، وان الاثار تلحق الظاهر ،لا الواقع، فمن قال : لا اله الا الله محمد رسول اخذنا بظاهره ، اما فى الاخرة فلا اسماء ولا ظواهر .. ابداً لا شيىء الا الواقع .. ومن اجل هذا قد نعامل واحداً من الناس معاملة المسلم؛ وماله فى الاخرة الا النار والخسران وقد نعامل آخر معاملة الكافر، وهو من عذاب الاخرة فى أمن وأمان .وبكلام آخر كل من نطق بالشهادتين فله ما للمسلمين، وعليه ما عليهم كائنا من كان فى حقيقته وواقعه ، ومن لم ينطق بهما فحكمه غير حكم المسلم فى الحياة الدنيا .

من هم اهل البيت؟

ليس الغرض من هذا الفصل ان نبين مكانة اهل البيت وعظمتهم عند الله سبحانه، بل غرضنا اولا وبالذات أن نعرف من هم المقصودون بهذه الكلمة ؟ والذى انتهينا اليه بعد التتبع والتأمل ان المقصودين عرفاً بكلمة اهل بيت النبى (ص) هم اسرته وعشيرته الاقربون، فلقد دئب الناس منذ القديم والى يومهم هذا ان يستعملوا كلمة اهل البيت فى هذا المعنى . . اجل ، ان الائمة الاطهار اشهر واكمل المصاديق. اما المقصودون شرعا من هذه الكلمة فهم فاطمة والائمة الاطهار ؛ ودليلنا على ذلك آية التطهير ٣٣ الاحزاب، وحديث الثقلين؛ اما آية التطهير فانها تعنى عليا وفاطمة والحسن والحسين بدليل آية المباهلة ٦١ آل عمران، واغرب ماقرأت فى التناقضات أن بعض السنة يقولون: ان المراد من «نساءِنا» فاطمة لا ازواج النبى (ص) وفى الوقت نفسه يقولون: آية التطهير ٣٣ من الاحزاب نزلت فى نساءِ النبى.. فاين وجه الجمع نستدل بهذا، وبما جاء فى سبب نزول آية التطهير فى كتب الحديث والمناقب والتفسير، وهو انها قد نزلت فى على وفاطمة والحسن والحسين.

ومن كتب الحديث التى اثبتت ذلك صحيح مسلم والترمذى، ومستدرك الصحيحين، ومسند احمد؛ وخصائص النسائى، والرياض النضرة، وكنز العمال، ومسند ابى داود؛ والاستيعاب، واسد الغابة؛ ومشكل الاثار، ومجمع الزوائد،

ذكر هذه الكتب الفيروز آبادى فى كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة .
واما كتب التفاسير فمنها الدر المنثور للسيوطى عند تفسيره «وأمر اهلك بالصلاة» وتفسير الطبرى والاندلسى والحافظ وغيرهم كثير حتى ابن تيمية فى كتاب المنتقى .

وقال: صاحب المنار عند تفسير قوله تعالى: «ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين ـ ٨٦ الانعام» . قال مانصه بالحرف الواحد : «اقول فى الباب حديث ابى بكرة عند البخارى مرفوعا : ان ابنى هذا سيد يعنى الحسن ولفظ ابنى لايجرى عند العرب على اولاد البنات، وحديث عمر فى كتاب معرفة الصحابة لابى نعيم مرفوعا: وكل ولد آدم فان عصبتهم لابيهم خلا اولاد فاطمة فانى انا ابوهم وعصبتهم. وقد جرى الناس على هذا، فيقولون فى اولاد فاطمة اولاد رسول الله (ص) وابناؤه وعترته واهل بيته» .

ومعنى هذا القول من صاحب المنار ان ولد فاطمة ليسوا ابناء رسول الله لغة، ولكنهم ابناؤه شرعاً لقوله (ص): «انا ابوهم وعصبتهم» : وايضاهم ابناء رسول الله عرفا لان طريقة الناس جرت على القول : ان اولاد فاطمة هم اولاد رسول الله وابناؤه وعترته واهل بيته .

هذا هو المراد بكلمة اهل البيت فى آية التطهير، اما المقصودون بها فى حديث الثقلين فهم ـ على مافهمناه من المساواة بينهم وبين القرآن فى وجوب التمسك ـ فاطمة والائمة الاثنا عشر الذين اشار اليهم النبى (ص) بقوله: «ان هذا الامر لاينقضى حتى يمضى فيهم اثنا عشر خليفة ، كلهم من قريش» .

رواه مسلم فی صحیحه کتاب الامارة ، والترمذی ج ۲ ص ۳۵ طبعة ۱۲۹۲ه، والبخاری کتاب الاحکام، ومستدرك الصحیحین ج۴ص ۵۰۱ طبعة ۱۳۲۴ه، ومسند احمد ج۵ ص ۸۶طبعة ۱۳۱۳ه ،وکنز العمال ج۶ص ۲۰۱ طبعة۱۳۱۲ه، کما فی کتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة .

هذا حدیث الائمه ۱۲،اما حدیث الثقلین فقد جاء فی صحیح مسلم کتاب فضائل الصحابة باب فضائل علی بن ابی طالب ،وفی الترمذی ج ۲ص۳۰۸ ومستدرك الصحیحین ج ۳ ص ۱۰۹ ، ومسند احمد ج۳ ص ۱۷ ؛ وحلیة الاولیاء ج ۹ ص ۶۴طبعة ۱۳۵۱ه؛وکنز العمال ج۱ص۹۶،ومجمع الزوائد للهیتمی ج ۹ ص ۱۶۴ طبعة۱۳۵۲ ه ، والصواعق المحرقة ص ۷۵ طبعة ۱۳۱۲ ه ایضاکما فی کتاب فضائل الخمسة .

وبهذا یتبین معنا ان السنة والشیعة متفقون علی ان الخلافة لابد منها ، وانها فی قریش دون غیرهم، وان عدد الائمة اثنا عشر اماما ، ولکن السنة یختلفون مع الشیعة فی امرین: الاول فی حصر الخلافة بالهاشمیین ، وبصورة اخص بعلی وبنیه،الامر الثانی فی تعیین الائمة الاثنی عشر باسمائهم وانسابهم وعلی هذا تکون فکرة الائمة الاثنی عشر من حیث هی اسلامیة، لاسنیة فقط ولاشیعیة فقط وانما الخلاف فی التطبیق .

اما السبب لتسمیة الفرقة الاثنی عشریة بهذا الاسم مع ان السنة یؤمنون بالائمة الاثنی عشر فهو ان هذه الفرقة قد اجمعت علی تعیین الـ۱۲ باسمائهم و اعیانهم،واختلف السنة فی ذلك،فمنهم من قال:الـ۱۲ لم یخلقوا بعد وسیخلقون ویملکون بعد ظهور المهدی المنتظر ووفاته ، ومنهم من قال : ان المراد

بال١٢ اماما غير اصحاب الرسول لان حكم اصحابه يرتبط بحكمه..اذن كل الائمة الاثنى عشر من بنى امية ماعدا عثمان ومروان بن الحكم لانهما صحابيان وعليه يكون اول الائمة الذين عناهم النبى (ص): يزيد بن معاوية ، ثم ابنه معاوية، ثم عبد الملك بن مروان ،واولاده الاربعة: الوليد ،وسليمان ،ويزيد ، وهشام، ثم عمر بن العزيز ، والوليد بن يزيد ، ويزيد بن الوليد، واخوه ابراهيم ومروان الحمار، ومن السنة من قال : هم ابو بكر، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، ومعاوية، ويزيد بن معاوية ،وعبد الملك، واولاده الاربعة، وعمر بن عبد العزيز ومنهم من قال: المراد وجود ال١٢ اماماً مدة الاسلام حتى يوم القيامة ،وان لم تتوالى ايامهم (فتح البارى فى شرح صحيح البخارى للعسقلانى ج١٣ ص ١٨٣ ومابعدها طبعة سنة ١٣٠١هـ) .

وتسأل: لقد فهمنا ان الاثنى عشرية آمنوا بامامة على للنصوص التى دلت على امامته كتاباً وسنة، وفهمنا ايضاً انهم آمنوا بامامة الحسن والحسين لقول جدهم الرسول (ص): ولداى هذان امامان قاما ام قعدا . . اما ايمانهم بامامة التسعة من ذرية الحسين فلم نعرف له مصدراً ؟

الجواب: بعد ان ثبت النص على امامة على والحسن والحسين وعصمتهم ثبت عند الاثنى عشرية ايضا ان الحسين (ع) نص على ولده زين العابدين ، وهكذا نص الامام السابق على الامام اللاحق حتى الامام الثانى عشر ، وعليه ينتهى النص الى الرسول الاعظم (ص) بالنظر الى انه هو الذى نص على الائمة الاول .

هذا ما ثبت عند الشيعة الامامية عن نبيهم الكريم ، واذا سألنا أى عالم

من علماء السنة، وقلناله: هل يجوز لاحدان يخالف نصا يعتقد صدوره عن النبى لالشيىء الا لانه لم يثبت عند غيره؟ وانه هل يحرم العمل بالنص الا اذا ثبت عند جميع الفرق والطوائف ، اذا وجهنا اليه هذا السؤال اجاب بلا تردد : كلا، والف كلا.. واذن علام الطعن والانتقاد .

وقد روى السيد عفيفى فى كتابه «حياة الامام ابى حنيفة» روى عن السيوطى عن علماء السنة: ان النبى (ص) بشر بالامام مالك فى حديث : يوشك ان يضرب الناس اكباد الابل يطلبون العلم فلا يجدون اعلم من عالم بالمدينة . . وبشر بالامام الشافعى فى حديث : لاتسبوا قريشا فان عالمها يملا الارض علماً . . وبشر بالامام ابى حنيفة فى حديث لو كان العلم معلقاً عند الثريا لتناوله رجال من فارس . وجاء فى تفسير روح البيان ان نصف الثمانية المقصودين بقوله تعالى «ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية» هم ابو حنيفة ومالك والشافعى واحمد .

فهل يجوز للسنى ان يؤمن ويعتقد بان النبى نص على امامة المذاهب السنية ؛ وان الله سبحانه نص على انهم من حملة العرش يوم القيامة ؛ هل يجوز هذا للسنى ؛ ولا يجوز للشيعى ان يعتقد بامامة الائمة الاطهار ؟ و ان النبى (ص) نص على بعضهم مباشرة ؛ وعلى البعض الاخر بالواسطة ؟ .

وخير مانختم به هذا الفصل قول ابى حيان الاندلسى فى تفسيره البحر المحيط عند قوله تعالى : «ان الذين آمنوا و عملوا الصالحات سيجعل الرحمن لهم ودا ـ ٩٦ مريم» . قال الاندلسى : «ذكر النقاش ان هذه الاية نزلت فى على بن ابى طالب .. و من غريب الكلام ما انشدنا الامام

اللغوى رضاالدين ابوعبدالله محمدبن على الانصارى لزبينـا ابن اسحـق النصرانى الرسغى » :

عدى و تيم لا احاول ذكرهـم بسوء و لكنى محب لهاشم

و ما تعترينى فى على و رهطه اذا ذكروا فـى الله لومة لائـم

يقولون ما بال النصارى تحبهم؟ واهل النهى من اعرب واعاجم؟

فقلت لهم انى لاحسب حبهـم سرى فى قلوب الخلق حتى البهائم

الولاية علم

الولاية موضوع دينى ، ذكرها علماء الكلام فى باب العقائد بعنوان الامامة ، ولكنها تصلح بمباحثها الهامة لان تكون علما بذاته من علوم الدين، وتكاد تكون عند الامامية كذلك ، حيث وضعوا فيها العديد من الكتب ، منها المطول ؛ ومنها المختصر ، ومنها ما بين هذين.. والف بعض علماء السنة فى الامامة كالماوردى صاحب الاحكام السلطانية ، و ابن قتيبة صاحب الامامة والسياسة ، ولكن مؤلفاتهم فى هذا الموضوع تختلف عن كتب الامامية فى الكثير من مباحثها واهدافها ، بل بعض فصولها لا يمت الى الامامة بسبب .

وسواء أكانت الولاية علما مستقلا ، ام بابا من ابواب فانها تثير هذه التساؤلات :

ما هو معناها ؟ .وما هى اقسامها ؟ ولمن تجب ؟ .وهل هى من اصول الدين او من فروعه، اولا من هذه ولا تلك ؛ وانما هى من لوازم التقوى وشعار المخلصين .. وفيما يلى نحاول الاجابة عن هذه التساؤلات .

وفى رأينا انه لا ينبغى لاحد ان يكتب فى الولاية ، ويذيع كتابته على الملا الا بشكل يبشر ولا ينفر ، ويقرب ولا يبعد ، فان الخصم يتخذ من قول

الامامى ، اياكان ، حجة على جميع الامامية ،ووسيلة للطعن فى عقيدتهم.. حتى ولو كان القائل اوالكاتب غير معترف به عند علمائهم بالمعنى الدقيق للعلم والفضل ..

ان موضوع الولاية شائك للغاية ،وقل من يتنبه لحل المشكلات و اجوبتها السليمة ، ولقد قرأت لبعض المؤلفين اوالمتطفلين كتابا لايفرق فيه بين حديث الولاية،وحديث الفضائل ، فيستدل على امامة امير المؤمنين بحديث « من سب عليا فقد سبنى ، ومن سبنى فقد سب الله » مع العلم بان من سب مؤمنا لايمانه فقد سب الله اياكان هذا المؤمن .

ونحن لانشك فى ان بعض الذين كتبوا فى الامامة على تحصيل عال ،و علم واسع بالاصول والفقه.. ولكن الولاية شيىء ،والفقه واصوله شيىء آخر، ولاضير ابدا على الفقيه ان يقول : من انكر الولاية ، واقر بالشهادتين له فى هذه الدنيا ما للمسلمين ، وعليه ماعليهم ، ولكن هل يحق له ان يقول: تعتبر الولاية فى قبول العبادة ، والثواب عليها مع العلم بان الحديث عن الثواب والعقاب من البحوث الكلامية ، لامن المسائل الفقهية . بالاضافة الى ان الولاية على هذا لاتكون اصلا ولافرعا ، بل من لوازم التقوى ، و شعار المخلصين .

وسمعت مرجعا محترما يقول : واى مانع ان يكون هذا الشعار من اقسام الولاية ، وان لم يتصف بالاصل اوبالفرع ؟ .. اجل، لامانع من جهة العقل ، ولكن هذا الشعار لايتبادر من كلمة الولاية ، بل هو بعيد عنها كل البعد ، فكيف يكون من اقسامها ؟ .

معنى الولاية:

قد تستعمل كلمة الولاية ومشتقاتها في اكثر من معنى ، ولكن المقام الاول لهذه المادة هو السلطة والقيام بالامر، و هذا المعنى وحده هو الذى يتبادر الى الافهام عند الاطلاق ؛ وغيره يحتاج الى قرينة ؛ فاذا قيل: من يتولى امر هؤلاء القصر سبق الى التصور ؛ من يقوم بامرهم ؛ ويدير شئونهم؛ واذا قيل : هذا ولى العهد فهم منه انه يخلف الملك فى السلطة والقيام بالامر .

ولا لبس وغموض فى ذلك ، ولكن السنة ارادوا التخلص بكل وسيلة من نصوص الولاية على اهل البيت لا لشيىء الا حرصا على خلافة ابى بكر ومن بعده ؛ وصيانة لها من الطعن والفضيحة ، فحملوا نصوص الولاية على غير معناها الظاهر او الاظهر تمحلا وجزافا ، و لو نظروا الى الولاية بتجرد وصرف النظر عن خلافة ابى بكر لقالوا بمقالة الشيعة ؛ وما كان للخلاف بين الطائفتين عين ولا اثر ويأتى التوضيح والتفصيل .

اقسام الولاية:

تنقسم الولاية باعتبارات شتى الى اقسام ؛ فهى من حيث التشريع و والتكوين تنقسم الى تشريعية وتكوينية ، وهما لخالق الكون الذى يقول للشيىء: «كن فيكون» . ونسبة الخلق والتكوين الى غيره تعالى شرك لا يغتفر ، و اى تشريع خالف او يخالف كتاب الله ، وسنة نبيه فهو بدعة و ضلالة .

التفويض فى تشريع الاحكام:

وتسأل : اجل ؛ ان التشريع بيد الله تعالى ، ما فى ذلك ريب ؛ ولكن

يجوزان يفوض سبحانه و تعالى امر التشريع الى المعصوم ؛ ولوفى بعض المسائل بالنظر الى كماله فى جميع الصفات ؛ وانه مسدد ومؤيد من الله ، بل جاء فى بعض الروايات : ان الله سبحانه فرض الصلاة ركعتين ركعتين من غير فرق بين الصبح وغيرها ، فاضاف النبى (ص) الى كل من الظهر و العصر والعشاء ركعتين ؛ والى المغرب واحدة ؛ وايضا فى رواية اخرى: ان النبى (ص) سن اشياء كثيرة غير ذلك ؛ فاجاز الله تعالى كل ما اضاف وسن نبيه الكريم .

الجواب :

هذا جائز عقلا ؛ ولكنه لا يثبت شرعا الا بنص قطعى متناوسندا ؛ و لانعلم بثبوت هذا النص ، اما قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه و مانهاكم عنه فانتهوا ـ ٧ ـ الحشر» فالمراد به البلاغ عن الله ؛ لامن عند الرسول : « وما على الرسول الا البلاغ المبين ـ ٥٤ النور» . هذا ؛ الى ان رواية الاضافة الى الصلاة محل نظر .. فنحن لانتصور ان يفرض الله يسيرا على عباده ، والنبى (ص) يزيد عليه الزاما .. ثم ماهو القصد من جعل ـ المغرب ثلاثا والعشاء اربعا بعد ان كانا سواء فهل الغرض فتح باب الاعتراض للمشككين والمتحذلقين ؟ .

هذا اولا ، وثانيا قال تعالى : « ان الحكم الا الله يقص الحق وهو خير الفاصلين ـ ٥٧ الانعام» . وقال الامام الصادق (ع) : اما الحلال و الحرام فقد والله انزله على نبيه بكامله ؛ وما يزاد الامام فى حلال وحرام . وكل من الاية والرواية تتنافى بظاهرها مع رواية التفويض :

ثالثا : أية جدوى من الاعتقاد بان الله سبحانه فوض امر التشريع الى المعصوم مادام قوله وفعله وتقريره حجة على كل حال ؟ .

الولاية المحمدية لا التكوينية:

وتسأل : نحن نؤمن بان التكوين بشتى انواعه والوانه هو لله وحده، وان نسبة أى لون منه الى غيره شرك ، و لكن سمعنا عن قائل يقول : ان الله سبحانه خص بشكل او بآخر المعصومين بولاية التكوين على الاشياء وان فى قدرتهم ان يخضعوها لارادتهم ان شاءوا ، فتخضع لهم تماما كما تخضع لارادة خالقها وباريها ، وان كانوا لا يفعلون ذلك و لا يشاءون ،ولكن الله خصهم بهذا الفضل وهو بيده يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم . فما رأيك فى ذلك ؟

الجواب :

كل شيىء ممكن باذن الله حتى اطباق السماء على الارض بكلمة يقولها عبد من عباده تعالى ؟ ولكن العبرة بالوقوع لا بالامكان ،وبالاثبات لا بالثبوت.. وليس من شك ان طريق الاثبات هنا منحصر بالنص القطعى متنا وسندا ، فاين هو؟ وعلى فرض قيام هذا النص عند البعض فهو حجة عليه وحده ، لا على غيره ؛ لان وجوب الايمان بولاية التكوين ليس من ضرورات الدين ، ولا المذهب ؛ فالواجب على الامامى الاثنى عشرى ان يؤمن ويعتقد بان كل امام من الاول الى الثانى عشر معصوم عن الخطأ و ـ الخطيئة ، وانه يحيط علما بكتاب الله ، و سنة نبيه احاطة كاملة شاملة تماماً كعلم الله ورسوله، بهذين الاصلين ؛ وان الله سبحانه قد اصطفاه للامامة

من بين خلقه ليكون رئيسا وحجة عليهم كما اصطفى جده للنبوة؛ومازاد على ذلك فلايجب الاعتقاد به الاعلى من قام لديه الدليل القاطع متنا و سندا .

وبكلام آخر ان الولاية الثابتة للامام قطعا ، وبضرورة المذهب هي الولاية المحمدية ؛ وغيرها يفتقر الى دليل قطعي لايتطرق اليه الشك . ونعني بالولاية المحمدية ان كل حق ثبت لرسول الله (ص) على المسلمين فهو بذاته ثابت للامام المعصوم ؛ لانه الممثل الشرعي لرسول الله (ص) في جميع الشئون التي تقبل النيابة والتمثيل .

و كفى المعصوم عظمة ان يكون منزها عن كل مايشين ،وعالماً بدين الله كما نزل على خاتم النبيين ؛ وان يكون قوله وفعله و تقريره حجة و دليلا على الحق تماماً ككتاب الله وسنة رسول الله ؛وهو بهذه الصفات الجلى يحلق الى القمة التي لاشيىء فوقها الا خالق كل شيىء ؛ و هو الواحد القهار .

اما كيف احاط المعصوم علما بدين الله واسراره من الفه الى يائه؟وهل كان ذلك برواية معصوم عن آخر ؛ اوقذفاً في القلب ؛ اونقرا في السمع ، اوبدعاء مستجاب .. كل ذلك جائز عقلا وشرعا.. ولكن نحن لانعلم التعيين والتفصيل ، ولايجب علينا ان نبحث ؟ كيف؟ وبأى طريق ؟ وانما يجب علينا ان نعتقد بانه يعلم الدين بكامله ؛ وانه دليله وبرهانه .

وتسأل : هل المعصوم يعلم الغيب؟ .

الجواب : قال الله مخاطبا نبيه الكريم : «ومن اهل المدينة مردوا

على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم - ١٠١ البقرة » و قال النبى : « لوكنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير - ١٨٨ - الاعراف» وقال الامام : « ليس بعلم غيب - اى علمه - وانما هو تعلم من ذى علم.. علمه الله فعلمنيه » وقال علماء الشيعة مجمعين: كل خبر خالف كتاب الله يجب طرحه ؛ و قال بعض الناس: كلا ان الامام يعلم الغيب وان قال الله والرسول والامام والعلماء اجمعين لان هناك خبراً يقول: انه يعلم ماكان ومايكون الى يوم القيامة مع العلم بان هناك آيات واخباراً كثيرة تقول : لايعلم الغيب الاالله .. ثم ماهى الثمرة العملية التى تترتب على ذلك ؟.. انا لله وانا اليه راجعون .

وبعد ؛ فان الذى اعلناه من الاعتقاد بالمعصوم فى كتابنا هذا وغيره مماكتبنا واذعنا هو الخط الاساسى لمذهب الاثنى عشرية، وبه نقطع الطريق على الذين يختلقون الافتراءات والاكاذيب لمجرد الطعن والنيل من الموالين لال محمد(ص)

ولقد تتبعت ادلة الولاية ؛ وقرأت الكثير مما قاله الموالون وغير الموالين ، ودافعت عنها وكافحت بلسانى وقلمى ؛ ومازلت والى آخر يوم وماصعب على شيىء الا وقوفى فى وجه العدو؛ و هو يتسلح و يتشبث بقول من يقول : الامام يعلم ماكان ومايكون ؛ وانه لوشاء اسقط السماء على الارض؛ ورفع الارض الى السماء.. ولكن هذا اللون قليل : ولله الحمد ، ولا يمثل الا نفسه .

الولاية الطبيعية:

وايضاً تنقسم الولاية من حيث النواميس الطبيعية، والمبادىء الشرعية -

الى نوعين: طبيعية، وشرعية ، وافراد كل من النوعين لاتناقض افراد النوع الاخر، بل يستحيل وقوع التنافي بينهما، لان خالق الطبيعة هو واضع الشريعة الحقة بالذات.. والولاية الشرعية - بشتى اقسامها - تدخل في علم الفقه ، اما الولاية الطبيعية فهي اصطلاح من عندنا . ونريد به ان الناقص الفاقد لاية صفة من صفات الكمال يفتقر بطبعه ووضعه الى الكامل الواجد لتلك الصفة ، فممكن الوجود - مثلا - مفتقر الى واجب الوجود في اصل وجوده ، وفي بقائه واستمراره ، والعاجز عن تدبير شئونه كالصغير والمجنون مفتقر الى قوي امين يدبر هاله، والاعمى يحتاج الى بصير يقوده والمريض الى طبيب يعالجه، والجاهل الى عالم يهديه ويرشده .

وهكذا كل واجد لصفة هو ولي على من فقدها.. وعلى هذا الفاقد ان يسمع ويطيع للكامل الواجد بحكم العقل والعدل فيما يتصل بتلك الصفة ، ولكن على اساس مصلحة الفاقد لا مصلحة الواجد واستغلاله.. فما من سلطة في الارض ولا في السماء الا وهي مقيدة بالمصلحة او بعدم المفسدة - على الاقل - وأي قوي وواجد اذا خان وافسد وجب رفضه وابعاده كائنا من كان .

وقد يكون الاعمى استاذاً في العلم لقائده والمريض اماما في الدين لطبيبه ولكن قول البصير حجة على الاعمى في معرفة الطريق وقول الطبيب حجة على الامام في معرفة الدواء . . وايضا قول من لا يحتمل الخطأ في علمه حجة على المجتهد الذي يحتمل في علمه الخطأ وهذا حجة على غير المجتهد ولو تساوى اثنان في الصفات لم يكن للولاية من موضوع الا مع الارادة والرضا كانتخاب الحاكم والنائب واختيار الوكيل ونحوه ولو تولى بالقوة احد المتساويين شأناً

من شئون المساوى الاخر تكون التولية ظلما و عدواناوافحش الظلم ان الناقص على الكامل والجاهل يتسلط على العالم.

ولان هذه القاعدة ـ اى ولاية الواجد على الفاقد ـ ضرورة للحياة و نظامها فقد تبنتها وعملت بها جميع الشرائع قديمها وحديثها شرقيها وغربيها كما اعتبرت قول الامناء من اهل الخبرة والمعرفة حجة قاطعة فيما يعود الى مهنتهم واختصاصهم .

وبما ان محمداً (ص) هو امثل واكمل من كان ويكون فى جميع صفات الكمال والجلال تكون ولايته طبيعية عقلية كما هى سماوية الهية ومعنى ولاية النبى ـ كما نفهم ونعلم ـ ان له السلطة الدينية والزمنية على الخلق وان قوله وفعله وتقريره حجة ودليل على الحق والعدل ولا يختلف فى ذلك اثنان من المسلمين وانما الاختلاف بين السنة والشيعة فى ان الرسول الاعظم هل اوصى بهذه الولاية لاحد من بعده اوانه انتقل الى ربه دون ان ينص على من يخلفه فى هاتين السلطتين اواحداهما. وفيما يلى التفصيل :

هل أوصى النبى (ص) ؟ .

قال السنة ذهب النبى (ص) الى ربه دون ان يوصى بالخلافة لاحد من بعده وانه ترك امرها شورى بين المسلمين ورد الشيعة هذا القول بما يتلخص:

١ ـ ما لدليل على ان النبى (ص) أناط الخلافة من بعده بارادة المسلمين واختيارهم. وهل ادعى احد من السنة قديما اوحديثا بانه (ص) أناط الخلافة من بعده بارادة المسلمين واختيارهم. وهل ادعى احد من السنة قديما اوحديثا بانه (ص) نص على ان الخلافة شورى بين اهل الحل والعقد. والذى نعرفه

ان البعض منهم ادعى النص على خلافة ابى بكر بتقديمه للصلاة . . مع العلم بان هذا المدعى يجيز الصلاة خلف البر والفاجر ويؤمن ايضا بان اكثر الذين يصلحون للامامة فى الصلاة لا يصلحون للحكم والقيادة . وبالتالى كيف جاز للسنة ان ينسبوا هذه الشورى لنبى الرحمة وهم يعلمون بانه سكت عنها وعن الخلافة، ولم يشر اليها من قريب او بعيد.. ان سنة الرسول الاعظم (ص) عبارة عن قوله وفعله وتقريره فهل يعد سكوته عن شيء لم يحدث بعد؛ مع علمه بانه سيحدث لامحالة هل يعد هذا السكوت تقريراً منه لما سيكون على كل حال وكيف اتفق وبلاقيد اوشرط ؟

٢ ـ روى السنة عن النبى (ص) بانه كان يعلم تناحر امته من بعده على الحكم وانهم يفترقون على ثلاث وسبعين فرقة وان الكثير منهم يرتد عن دينه ، و ان الخلافة بعد ثلاثين تكون ملكا عضوضا ، فكيف ساغ بعد هذا كله ان يسكت عن الخلافة . وبالاصح كيف يصدق عاقل بانه (ص) سكت و وتجاهل امر امته، ولم ينص على امام يجمع شملها ، ويوحد كلمتها . ؟ وقد وصفه الله بقوله: «عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم ١٢٨ التوبة» وهل كان ابو بكر اكثر حرصا على مصالح الامة من الرسول ، واشد رأفة منه ورحمة بالمؤمنين حين اوصى لعمر بالخلافة؟ ولماذا استن ابو بكر هذه السنة التى مهدت السبيل ليزيد بن معاوية وامثال يزيد ان يتحكموا برقاب العباد، ويفسدوا فى البلاد؟.

هذا تلخيص سريع لقول السنة والرد عليهم .. وهناك سر عميق يكمن وراء موقف السنة من النص على الخلافة والخليفة ؛ وانكارهم او تأويلهم

له ، وهو التعصب الاعمى لخلافة ابى بكر، وصيانتها من النقد والطعن، ويأتى البيان والتوضيح فى الفصل الاتى .

وقد وضع الشيعة العديد من الكتب فى نصوص الخلافة و الولاية التى رواها السنة انفسهم فى صحاحهم وسننهم ، واكثرها او الكثير منها يدل بصراحة على ان على بن ابى طالب هو الذى يجب ان يخلف الرسول (ص) فى السلطة الدينية والزمنية ، وان الولاية المحمدية حق الهى مقدس للصفوة من اهل البيت ، وان طاعتهم واجبة ، ومناقشتهم محرمة .

وقد تناقل علماء الشيعة هذه النصوص جيلا عن جيل مدى مئات السنين ، واعادوا التاليف فيها مرات ، ومازالوا ، ومحصوها تمحيصا علميا ودقيقا ، فتثبتوا فى نقلها عن السنة ، واوضحوا دلالتها قبل ان يذيعوها على الملأ ويناظروا بها من انكر وعاند .. واتمنى لو اتيح لنصوص الولاية عالم منصف لاسنى ولاشيعى يبحثها بحثا موضوعيا ، ويصدر حكمه بما فهم منها وعلم، ومن الكتب التى تحتوى على هذه النصوص كتاب الشافى للمرتضى ، ودلائل الصدق للمظفر ، والغدير للامينى ، والمراجعات لشرف الدين ، وفضائل الخمسة من الصحاح الستة للفيروزآبادى و غيرها ، ولاجديد لدينا نعطفه على مافى هذه الكتب ، و اية جدوى فى النقل عنها مادامت فى متناول كل راغب وطالب ؟ . وعلى سبيل المثال نشير الى نصوص ثلاثة :

١ ـ بعد نزول الوحى على رسول الله (ص) امره تعالى ان يبدأ بدعوته اول مايبدأ بارحامه واقاربه ؛ وخاطبه بقوله : « وانذر عشيرتك الاقربين

ـ٢١٤ الشعراء » .

فلبى النبى (ص) واولم لعشيرته ، ودعاهم الى الاسلام ، وقال لهم فيما قال مشيرا الى على: «هذا اخى ووصيى وخليفتى فيكم، فاسمعوا له واطيعوا» انظر من الكتب القديمه للسنة الجزء الاول من مسند احمد والجزء الثانى من تاريخ الطبرى طبعة قديمة والجزء الثانى من الكامل لابن الاثير طبعة قديمه ايضا، ومن الكتب الجديدة حياة محمد، لمحمد حسين هيكل الطبعة الاولى وتاريخ الجمعيات لمحمد عبدالله عنان.

٢ ـ خطب النبى (ص) المسلمين يوم غدير خم ، و افتتح خطابه بقوله : الست اولى منكم بانفسكم؟ ، ثم قال: من كنت مولاه فعلى مولاه . والمتبادر الى الافهام من كلمة المولى هو الذى يتولى الامر ـ ويملك السلطة كما اسلفنا ـ ومع التسليم جدلا بان للمولى الف معنى ومعنى فان المقصود منه هنا خصوص الخلافة والولاية بدلالة « الست اولى الخ: وقرينة الايات والاحاديث الواردة فى حق على (ع) وامامته».

واثبت الامينى فى كتاب الغدير: ان هذا الحديث رواه ١١٠ من الصحابة ، و٨٤ من التابعين .

٣ ـ قال الرسول الاعظم : «انى قد تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدى : الثقلين واحدهما اكبر من الاخر كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض ، و عترتى اهل بيتى ، الا وانهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض» .

وهذا الحديث يرادف فى معناه معنى قوله تعالى : «وما آتاكم الرسول

فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب ـ ٧ الحشر».
لقد ساوت هذه الاية بين القرآن والرسول فى وجوب التمسك والاتباع، ومثلها تماما حديث الثقلين، ساوى بين القرآن والعترة، و المساويان لثالث متساويان، وعليه فاى حق ثبت للرسول فهو بعينه ثابت للعترة شريطة ان يقبل النقل والانتقال كالسلطة الدينية والزمنية، وفى فصل «من هم اهل البيت؟» اشرنا الى سند الحديث والمراد بالعترة.

وتسأل: ان خلافة الرسول (ص) منصب هام و خطير للغاية، لان صاحبه يجمع فيه بين السلطتين: الدينية، والزمنية، فينبغى، وهذى هى الحال، ان يكون النص عليه بالاسم لا بالوصف، وبالتصريح لا بالتلويح.. وقد رأينا اكثر النصوص التى استدل بها الشيعة على خلافة الامام و ولايته من النوع الثانى، مثل من كنت مولاه فعلى مولاه.. وانت ولى كل مؤمن بعدى..وعلى مع الحق، والحق مع على الخ.. فلماذا اكتفى النبى (ص) بالوصف عن الاسم، وبدلالة اللزوم عن المطابقة، وهى اصرح واوضح، وفتح باب النقاش والتأويل؟.

الجواب:

اولا: لافرق من حيث الحجة والالزام بين دلالة اللزوم والمطابقة، كما هو الشأن فى سائر النصوص، سواء أكان موضوع النص اصلا من اصول الدين، ام فرعا من فروعه.. ومن اجل هذا اكتفى ابو بكر حين نص على عمر بقوله: «انى امرت عليكم عمر بن الخطاب». قال المرحوم الشيخ محمد رضا المظفر فى كتاب السقيفة: «ان الامارة تكون فى الجيش

وفي كل شيء.. والفرق بين نص النبي ـ على الامام ـ ونص ابي بكر ـ على عمر ـ ان ابابكر لم يحدث بعده ما يوجب التأويل لانه قد عمل به ، اما نص النبي فقد اول لانه لم يعمل به ».

ثانيا : ان الحكمة والمصلحة قد تستدعي العدول من التصريح الى التلويح ، ومن الاسم الى الوصف مع العلم بان النتيجة واحدة ، والحكمة هنا ان عليا كان له في الصحابة اعداء وحساد لفضله من جهة « وقديما كان في الناس الحسد» ولانه قد قتل في ـ بدر واحد ـ الكثير ممن كان يمت الى بعض الصحابة بنسب او سبب من جهة ثانية.. وعليه لو صرح النبي (ص) باسم علي لانشق المسلمون ، معه وعليه ، واختلفوا فيه بعد ما اتفقوا عليه ، وذهبت هيبة الاسلام ، وضعفت شوكته .

ويدل على ذلك امران : احدهما ان النبي (ص) قد صرح بخلافة علي في النص الاول يوم انذر عشيرته ، وقال: هذا خليفتي فيكم، فاسمعوا له واطيعوا . (١)

حيث لا حساد ولا اعداء لعلي (ع) آنذاك ، لانه كان في مقتبل العمر، لم يمارس حربا ، ولم يقتل مشركا، ولم يظهر له بعد من الفضل ما ظهر له يوم ـ بدر واحد وخيبر والاحزاب ـ وثاني الامرين: الذي يدل على شقاق الصحابة لو صرح النبي باسم علي، هو شقاقهم واختلافهم عند النبي وفي بيته و مرضه حين اراد أن يكتب لهم وصية لن يضلوا بعدها ابدا ، وقول عمر : ما شأنه ؟ أيهجر ؟ . ويأتي البيان في الفصل التالي .

---

١ ـ تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٢ مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٥٧ هـ . عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة .

وبعد فان المصدر الاول والاخير لوجود التشيع وظهوره في الاسلام هو نصوص القرآن و السنة فقط لاغير على ولاية اهل البيت ، لا الاغراض الشخصية ، ولا المحسنات العقلية ، ولولا هذه النصوص لقال الشيعة . بمقالة السنة .. اما الفضل في بقاء التشيع واستمراره فله اسباب لا سبب واحد؛ ومنها اومن اهمها رواية علماء السنة انفسهم لنصوص الولاية، وحفظها وتدوينها في صحاحهم وسننهم ومسانيدهم ، فلقد كان لهذا التدوين ، وتلك الرواية ابلغ الاثر في صمود مذهب التشيع لاهل البيت ؛ وتثبيته ونموه بقلوب اهله وابنائه، وانتشاره في شرق الارض وغربها .. واذهب الى ابعد من ذلك جازما بانه لولا اعتراف السنة بنصوص الولاية ـ على رغم التأويلات والتمحلات ـ لبلغ التناحر بين السنة والشيعة غايته ونهايته .

وهكذا نرى ان علماء السنة قد ساهموا مساهمة فعالة في التقريب بين الطائفتين الاسلاميتين من جهة ، وفي رسوخ التشيع ونموه وانتشاره من جهة ثانية، ولكن من حيث لا يريدون؛ او من حيث ارادوا في واقعهم العكس.. واكرر جازما ومعبرا عن رأى الشيعة قاطبة بانهم يعتمدون لايمانهم بولاية اهل البيت على النص القطعي متنا وسنداً، وان علماءهم اذا أشاروا الى حكم العقل في هذا الباب ، وعند المناظرة فانما يشيرون اليه كمؤيد ، لا كدليل مستقل، ولولا الخصومات والحملات لم يأتوا على ذكره تصريحا ولا تلويحا .

الدكتاتورية والديمقراطية:

و رب قائل : لو صرفنا النظر عن نص الكتاب والسنة على خلافة علي وامامته ، وقارنا بين قول الشيعة والسنة ـ لوجدنا قول السنة اقرب

الى النفس وملاءمة الحضارة» في هذا العصر ـ لان قول الشيعة يوجب على الامة كافة ان تخضع لحكم الفرد ودكتاتوريته؛ اما قول السنة فانه يترك الامة وشأنها تنتخب وتختار من تراه اهلا للرياسة عليها؛ وهذى هي الديمقراطية المتبعة اليوم في البلاد المتحضرة .

الجواب :

اولا :لاسبيل الى اتفاق عامة الناس على رأى واحد في أى موضوع كان.

ثانياً :مامن انتخاب جرى في العالم كله الاودنسته الرشوة والجهل، والقوة والاغراض الشخصية ؛ ومن هنا قال سبحانه في اكثر من آية : «اكثرهم لايعقلون» .

ثالثاً : لو سلمنا ـ جدلا ـ بنزاهة الانتخاب و عدالته فان النتيجة الحتمية له هي حكم الاكثرية ، وارغام الاقلية على الخضوع لها ، ومعنى ذلك ان الاقلية لاشأن لها ولارأى . . هذا الى ان الشواهد التاريخية قد اثبتت بالارقام ان الديمقراطية العصرية تبتدىء بالانتخاب، وتنتهي باستبداد الاقلية بالاكثرية ، ومن هنا كانت الحرية للجميع ، والمساواة بين الجميع في هذا العصر، بل وغيره من العصور ـ الفاظاً بلا معنى الا في الذهن و التصور.. ويستحيل ان يتحقق للعدالة والمساواة اى معنى الا اذا حكم وسيطر المعصوم عن الخطا والخطيئة . . وهذا هو قول الشيعة بالذات .. وقد يكون مجرد حلم من الاحلام .. ولكنه حلم الحق والناس اجمعين.

اصل اوفرع؟

وتسأل : هل الولاية عند الشيعة اصل اوفرع ؟ . وعلى الاول هل

هى من اصول الدين اوالمذهب ؟ .

الجواب :

الولايةاصل، وليستبفرع، لانالولاءعملية قلبية داخلية، والفرع موضوعه الافعال الخارجية .. هذا ، الى ان الفرع يثبت بالظن من خبر الواحد ، وظواهر الكتاب والسنة ، و الولاية لاتثبت الابالقطع و اليقين كغيرها من الاصول .

واكثرعلماء الامامية على انها من اصول الدين . وقالقائلمنهم : هى من اصول المذهب . و ذهب البعض الى انها شرط لقبـول العبادة و الثواب عليها، وليست شرطاً لصحة العبادة وكفايتها .. ويلاحظ بان اهل العرف لايفرقون بين صحة العمل وقبوله ، فاذا قيل : هذا العمل مقبول فهموا انه صحيح ، واذا قيل : هوصحيح فهموا انه مقبول .

ويلاحظ على القول الثانى بان مصدر الدين و المذهب الاسلامى واحد ، وهو الكتاب الكريم و السنة النبوية ،فأى شيىء له اساس فيهما فهو من الدين فى الصميم ، سواء أسميناه دينااام عقيدة ، و الذى لا اساس له فىالكتاب والسنة لاواقعا ولاظاهرا يبررالاجتهادفهو بدعة وضلالةلاتصح نسبته الى الاسلام بحال .

وعلى هذا فان كانت الولاية حقا فى علم الله فهى من اصول الدين واقعا وظاهرا ، وانلم تكنكذلك فهى ايضا اصل من اصول الدين،ولكن ظاهرالاواقعاكغيرها منالامورالدينية ،اذ المفروض ان القائلين بالولاية يعتمدون النص ، واذن فهى من الاصول علىكل، اما واقعا وظاهرا،واما

ظاهرا فقط ،اجل ،يجوزأن نسميها باصل المذهب بالنظرالى انها ثبتت عند اهل هذاالمذهب دون غيره من المذاهب ولكن التسمية لاتخرجها من اصول الدين .

وتسأل:هل الشيعة يكفرون من انكر الولاية لائمتهم بالمعنى الذى يؤمنون به ويدينون ؟

الجواب :

كلا؛كيف وقداجمعوا قولا واحداً على ان من نطق بالشهادتين له ما للمسلمين،وعليه ماعليهم الاان يكون ناصبيا اومغاليا ، ومن ادلتهم قول الامام(ع)هلك فى رجلان: محب غال، ومبغض قال .

سؤال ثان:اوحت به الاجابة عن السؤال الاول ، وهو اذاكان هذاحقا وصدقا،لاتقية ومجاملة ، فكيف تكون الولاية من اصول الدين ، ويكون الاقرار بهاواجبا تماما كوجوب الاقرار بالتوحيد والنبوة . و أية جدوى من القول بان الايمان بالولاء واجب كالتوحيد اذاكان لمنكر هذاالولاء ما للمسلمين،وعليه ماعليهم؟

والجواب عن هذا السؤال يعرف مما ذكرناه فى الفصل السابق بعنوان مايجب ومالايجب، وربما نسيه القارىء، اولم يمر به ،ونلخصه له بان على كل بالغ عاقل ان يبحث وينظر لتحصيل العلم بالاصول الاربعة : التوحيد ، والنبوة،والامامة ـ على قول الشيعة ـ والمعاد،وان القادر المقصر فى البحث والنظر غير معذور امام الله الااذا آمن جازما،عن تقليد يتفق مع الواقع ، وان الغافل القاصر معذور ، لان حاله حال البهائم والمجانين من غير فرق

فى ذلك بين جميع الاصول الاربعة .

وقلنا ايضاً : ان من نطق بالشهادتين يعامل فى الدنيا معاملة المسلم حتى ولو كان شاكا فى الواقع بالتوحيد والنبوة فضلا عن الشك بالولاية والامامة على شريطة ان لا يظهر هذا الشك، مع انه عند الله من الكافرين لان من شك بالله او بنبوة محمد كافر كما، تقدم عن الامام الصادق (ع) . . والفرق بين التوحيد والنبوة من جهة ، وبين الولاية من جهة هو ان اعلان الجحود او الشك فى الله ورسوله لا يجتمع بحال مع اعلان الايمان بالشهادتين حيث يستدعى اجتماع النقيضين، اما جحود الولاية فضلا عن الشك فيها فانه يجتمع مع اعلان الشهادتين ومن المتسالم عليه ان الاحكام الشرعية و آثارها تلحق هذا الاعلان، وتترتب عليه ترتبا دينيا بصرف النظر عن الولاية، وعن الثواب والعقاب . .

وعليه فلا منافاة بين قول الشيعة: ان الايمان بالولاية من اصول الدين ، وقولهم : ان منكرها ليس بكافر . . ان اقوال الشيعة فى كل شيء ينسجم بعضها مع بعض، ولا تنافر بينهما على الاطلاق، وهى بكاملها تنسجم مع عقيدتهم وافعالهم، وانما التناقض والتنافر بين اقوال السنة انفسهم، حيث قالوا ان الامامة من الفروع، لا من الاصول، ثم حكموا من حيث يشعرون ، او لا يشعرون بان من انكر خلافة ابى بكر وعمر، فهو كافر ،قال ابن حجر فى آخر صواعقه باب التخيير والخلافة ، ما نصه بالحرف الواحد : ان اباحنيفة وغيره من علماء السنة افتوا بان من انكر خلافة ابى بكر وعمر فهو كافر» . ونقل القزوينى فى كتاب الامامة الكبرى عن ابن حجر فى صواعقه هذا الحديث عن النبى (ص) «يكون فى آخر امتى الرافضة ينتحلون حب اهل بيتى .. من ادركهم منكم

فليقتلهم فانهم مشركون».

فان كانت الامامة من الفروع حقا فانكار خلافة الشيخين لا يوجب التكفير حتى ولو كانت بامر من الله ورسوله ، ويأتي الكلام عنها ، وان كانت الامامة من الاصول فلماذا ينكرون ذلك على الشيعة؟ . وليس لواحد من السنة وغير السنة ان يدعي ويقول: اجل، ان خلافة الشيخين فرع، ولكنها من ضرورات الدين، وكل من انكر ضرورة دينية فهو كافر .. ليس لاحد ان يدعي ذلك ، لان الشرط الاساسي للضرورة الدينية ان يجمع عليها كافة المسلمين في كل زمان ومكان، والشيعة ينكرونها ، وسبقهم الى انكارها كثير من الصحابة ،و يأتي البيان . هذا جواب ابي حنيفة وغيره من علماء السنة الذين افتوا بكفر من انكر خلافه الشيخين ، اما حديث قتل الرافضة فانه يرمز الى شيء عميق الدلالة لا يدركه الا المتعصبون من اهل السنة؛ وبعد، فان السنه او الكثير منهم يقعون في افحش التناقضات من حيث لا يدرون ويرمون بها الابرياء عن قصد او غير قصد .

حول التسنن والتشيع

ولاية اهل البيت وخلافة ابى بكر:

كنت، وانا فى مقتبل العمر أتساءل كما يتساءل الساذج البرىء: لماذا انقسم المسلمون الى سنة وشيعة، وكتابهم واحد، ونبيهم واحد، وقبلتهم واحدة؟.

ثم لاحظت - اكثر من مرة - حين يجتمع بعض السنة مع آخرين من الشيعة: ويأتى ذكر الاختلاف يتفقون جميعا على ان سبب الانقسام بين المسلمين قديما وحديثا يرجع الى سياسة الحكم الجائر، ومبدأ «فرق تسد» وصادف ان قرأت ذلك فى بعض الصحف والكتب الحديثة، فصدقت من غير تحقيق وتمحيص، بل من حيث لا احس واشعر.. كان ذلك قبل خمسين سنة او اكثر.

واستقرت هذه الفكرة فى رأسى سنوات، وكتبتها واذعتها فى بعض ما كتبت واذعت.. وحين اضطرنى اعداء الحق واهله الى الدفاع عنه وعنهم اخذت أبحث وأنقب عن مصدر التشيع والبذرة الاولى لهذا المذهب؛ فوجدتها

فى النص الصحيح عن رسول الله (ص) كما وجدها المنصفون من السنة انفسهم ومنهم الاستاذ؛ محمد عبدالله عنان فى كتابه تاريخ الجمعيات السرية حيث قال: من الخطأ أن يقال: ان الشيعة انما ظهر والاول مرة عند انشقاق الخوارج؛ بل كان بدء الشيعه وظهورهم فى عصر الرسول (ص) حين امـره الله بانذار عشيرته فى الاية ٢١٤ من الشعراء: «وانذر عشيرتك الاقربين»، ولبى النبى فجمع عشيرته فى بيته؛ وقال لهم مشيراً الى ـ على ـ هذا اخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له واطيعوا».

بحثت ونقبت عن مصدر التشيع، وقرأت نصوص الولاية بكاملها مرات وايضاً قرأت اعتراضات السنة عليها وعلى الشيعة مرات ومرات؛ وتتلخص هذه الاعتراضات بان بعض نصوص الولاية ضعيف السند؛ وبعضها يدل على الولاية بمعنى السلطة وتولى الامر، بل بمعنى المودة والنصرة، و بعضها يدل على ان علياً يتولى الخلافة فى المآل، لا فى الحال، اى بعد خلافة ابى بكر وعمر وعثمان، لا بعد وفاة النبى بلا فاصل .. قرأت هذا فعدلت عن فكرة السياسة و «فرق تسد» و آمنت بان السبب للاختلاف بين السنة والشيعة يرجع الى الاختلاف فى فهم نصوص الولاية سندا ومتنا، وكتبت ذلك واذعته ايضاً فى بعض ما كتبت واذعت،

وتشاء الاقدار ان اعود الى حديث الولاية، وانا فى ـ قم ـ؛ او يعود هذا الحديث الى، ويفرض نفسه على، فرحبت به، لان حديث الولاية احسن الحديث بل افضل الاعمال، وهذا من فضل ربى، وبعد التتبع والتأمل تبين لى ان السبب الاول للاختلاف بين السنة والشيعة ابعد بكثير من السياسة؛ ومن الاختلاف

فى النصوص سنداً ومتنا . .كلا ، ان السبب الحقيقى يكمن فى تصميم السنة وحرصهم على خلافة ابى بكر ، والدفاع عنها بكل سبيل حقا كانت ام باطلا . . واذن ، الاختلاف بين السنة والشيعة حول هذه النصوص جاء فرعاً ، لا اصلا وتبعا ؛ لا اساسا .

اما السبب الموجب لحرص السنة على خلافة ابى بكر فهو - كما نرجح ان السنة او اكثرهم يؤمنون بالامر الواقع ؛ ويعترفون به ايا كان ، على عكس الشيعة الذين يدينون بالعقل والشرع ، وبهما يقيسون الحوادث والوقائع ، ولو تولى على الخلافة بعد الرسول مباشرة لكانت نصوص الولاية بكاملها عند السنة صدقا وعدلا . متنا وسنداً .. ونحن لا نتزيد فى اقوال السنة ولا ننسب اليهم ما ليس لهم به من علم ، كما نسب الينا البعض منهم ما نسب كذبا وافتراء . .كلا ؛ لا نقابل الكذب بالكذب ؛ بل نلزم بالاقوال والافعال . . وفيما يلى نعرض طرفا من اقوال السنة التى تدل صراحة على انهم يدينون بمبدأ الاعتراف بالواقع مهما كان ويكون ، ثم نعرض بعض ما يدل من اقوالهم على ان خلافة ابى بكر اتت من طريق يرفضه الاسلام ، ويبرأ منه .

السنة ومبدأ الاعتراف بالواقع :

قلنا : ان السنة تبنوا خلافة ابى بكر عملا بمبدأ الاعتراف بالواقع ، واليك الدليل :

١ ـ بايع نفر قليل ابا بكر بالخلافة ، وساعدته الظروف والاوضاع ، فتمت السلطة له دون غيره من الصحابة ، واصبح هو الامر الناهى باسم خليفة رسول الله (ص) ، فاستدل السنة بخلافة ابى بكر : لا بآية ولا برواية ، ولا باجماع

اوعقل استدلوا او ابتدعوا اصلا عاما ووهاما، هو أن الخلافة الاسلامية الكبرى تنعقد شرعا، وتصح عقلا وعرفا ببيعة نفر قليل من المسلمين ؛ وكان الاجدر ان يستدلوا على فساد خلافة ابى بكر وبطلانها ببيعة النفر القليل ، كما هو منطق الحق والعدل .

قال الماوردى فى اول كتاب الاحكام السلطانية: «اقل ما تنعقد به الامامة خمسة انفار، لان بيعة ابى بكر انعقدت بعمر، وابى عبيدة واسيد بن حضير، وبشر بن سعد، وسالم مولى حذيفة . . ولان عمر جعل الشورى فى ستة ليعقد البيعة لاحدهم برضا الخمسة هذا قول اكثر الفقهاء والمتكلمين من اهل البصرة وقال آخرون من علماء الكوفة تنعقد بثلاثة يتولاها احدهم برضا الاثنين ، وقالت طائفة اخرى تنعقد البيعة بواحد».

وجاء فى كتاب المواقف وشرحها باب الامامة : «الواحد والاثنان من اهل الحل والعقد كاف فى ثبوت الامامة ووجوب اتباع الامام على اهل الاسلام ، لان الصحابة اكتفوا فى عقد الامامة بعقد عمر لابى بكر وعقد عبد الرحمن بن عوف لعثمان» .

أليس معنى هذا ان بيعة عمر لابى بكر هى حق وعدل وان خالفت كتاب الله وسنة نبيه.. لا لشيىء الا لان ابا بكر صار خليفة بالفعل وان بيعة ابن عوف لاريب فيها لان عثمان صار خليفة ؟

ومعنى هذا ايضا ان عمر؛ او أى انسان لو بايع عليا وتمت له الخلافة ـ لكان اولى بها من جميع الصحابة بمافيهم ابو بكر ، ولكانت جميع النصوص على خلافته وولاية المعصومين من اولاده قطعية السند والدلالة . . حتى ولو

بايع ابابكر الانس والجان ، بل ونص على خلافته النبي والقرآن مادامت الخلافة لم تتم له.. هذا مبدأ السنة او اكثرهم يقيسون الحق بما وقع ؛ ولا يقيسون ما وقع بالحق بالحق اما مبدأ الشيعة فالنص اولا وهو الضابط لما يقع ويحدث.

وقد تنبه بعض السنة لهذا الخطأ فبرره بما هو افحش، ووضع هذا الحديث «من أطاع الامير فقد اطاعني ومن يعصى الامير فقد عصاني فان امر بتقوى الله وعدل فان له بذلك اجراً وان قال بغيره - اى غير العدل - فان عليه منه» اى وباله على نفسه لا على احد لانه من نفسه والنتيجة لذلك وجوب طاعته على كل حال.. جاء هذا الخبر في البخاري ج ١١ باب السمع والطاعة للامام .

٢ - وقعت الحرب بين علي ومعاوية وشاءت الاقدار او الظروف ان يحكم معاوية كما حكم الاول والثاني والثالث فتبنى السنة حكم ابن ابي سفيان واعترفوا به ودافعوا عنه لا لشيء الا لانه قد حكم بالفعل.. وكان قد تواتر عن النبي (ص): ان عمارا تقتله الفئة الباغية يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار تواتر هذا الحديث حتى اصبح كآية قرآنية بخاصة بعدما دونه البخاري في صحيحه كتاب الصلاة باب التعاون في بناء المساجد ج ٤ ص ١٠٧ طبعة ١٣٥٢ هـ .

ومع هذا رفض السنة ، وابوا ان ينعتوا معاوية وحكمه بالبغي كما نعته من لا ينطق عن الهوى ، رفضوا ذلك ، وهم على يقين من قول الرسول بان عمارا يقتله الطاغية الباغية .. وعلى الرغم من ذلك قال السنة : كلا، ان معاوية ما طغى ولا بغى ، وانه معذور، بل ومأجور بقتل عمار وبسب علي على المنابر ، وحمل الناس على ذلك حتى يهرم الكبير ويشيب الصغير لانه-

اى معاوية ـ اجتهد فاخطأ ،وللمجتهد المخطىء اجر .. و مهماشككت فانى لااشك ابدا فى ان معاوية لوفشل فى حربه مع الامام ، ولم يستتب له الحكم لنعته السنة بالطاغية الباغية لنفس الحديث المتواتر : « ياعمار تقتلك الفئة الباغية ». ولكن معاوية صار حاكما بالفعل ، واذن يجب طرح، النص وان تواتر .

وهذا هو بالذات حال النص على خلافة الامام وولايته ، رفضه السنة، لان الاوضاع الفاسدة الجائرة اسعفت ابابكر ، وعاكست عليا، ولواسعفته الظروف ؛ و عاكست ابابكر لكان النص صريحا وقاطعا بولاية علـى و امامته .

أليس معنى هذا ان مقياس الحق عند السنة اواكثرهم هو ماوقع ، لاالنص من الله ورسول الله ؟ .

الاسلام و خلافة ابى بكر :

هل خلافة ابى بكر صحيحة ،ام باطلة فى مقاييس الاسلام واحكامه؟. وليس من شك اذا بطلت خلافة ابى بكر بطلت خلافة عمر وعثمان بطريق اولى، لانهار شحة من خلافة الاول، وبالتالى ينهار مذهب التسنن من الاساس، اواعظم ركن من اركانه الذى من اجله اعرضوا عن نصوص الولاية ،وقسموا المسلمين بهذا الاعراض الى شيعة وسنة .

واذا تكلمنا نحن عن خلافة ابى بكر اتهمونا بالتعصب و الانحيـاز ، لذلك ندع الكلام عنها للسنة انفسهم ، قال الشيخ على عبد الرازق، وهـو من علماء الازهر ، فى كتاب «الاسلام واصول الحكم» ص١٨٣ طبعة ثانيـة

سنة ١٩٦٦ ، قال مانصه بالحرف الواحد :

« اذا انت رأيت كيف تمت البيعة لابى بكر ، واستقام له الامر تبين لك انها كانت بيعة سياسية ملكية عليها طابع الدولة المحدثة، وانها قامت كما تقوم الحكومات على اساس القوة والسيف» ..وقال فى ص١٩٤ : «لعل بعض من حاربهم ابو بكر، باسم الردة لم يرفضوا الزكاة ، بل رفضوا الاذعان لحكومته ؛ كما رفض غيرهم من جلة القوم كعلى بن ابى طالب ؛ و سعد بن ابى عبادة ـ الى ان قال ـ فقد اعلن مالك بن نويرة فى صراحة واضحة الى خالد بن الوليد ـ انه لايزال على الاسلام ، ولكنه لايؤدى الزكاة الى ابى بكر » .

ومعنى هذا ان خلافة ابى بكر لا اساس لها من الدين .. كيف ومصدرها القوة والسيف ؟ . واى شيى عاعظم جرما وظلما من التحكم برقاب الناس قهرا عنهم ؟ . ومن هنا اضطر جماعة من علماء السنة (١) الى القول بان الامامة تنعقد بالقوة والغلبة .. وهذا شاهد آخر على ان السنة يؤمنون بمبدأ الاعتراف بالامر الواقع، حتى ولو كان مصدره السيف ؟ ونعطف هذا الشاهد على ماقدمنا فى الفقرة السابقة .

وقال عبد الكريم الخطيب (من السنة) فى كتاب الخلافة و الامامة ص٢٧٢ طبعة ١٩٦٣ ، قال مانصه بالحرف :

« لقد عرفنا ان الذين بايعوا ابابكر لم يتجاوزوا اهل المدينة ، و

---

١ منهم ابن خلدون فى مقدمته ، والقاضى ابن جماعة الدمشقى فيما نقل عنه صاحب حضارة الاسلام «جرونيباوم»

ربماكان بعض اهل مكة .. اماالمسلمون جميعا فى الجزيرة العربية كلها فلم يشاركوا فى البيعة ،ولم يشهدوها ولم يروا رأيهم فيها ، وانماورد عليهم الخبر بموت النبى مع الخبر باستخلاف ابى بكر..فهل هذه البيعة اوهذا الاسلوب فى اختيار الحاكم يعتبر معبرا عن ارادة الامة حقا؟.وهل يرتفع هذا الاسلوب الى انظمة الاساليب الديمقراطية فى اختيار الحكام ؟ . لقدفتح هذا الاسلوب ابوابا للجدل فيه، والخلاف عليه» .اى ان بيعة ابى بكر بالشكل الذى حدثت فيه اوجبت اختلاف المسلمين وتعدد فرقهم ومذاهبهم .

وقال فى ص٢٧٤: «من اى نوع هو عقد بيعة الخليفة ؟ . اهو عقد بيع ام عقد وكالة ؟ . ان عقد البيع بعد ان تتم الصفقة يصبح كل من المتبايعين بمعزل عن الاخر ، يتصرف فيما صار فى يده مطلقا لاسلطان للثانى عليه ، و لا شأن له معه ، فهل يصبح الذين بايعوا الخليفة لاصلة لهم به بعد البيعة ، ويصبح الخليفة مالكا للخلافة لاحساب عليه لاحد ؟ . هذا بالنسبة الى عقد البيعة ، اما عقد الوكالة فاين هو ؟ ومن هم الوكلاء والمسئولون عنه ؟ اهم اهل الحل والعقد ؟ . ومن هم اهل الحل والعقد ؟ . وماهى صفتهم ومن الذى القى عليهم هذه المسؤلية ؛ ومنحهم اياها ؟ . » .

ثم قال فى ص٢٨٦ ومابعدها : « هل تمت البيعة لابى بكر بالانتخاب العام .. ومن هنا نرى ان البيعة تنطوى على قصور فى مجال التعرف على الرأى العام كما تنطوى على غبن واضح لحق الافراد السياسيين الذى تقتضيه المساواة التى اقامها الاسلام مبدأ واضحا صريحا بين المسلمين جميعا » .

وهاجم احمدامين المصرى الشيعة فى كتاب فجرالاسلام وضحاه هجوما عنيفا ، وبعد مضى عشرين عاما اواكثر أصيب بنظره فاملى كتابا، اسماه يوم الاسلام ، وطبع سنة ١٩٥٨ قبل وفاته بقليل واعترف فيه بما كان قد انكره على الشيعة .

من ذلك قوله فى ص٤١ : « اراد رسول الله (ص) فى مرضه الذى مات فيه ان يعين من يلى الامر بعده ،وقال : هلم اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده وكان فى البيت رجال منهم عمر ، فقال عمر : ان رسول الله قد غلب عليه الوجع» (١) .

وقال احمدامين المصرى فى الكتاب المذكور فى ص٥٣ : «اختلف الصحابة على من يتولى الخلافة ، وكان هذا ضعف لياقة منهم ، اذا اختلفوا قبل ان يدفن الرسول » .

وقال فى ص ٥٢ : «كان مجال الخلاف الاول فى بيت النبى ، و الثانى فى السقيفة ، واخيرا تم الامر لابى بكر على مضض » .

وقال فى ص٥٤: « بايع عمر ابابكر ، ثم بايعه الناس ، وكان فى هذا مخالفة لركن الشورى ، ، ولذلك قال عمر : انها غلطة وقى الله المسلمين شرها ، وكذلك كانت غلطة بيعة ابى بكر لعمر » .

واذا لم تقم خلافة ابى بكر على الاجماع، ولا على النص ، ولا على

---

١ - فى صحيح البخارى ج ٦ ص٩ طبعة ١٣١٤ هـ : « ماشأنه - اى النبى - اهجر؟» ومثله فى صحيح مسلم كتاب الوصية . ولكن البعض تصرف بكلمة هجر لانها تفيد الهذيان ، ومقام الرسول اعظم .

البيعة والوكالة ، ولابالانتخاب الديمقراطي كماقال الاستاذ عبدالكريم الخطيب ، بل قامت على القوة والسيف كماقال الشيخ على عبد الرازق ، و انهاكانت غلطة كماقال عمرواحمد امين صاحب فجر الاسلام وضحاه ،اذا كانت هذه خلافة ابى بكر فى حقيقتها وواقعها فاين مكان الرشد فيها؛و فى خلافة عمر وعثمان ؟ . وهل يزيد الفرع على الاصل ؟ .

وبالتالى ، هل يبقى لمذهب التسنن من ركن يعتمد عليه ؟ .لقد انكر السنة النص على خلافة الامام.. لالشيىء الاحرصا على خلافة ابى بكر فاقتص الله ، جلت حكمته ، لعلى فى الدنيا قبل الاخرة ، وسخر من السنة انفسهم من يهدم هذه الخلافة من اساسها ، ويثبت بالحس وينشر على الملاء والاجيال ان خلافة ابى بكر اتت من طريق لايقره دين ولاعقل ، ولاعرف، اوقانون .

لماذا لم يحتج الامام بالنص ؟

وتسأل : اذاكان هناك نص جلى على امامة الامام (ع) فلماذا لم يحتج به على من ابعده عن الخلافة ؟ . ولو من باب القاء الحجة ـ على الاقل ـ

الجواب :

ان العالم لايجزم نفيا ولااثباتا الا بدليل قاطع .. و لاوجود لهذا الدليل على ان الامام لم يحتج .. أجل ما سجل التاريخ ، ولا نقل الرواة ذلك عنه ؛ ولكن ليس كل ما قاله على و فعله قد حفظه التاريخ ، ورواه الرواة بخاصة تاريخ العصر الاموى الذى كان فيه سب على دينا تدين به

الدولة واعوانها ، ومثله اواسوأمنه العصر العباسى .

ولوسلمنا ـ جدلا ـ بان الامام سكت و لم يحتج فليس من الحق فى شيىء ان نفسر سكوت الامام بوجود النص او عدم وجوده الا فى ضوءِ ما حدث وأحاط بالامام من الظروف و الملابسات آنذاك . . ولا يكون سكوت الامام دليلا على عدم النص الا اذا وجد المقتضى ، وارتفعت جميع الموانع بحيث لو احتج الامام لبايعه عمر وابوبكر و سائر الصحابة ، اما اذا كان الاحتجاج بالنص وعدمه سواء بل يتولد منه مفاسد ايضا فلا يدل السكوت ، ـ والحال هذه ـ على عدم وجود النص. واذا نظرنا الى تلك الظروف والاوضاع بعين الواقع والانصاف ـ وجدنا ان قريش كانوا مصممين على معارضة الامام فى الخلافة على كل حال ، وابعاده عنها بكل سلاح حقدا وحسدا .

وقد ظهرت بادرة العداء لعلى من قريش اول ما ظهرت حين اراد النبى (ص) ـ وهو على فراش الموت ان يكتب لامته كتابا يعين فيه من يلى الامر بعده ، كما قال احمد امين المصرى فى كتاب يوم الاسلام، فمنعته قريش ، وقالت كلمة يهتز لها العرش ، وهى «أ..هجر»..ـ كما فى الصحيحين: مسلم ـ والبخارى ـ وهذه الكلمة بذاتها قرينة قاطعة على ان عمر ما نطق بها الا لعلمه و يقينه بان النبى (ص) اراد ان يسجل فى الكتاب الخلافة من بعده لعلى .. والا فما هو الموجب لمنع الرسول عن الوصية ، ووصفه بالهجر؟ :وهل كان عمر يمنعه عنها ، و يقول عنه ما قال لو ظن او احتمل ان النبى اراد ان يوصى بشيىءٍ غير الخلافة، او اراد ان

يوصى بالخلافة اليه ؛ اوالى ابى بكر؟. و لأستبعد اطلاقا ان النبى (ص) لوأصرعلى الكتاب، وسجل فيه الخلافةلعلى من بعده لاصراقطاب قريش بدورهم على ان النبى كان يهجر ؛ واثبتوا ـ والعياذ بالله ـ هذيانه .. ولابطل السنة بعد ذلك كل وصية يوصى بهافى مرض الموت .

ولولا هذاالمحذور لاصرالنبى على الكتاب ، وسجل فيهمااراد .. وايضا لولا المحاذيرالتى سنذكرها بعد لحظة لاحتج الامام بالنص على خلافته ؛ فمن قال : لما ذا لم يحتج على بالنص ؟. قلنا فى جوابه : ولماذا لم يصرالنبى على الكتاب ويسجل فيه ما اراد ؟. والجواب الجواب .

هذه اول بادرة من قريش ظهرت فى عـدائهم لعلى بعد ان رأوا امارات الموت على رسول الله (ص) ؛ اما البادرة الثانية فقد ظهـرت من قريش فى عداءعلى، حين اسرعوا الى سقيفة بنى ساعدة قبل ان يجرد النبى من ثيابه ، ويبرد جسده الشريف ، اسرعوا الى السقيفة ،واختلفوا على من يلى الامر، وتجاهلوا عليا عن عمد، وهم اعرف الناس بمكانه .. ولاسرالاالحقد والبغضاء، والا التصميم والعزم على ابعاد على عن كل مايمت الى الخلافة بصلة .. اما الاعتذار بان عليا كان فى شغل شاغل لتجهيـز النبى (ص) فهو اوهن من بيت العنكبوت ،لان التجهيزمهما طال امدهفلا يستغرق اكثرمن بضع ساعات .

فالبادرة الاولى من عـداءِ قريش لعلى كانت ، والنبى فى ساعاتـه الاخيرة ، و جاءت الثانية قبل ان يوارى الجسد الشريف ، اما الثالثـة من عداء قريش لعلى فقد جاءت بعد الدفن بقليل ، وهى اغتصاب فدك ،

وافتراء حديث : «نحن معاشر الانبياء لانورث » . فعلواكل هذا ،واكثر من هذا و مع ذلك لم يرضوا من على بالسكوت والحياد، بل هجموا عليه ليكرهوه على الخضوع والاستسلام لابى بكر.. و كان من امر هذه الغارة على بيت فاطمة بضعة الرسول الاعظم (ص) ماكان .

واذا لم يتركوا فدكالعلى ، ولم يقنعوا منه بالسكوت والحياد ، فهل يتركون له الحكم والخلافة ، ويقولون لهمديدك حتى نبايع بمجرد ان يتفوه بالنص ؟. و اذا منعوا النبى (ص) ان يكتب وصيته ، و هو فى مرض الموت ، ونعتوه بالهجر كما فى صحيح البخارى ومسلم ،فهل يسمعون لعلى ويطيعون اذا احتج عليهم بالنص اويضعون حديثا فى نسخ مايحتج به الامام على غرار حديث : « نحن معاشر الانبياء لانورث » الذى اتفق السنة على صحته،لاشيىء الالان راويه خليفة ، و لو روى حديث النسخ ابن الخطاب ـ مثلا ـ لاصبح وحيامنزلا تماماكحديث « نحن معاشر الانبياء» الذى ما رواه احد الاابوبكر.. وقد وضع عمروبن العاص بعدحين ارضاعاً لمعاوية حديث :«ان آل ابى طالب ليسوالى باولياء» . ولكنه تركواهمل؛ لان راويه لم يتول الخلافة ، و لو تولاها لا عترف بها السنة و بالحديث المفترى عملا بمبدأ الاعتراف بالامر الواقع الذى تقدم الكلام عنه.

لاتستبعد شيئامن ذلك ـ ايها القارى ـ فكله جائز ومعقول بالنسبة الى قريش .. الم يمكروا بالرسول الاعظم (ص) ويصمموا على قتله،واوشك ان يتم كل شيىء لولاان يحول الله بينهم وبين ماارادوا بخروج النبى من مكة ، ومبيت الامام على فراشه ؟. ومن الذى فعل بكر بلاء ما فعل،واقام

مجزرة اهل بيت محمد ،قريش اوغيرهم ؟. ولو ان عليا أصر على الامتناع عن بيعة ابى بكر لقتلوه وفعلوا به وباهل بيته ما فعلوا بالحسين ونسائه واطفاله .. واليك الدليل ؛ قال الامام (ع) فى الخطبة ٢١٥ من خطب نهج البلاغه :

«اللهم انى استعديك على قريش ومن اعانهم، فانهم قدقطعوا رحمى، واكفأوا أنائى ، واجمعوا على منازعتى حقا كنت اولى به من غيرى ، و قالوا الا ،ان فى الحق ان نأخذه (١) وفى الحق ان تمنعه ، فاصبر مغموما، اومت متأسفا ، فنظرت فاذا ليس لى رافد ولاذاب ولامساعد إلا اهل بيتى، فضننت بهم عن المنية . فاغضيت على القذى ،وجرعت ريقى على الشجى، وصبرت من كظم الغيظ على امر من العلقم ، وآلم للقلب من حز الشفار». فقول الامام (ع) :« فضننت بهم ـ اى بأهله ـ عن المنية» واضح الدلالة على انه لو أصر على المعارضة ، والتمسك بحقه لاصابه ما اصاب ولده الحسين (ع) و انه انما سكت حرصا على حياة اهله وعياله ، لا على نفسه ،لان عليا لايبالى دخل الى الموت ، اوخرج الموت اليه ،بل هو آنس بالموت من الطفل بثدى امه .

أما قوله (ع) : « فنظرت فاذ اليس لى رافد و لاذاب ومساعد » فمعناه انه لو أعلن الحرب على خصومه ومعارضيه فى حقه لما و جد معه معينا ؛ و لامدافعا ، لان الناس منذ القديم ، و فى كل زمان و مكان ـ

---

(١) روى: ان تأخذه بالتاء ، وروى ان ناخذه بالنون ، وهو الاصح بقرينة السياق .

يقفون مع المحق الضعيف بقلوبهم فقط وميولهم ؛ اما سيوفهم فمع القوى محقاكان ام مبطلا.. وقد لخص الفرزدق هـذه النظرية للحسيـن (ع) حين سأله عن اهل الكوفة ،لخصها بقوله:«قلوبهم معك ، وسيوفهم عليك». وهل يستطيع قلب معافى من الافات ان لا يكون مع على والحسين .

والخلاصة ان حقد قريش على الامام ، وحسدهم له ، واصرارهم على حربه مهما كانت النتائج اذا أصر على حقه هو الذى منعه من الاحتجاج بالنص ؛كما ان خبث السرائر ؛ و سوءِ الضمائر هو الذى دعا الرسول الاعظم(ص) ان يكف ويمتنع عن الكتاب بعد ان حاول واراد ـ و هو فى مرض الموت ـ ان يعين لامته من يلى الامر من بعده .

لماذا سكت القرآن عن اسم على بالذات:

وتسأل : لماذا لم ينـص القرآن على الامام باسمه الصريـح الواضح ؟ .

الجواب :

ان الغرض الاول من النص هو بيان الحق ، وقيام الحجة على مـن خالفه وعانده ،وليس من شك ان هذا الغرض يتحقق بذكر الوصف وغيره من القرائن ، كما يتحقق بذكر الموصوف صراحة ، والفرق ان النـص الصريح الواضح حجة على العالم والجاهل لاشتراكهما فى تفهمه ومعرفته، اما النص بالوصف ، لا بالاسم فهو حجة على اهل العلم فقط ـ فى الغالب ـ لانهم ادرى به وبموارده ، وهم حجة على الجاهل حيث يجب عليهـم ان يبينوا المقصود من الوصف، فان قصر العالم وقعت المسؤلية عليه وحده،كما

هى الحال فى اكثر النصوص القرآنية والنبوية ، و منها آيات الصلاة و الزكاة ، فانها مجملة ، والتفصيل على اهل الذكر والعلم .

فكرة الامام المعصوم:

قال قائل من اهل السنة : ان فكرة الامام المعصوم سياسية بحت، لا دينية ، وان مصدرها الاول هو خيال الشيعة ، فلقد تمنوا ان يتولى على الخلافة بعد الرسول (ص) ولما اخذها ابوبكر قالوا : ستكون لعلى من بعده ، فاخذها عمر ، فقال الشيعة : هى لعلى بعد عمر ، فاخذها عثمان .. و بعد ان ابعد على عن الخلافة ثلاث مرات اتته فى الرابعة ، وهى تلفظ النفس الاخير ، حيث وقف له معاوية وعائشة وطلحة والزبير، ثم الخوارج ..حتى انتهت باستشهاده بعد امد قصير .

و لما استتب الامر لمعاوية اعدى اعداء العلويين قال الشيعة : سيمضى معاوية ، وتنتقل الخلافة الى الحسن (ع) ، ولكن الحسن استشهد قبل ان يمضى معاوية ،ولما مضى انتقلت الخلافة الى ولده يزيد .. وكان من امر الحسين (ع) ما كان ، ثم الذى جرى على عموم اهل البيت فى عهد الامويين والعباسيين.. فاصطدم شعور الشيعة بالخيبة ، ولم يبق لهم اى امل، فعوضوا عن هذا الواقع الاليم بفكرة الامام المعصوم ، ليبطلوا خلافة الاولين والاخرين الذين ظلموا اهل البيت ، وابعدوهم عن مراتبهم التى رتبهم الله فيها ، ولو ان اهل البيت تمكنوا فى الارض، وتقلدوا الخلافة لما كان لفكرة العصمة عين ولا اثر .

هكذا حاول بعض كتاب هذا العصر ان يشوه الحقيقة ، لا لشيء

الاليتال من التشيع واهله .. واياكان الدافع فجوابه فيمايلى :

١ ـ انفكرة العصمة لاتختص بالشيعة ، بل هى عند السنة بصورة اشد واعنف ، بل هى عندهم فوق العقل وتصوراته .. فلقد رووافى بعض كتبهم : « انرجلامات بالمدينة ، فاراد النبى (ص) ان يصلى عليه ، فنزل جبريل ، وقال :

«يامحمد لاتصل عليه ، فامتنع النبى ، فقال له ابوبكر : صل عليه فما علمت منه الاخيرا ، فنزل جبريل ثانية ، وقال : يامحمد صل عليه ، فان شهادة ابى بكر مقدمة على شهادتى » . (١) . ومعنى هذا ان علم ابى بكر بالرجل الذى مات بالمدينة هو فوق علم الله تعالى ، لان جبريل الامين لاينطق الا بامر من علام الغيوب .

وقال صاحب المنار عند تفسير : «و من الناس من يتخذ من دون الله اندادا ـ ١٦٥ البقرة» : « ان الكرخى صرح قائلا بان الاصل قول ابى حنيفة ، فان وافقته نصوص الكتاب والسنة فذاك ، والاوجب تأويل نصوص القرآن والسنة النبوية على وفق قول ابى حنيفة» . وهذا الكرخى امام من ائمة الاحناف ، والسنة يستسقون ويستشفون بقبره ببغداد .. وحين كتبت الفقه على المذاهب الخمسة رأيت كل أوجل علماء السنة على هذا المبدأ الكرخى ، فاى عالم منهم يقلد اماما من الائمة الاربعة يجتهد بكل وسعه فى تاويل الكتاب والسنة على مذهب الامام الذى يقلده .

---

١ ـ كتاب نزهة المجالس ج٢ ص١٨٤ ، وكتاب مصباح الظلام ج٢ ص٢٥ كما جاء فى كتاب الغدير للامينى ج٧ ص٢٤٤ .

ابعد هذا يقال : انفكرة العصمة مختصة بالشيعة وحدهم ؟ . وهل فيعقيدة الاثنى عشرية مايشبه هذامن قريب ، امبعيد ؟ . ولقد جاء فى كتبهم انالائمة الاطهار منأهل بيت الرسول (ص) قالوالشيعتهم : « لا تقبلوا علينا خلاف القرآن ؛ فانتحدثنا بموافقة القرآن ، و بموافقة السنة ، اناعناللهوعن رسوله نتحدث ،فاذا اتاكم منيحدثكم بخلافذلك فردوه ، ان لكلامنا حقيقة ، وان عليه لنورا ، ومالانورعليه فذاك قول الشيطان » .

وماقالالشيعة بعصمة اهلالبيت الالانهم لايقولون ولايفعلون الا بوحى الكتاب والسنة .

وقال الشاطبى فى الموافقات ج٣ ص٧٧ : «انطائفة منالسنةقالت ان قولابىبكر وعمرحجة ودليل» . وليسمن شك انكلمناستدلبقول انسان ، واتخذمنه حجة للحق فقد قالبعصمته ؛ اراد ذلك ؛ املم يرد.. هذا الى ان السنةاجمعواقولا واحد اعلىعصمة الامة لحديث «لاتجتمع امتى على ضلالة » . واذن ، محمد (ص) هوالمصدرالاول لفكرة العصمة وليس الشيعة .

وندعالكرخى وغيره منالسلف الدابر، وننظرالىعالم كبير من علماءِ السنة فىهذا العصر وعميدلكلية اصول الدين فىجامعة الازهر ، و هو الشيخ عبدالحليم محمود ، فقدالف كتابا ضخما ، اسماه التفكير الفلسفى فى الاسلام ، قال فى ص ١٧١ : « لوكان هناك مايشبه ولو من بعيدرغبة الرسولفىانيتولى علىالامرمن بعده لسارعابوبكروعمرالى

بيعته» . اى ان عدم رغبة الشيخين فى ان يتولى على الخلافة دليل قاطع على ان رسول الله لم ينص بالخلافة على الامام . .

أليس هذا هو معنى العصمة بالذات ؟ . ولا ادرى كيف يسوغ لهذا الشيخ ان يستدل با متناع الشيخين عن بيعة على، ان يستدل على عدم رغبة الرسول فى خلافة على ، ولا يسوغ لغيرهم ان يستدل بمعارضة على لابى بكر وعمر على عدم رغبة الرسول فى خلافتهما ؟ .. اما حرص الشيخين على رغبة رسول الله (ص) فقد ظهرت بأجلى معانيها حين قال عمر عن خاتم النبيين: «ماشأنه ؟ أهجر؟ » كما فى صحيح البخارى ومسلم ، ومع هذا فان السنة يعتقدون بعصمة عمر، بل ويقدمون قوله على قول رسول الله ويحرمون متعة النساء والحج ،وقول ـ حى على خير العمل ـ فى الاذان لان عمر قال : «ثلاث كن على عهد رسول الله ، انا انهى عنهما واحرمهن، و اعاقب عليهن: متعة النساء ، ومتعة الحج، وحى على خير العمل» .. (انظر شرح التجريد للقوشبحى من علماء السنة ، آخر مبحث الامامة) .

وبعد، فان الشيعة الاثنى عشرية يعتمدون لعقيدتهم على بديهة العقل، وعلى كتاب الله وسنة نبيه القطعية سندا ودلالة . انظر فصل اصول العقائد مايجب بلاشرط، ويجب بشرط من هذا الكتاب) . وقد استدل الشيعة على اصل فكـرة العصمة بقوله تعالى : « لاينال عهدى الظالمين ـ ١٢٤ البقرة». وعلى عصمة أئمتهم بآية التطهير ٣٣ ، وبحديث الثقلين الذى جعل اهل البيت وكتاب الله توأمين متساوين فى هداية الخلق الى الحق . وبحديث ـ على مع الحق، والحق مع على، و حديث على مع القرآن، ـ و

القرآن مع علي ـ والحديث الاول ثابت بالتواتر عند السنة قبل الشيعة ، وقد تتبع طرقه واحصاها في رسالة خاصة الشيخ قوام الدين القمي الوشنوى، و اسماها حديث الثقلين، والحديث الثاني رواه الترمذى ج ٢ ص ٢٩٨ طبعة ١٢٩٢ هـ، وروى الحديث الثالث ابن حجر في صواعقه ص ٧٥ ، و صاحب مستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١٢٤ طبعة ١٣٢٤ و غيره (انظر كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة).

علي والعصمة:

علي ان عصمة الامام علي بن ابي طالب لاتحتاج الى النص، لانها ثابتة بالحس والوجدان من سيرته ، وتاريخ حياته ؛ ولذا آمن بها كثير من اهل الاديان والمذاهب ـ غير الاسلامية ـ من حيث لا يريدون ولا يشعرون بل آمن بها كذلك العديد من الذين لا يؤمنون بالله واليوم الاخر... و كل من درس حياة علي يؤمن ايمانا جازما قاطعا بانه يختلف عن الناس في عقله و عاطفته وجميع صفاته.. ابداً لا يشبههم في شيء ولا يشبهونه في شيء الا في الشكل...واذا لم يكن علي من هذا البشر فليس من الضروري ان يكون أله او نصف اله ، بل هو طبيعة ثالثة فوق الخلق، ودون الخالق ، او ان الله سبحانه خصه ومحمدا بمالم يخص به احداً من خلقه .

ومن شك في شيء من هذا فليقرأ سيرة علي ؛ او يقرأ بعض ما كتبه عن علي علماء الغرب والشرق ـ من غير الشيعة ـ.. و اذكر هنا كلمة واحدة مما نشره الاستاذ احمد عباس صالح في مجلة الكاتب المصرية عدد نيسان سنة ١٩٦٥ بعنوان «الصراع بين اليمين واليسار في الاسلام» .والاستاذ

صالح من كبار الادباء فى هذا العصر، ورئيس تحرير المجلة المذكورة، قال :

« لولم يسر على سيرته المثالية أكانت تبقى تلك الجذوة ـ يريد جذوة الحق كما يدل السياق ـ مشتعلة وكامنة فى النفوس» .أى ان عليا بسيرته المثلى اشعل فى نفوس عارفيه وقارئى سيرته جذوة الحق .

ثم قال : « قادمعاوية جيش الشام ، وهو الرجل الذى يمثل النقيض من على بن ابى طالب تماماً ، هو شخصية فريدة ، جمعت كل خصائص الرجل الذى لاتشل حركته أية قيمة من القيم الدينية و الانسانية . . انه ابن ابى سفيان الشهير ، و ابن تلك المرأة التى مضغت كبد حمزة عم النبى حين سقط قتيلا .. ان فى نفس معاوية ارادة الانتصار والغلب . . . ان فيه قسوة الاعصار ، و عبقرية القدر الغاشم . . انه قطب السلب المطلق الذى يصطرع فى قلب الانسان كما يصطرع فى قلب الكون ، والسلب فى الكون يتجه الى الشر ؛ والايجاب يتجه الى الخير ، وقدتصادم القطبان : السالب ـ اى معاوية ـ والموجب ـ اى على ـ بقدر ماتتيح الامكانية البشرية ان تكون سلبا مطلقا ؛ او ايجابا مطلقا » اى ان عليا فيه جميع امكانيات الخير والحق التى يمكن ان توجد فى الطبيعة البشرية ؛ كما ان معاوية فيه جميع امكانيات الشر والباطل التى يمكن ان توجد فى الطبيعة البشرية ،وقدتصادما ؛ وكل على صفته ..

ثم قال الاستاذ صالح : « لقدتربى معاوية فى حجر ابى سفيان راس القوى الرجعية فى مكة ؛ وتربى على فى حجر النبى بكل ماتحمله النبوة من فداء وتضحية وايجابية للخير المطلق»

اثبت الاستاذ صالح للامام صفات الانبياء و الخير المطلق ، و لا عدائه صفات اللؤماء والشر المطلق ، وهل للعصمةمن معنى وراء ذلك ؟ ولكن لوسألنا الاستاذصالح عن عصمة اهل البيت الاطهار لانكرهاوتشدد فى انكاره .. وهكذا كل من قرأ سيرة الائمة الابرار بقلب سليم يؤمن بعصمتهم فى جنانه تماما كما يؤمن الشيعة وزيادة ايضا ؛ ولكنه ينكرها بلسانه من حيث لايحس ويشعر .

المهدى المنتظر عند الشيعة والسنة

قديظن ان فكرة المهدى المنتظر من خصائص الشيعة .وانهامقصورة عليهم وحدهم ... وهذا خطأ فقد شاعت هذه الفكرة قبل الاسلام فى ـ اليهودية ؛ وشاعت ايضا فى النصرانية ؛وغيرها من الاديان ، واطلق على ـ المهدى المنتظر لقب والمنقذ والمحرر والمسيح والمخلص ـ بتشديد اللام وكسرها ـ اما الاحاديث التى رواها السنة عن النبى فى المهدى المنتظر فقدشغلت حيزا كبيرا من كتبهم ؛ ومنها الصحاح كالترمذى .وابن ماجة؛ وابى داود ؛ ومنهامسند احمد ؛ ومستدرك الصحيحين ، وكنز العمال ؛ و غيرذلك ؛ اما الكتب التى وضعها السنة فى اخبار المهدى بالخصوص فكثيرة ، ولعلها لاتقل عن كتب الشيعة فى هذا الموضوع كما وكيفا .

اذن فكرة المهدى المنتظر ليست شيعية فقط ، ولاسنية فقط ،بل هى اسلامية يدين بها كل مسلم ؛ بل يدين بها اليهود الذين ما زالوا فى انتظار المسيح ، وايضا يعتقد كثير من النصارى برجعة المسيح ثانية الى الارض ، وبعدان اتفق الشيعة والسنة اواكثرهم على ظهور المهدى المنتظر

وعلى اسمه ونسبه ؛ و كنيته ولقبه ، وانه يملا الارض قسطا وعدلا ، بعد هذا اختلفوا فيما بينهم : هل ولد ؛ اوسوف يولد ؟ قال الشيعة : انه ولد، و انه موجود ، ولكنه مستور ، وقال السنة او اكثرهم : كلا ، انه يولد فى آخر الزمان ... وما هذا بالامر الهم ، مادام الاختلاف فى التقديم والتاخير لافى اصل الفكرة واصولها .

لما ذا الامام الغايب

اعترض السنة ؛ ومنهم الرازى والايجى والمتعصب ابن تيمية ، اعترضوا على الشيعة ؛ وقالوا : ماالفائدة من امام غائب ؛ لايرى له اثر ولا خبر ؟ .

واجاب العلامة الحلى فى كتاب الالفين بان القصور جاء من الامة، لامن الله ؛ ولامن الامام المستور ، و حفظ هذا الجواب كل من جاء بعد الحلى ؛ و كرره فى حلقات الدرس وغيرها ، كاية محكمة ، اورواية مسلمة دون ان يفكروا فيما يمكن ان يقال عن هذا الجواب ، ويرد عليه.

واجاب المحقق الطوسى فى التجريد بان مجرد وجود المعصوم لطف سواء أتصرف ام لم يتصرف ، وتبنى هذا الجواب الملا صدرا، ولكن اورده باسلوبه الخاص فى كلام طويل ، ذكره فى شرحه لاصول الكافى كتاب الحجة ، ونحن بدورنا نلخص ونوضح مافهمناه من كلامه باسلوبنا الخاص بلا ادنى تصرف فى المعنى ، وهو ان المعصوم حجة ، مافى ذلك ريب ، ولكن للحجة وصفان : الوصف الاول :

ذاتى أى ثابت للذات بصرف النظر عن تبليغ الاحكام وبيانها للغير ؛ والزامه

بها،والوصف الثانى عرضى واضافى ،وهو تبليغ الاحكام للغير ، والقاء الحجة عليه،وبديهة ان نفى العرض لايستدعى نفى الذات؛ بل العكس هو الصحيح ، واحسن مثال نوضح به مرادهذا الفيلسوف هو ان الحجة كالماء المطلق ؛ طاهر بنفسه،ومطهر لغيره؛وطهارته الذاتية باقية على ماهى،وان انتفت طهارته العرضية أى لم يتطهر به المتنجسون . . وهكذا اذا لم تبلغ الاحكام للغير، فانها تبقى قائمة بنفسها، بل هى باقية ببقاء الله، وبهذا نجد تفسير قول الامام الصادق (ع) : «الحجة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق» - (١)

هذا توضيح لما فهمناه من كلام صدرا «المطلسم» والذى ختمه بقوله : «فافهم،ولا اراك تفهم، لانك لست من الطيارين ولا السيارين» اجل؛ يا استاذنا ولا من الغواصين فى بحار التكوين .

وبعضهم اجاب بما رواه مسلم فى؛آخر باب الامارة عن رسول الله (ص) انه قال:«من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية».

بتقريب ان لكل زمان اماماً تجب معرفته ؛ وقال القزوينى فى كتاب الامامة الكبرى:جاء فى هذا الحديث ج٢ ص٩٦ من مسند احمد بلفظ : «من مات بغير امام مات ميتة جاهلية» ومثله فى حلية الاولياء ج٣ص ٢٢٤ ، وكنز العمال،كتاب أحكام البيعة؛ ومستدرك الحاكم .

هذا ملخص سريع لما اطلعنا عليه من الاجوبة؛وسواء أكانت فى واقعها رداً وتفنيد الاعتراضات السنة ، ام كانت بسطا وشرحا لعقيدة الشيعة بلا رد وتفنيد ـ فاننا نعطف عليها مايلى :

---

(١) قد يكون المراد بالحجة فى هذه الرواية ـ حكم الله سبحانه فى كل واقعة من حيث هى ، يصيبها من اصاب،ويخطئها من اخطا كما يقول الشيعة .

ان الاصول الاولى للدين كالايمان بالتوحيد ونحوه - ينظر اليها من خلال العقل، مافى ذلك ريب، اما الايمان ببعض التفاصيل والغيبيات المتفرعة عن الايمان بالله وكتبه ورسله ، كالايمان بوجود الجن والملائكة فلاينظر اليه من خلال العقل؛ او العرف والتقاليد، وانما ينظر اليه من خلال كتاب الله ، وسنة نبيه؛ قال تعالى: «ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوة» اول البقرة فالايمان بالغيب هو الوصف الاول للمتقين وتأتى بعده اقامة الصلاة مع العلم بانها عمود الدين . .والغيب هو الذى لايمكن التوصل الى معرفته الا بالوحى من السماء من كتاب الله وسنة الرسول :«وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الاهو- ٥٩ الانعام» والايمان بوجود المهدى المنتظر ايمان بالغيب؛ وكل ايمان بالغيب يقاس بالوحى وحده؛ فان كان له مصدر منه فهو حق وهدى؛ سواء أكان له اثر كالايمان باليوم الاخر، أم لم يكن كالايمان بوجود سفينة نوح ،وناقة صالح؛ واذا لم يكن له مصدر فى كتاب الله وسنة نبيه فهو جهل وضلالة، وقد ثبت عند الشيعة النص عن المعصوم ان المهدى حى يرزق، فوجب ان يؤمنوا ويتعبدوا بهذا النص حتى ولو لم يثبت عند غيرهم، والا كانوا من الذين عناهم الله بقوله: «يقولون بافواههم ماليس فى قلوبهم» لان الشرط الاساسى لوجوب العمل بالنص هو أن يثبت عند الباحث عنه، والمطلع عليه ،لاعند غيره ، وليس من شك انه لو ثبت النص عند السنة على وجود المهدى الآن وقبله وبعده لقالوا بمقالة الشيعة، وان لم يكن للغائب اى اثر وخبر، وايضاً لو لم يثبت النص عند الشيعة لقالوا بمقالة السنة .

والاختلاف فى ثبوت النص وعدمه كثير بين المسلمين، ومنه ماجاء فى صحيحى مسلم والبخارى كتاب العيدين- من ان ابا بكر دخل على رسول الله

فی بیت عائشة، فوجد جاریین تغنیان فی محضر النبی ،فغضب ابو بکر، وقال : مزمارة الشیطان عند رسول الله(ص)؟.فقال النبی: دعهما. فصدق السنة وآمنوا بان النبی کان یستمع لمزمارة الشیطان علی حد تعبیر ابی بکر ، آمنوا ثقة بالبخاری ومسلم ، وانکر الشیعة ذلك، لانهم لایثقون بالبخاری ومسلم لا،لانهما من السنة فان الشیعة لاینظرون الی مذهب الراوی ، بل الی صدقه فی النقل،وروایته عن الصادقین، وقد ثبت عند الشیعة، وعند جماعة من السنة ایضاً ان البخاری ومسلم یرویان الصحیح والضعیف:هذا من جهة،ومن جهة ثانیة ان الشیعة ینزهون مقام النبوة عن الشیطان ومزماره.. ولکل رأیه ووجهته .

واذن؛ فالمهم هو ثبوت النص عند من اطلع علیه بصرف النظر عن حقیقة الثابت بالنص و آثاره . . وعلیه یکون اعتراض السنة علی الشیعة بعدم الخبر والاثر للامام ـ فی غیر محله ،والاجاز للشیعة ان یعترضوا علی السنة لانهم آمنوا بان الرسول استمع لمزمار الشیطان .

وتسأل: ان هذا یصلح جوابا لاعتراض السنة وانتقادهم ؛ مافی ذلك ریب،بل یصلح رداً لکل شبهة تقال حول الایمان بالمغیبات ، ولکن نود ان نعرف ما للایمان بالامام من فوائد. فهل لك ان تبین شیئا من ذلك .

الجواب :

ان الامة اوالطائفة والجماعة لها مقومات تحقق وحدتها ، وتجمع شتاتها ، وتربط افرادها بعضهم ببعض ، و یستحیل ان توجد الوحدة بین اثنین فضلاعن الامة اوالطائفة الابجامع ورابط بینهما ، و الجامع الاول

بين المسلمين ـ على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم ـ شهادة ان لا اله الا الله و ان محمدا رسول الله ، اما المسلمون السنة فتجمعهم هذه الشهادة مع الايمان بان النبى (ص) انتقل الى ربه دون ان يوصى ، و يستخلف احدا ،اماالجامع بين المسلمين الشيعة فهو شهادة انلاالهالله وانمحمدا رسول الله مع الايمان والاقرار بالولايـة للائمة الاطهار من اهـل بيت الرسول ؛ و انه قد نص مباشرة على منكان منهم فى عهده ؛ و بالواسطة على من جاءمن بعده ـكما اسلفنا ـ واكدالشيعةعلى هذهالولايةتوكيدهم على التوحيد والنبوة ؛ و اوجبوا البحث و النظر لمعرفة الامام المعصوم تماماكما اوجبوه لمعرفة الله ونبوة محمد (ص) ، و قد استدلوا على ذلك بنصوص كثيرة ، منها « لا يكون العبد مؤمنا حتى يعرف الله و رسوله ، والائمة كلهم ، وامام زمانه»

والمراد بامام الزمانالمعصوم الغائبمن اهل البيت ؛ اماالحكمة من وجوده ـكمانرجح ـ فهى ان هذاالايمان هوالضامن والكفيللعقيدة الولاية واستمرارها مدى الحياة، لان الاعتقاد بوجود امامهمن آل الرسول فى جميع الازمنة ، وان الارض لوخليت منه لساخت باهلها ـ يشدعزم الموالى ؛ ويدفعه الى الحرص عليها ، والاستماتة فى سبيلها ..ومنذ ايام قرأت لبعض حاملى شهادة الدكتوراة فى الفلسفة ـ كلمة تقول : « كيف استطاعت عقيدة التشيع ان تعيش فى قلوب قومالى اليوم بالرغم مماحاط بهم من اضطهاد فكرى وسياسى ، بينما اندثـرت فرق جديـرة آراؤها بكل اعجاب وتقدير ، واعنى بهم المعتزلة» .

وقد غاب عن هذا المتعجب ان السبب لبقاءِ عقيدة التشيع وخلودها هو الايمان بولاية المعصومين من اهل البيت الاطهار: واحياء ذكرهم وآثارهم وسننهم ، والايمان بان الارض لاتخلومن واحد منهم منزه عن الخطاءِ والخطيئة .. ولوان المعتزلة دانوا وآمنوا بهذا الولاءِ لآل محمد (ص) لبقوا وبقيت آراؤهم الى يوم يبعثون تماماكالشيعة والتشيع ؛ و ولكنهم رفضوا ذلك ، فاندثروا واندثرت آراؤهم مع انها جديرة بكل اعجاب وتقدير على حدتعبير الدكتور المذكور، وكما سقط المعتزلة سقط الى الابدكثير غيرهم كالنواصب ومن اليهم من اهل المذاهب .

هذا، الى ان الايمان بوجود الرئيس ـ مستوراكان ام مشهورا ـ يخلق في نفوس اتباعه قوة معنوية تجعل منهم اسرة واحدة ، وقلبا واحدا على اختلاف لغاتهم وتعدد اوطانهم ؛ و لهذه الغاية حافظ المسلمون من قبل على منصب الخلافة بعد ان اضمحلت الدولة العباسية ، واضطر البويهيون وغيرهم من الحكام ان يبقوا لقب الخليفة لواحد من العباسيين، يخطبون باسمه في المساجد وعلى المنابر، ويقدمونه في الاحتفالات الدينية وغيرها و ماكان له اى اثر ولا خبر الا الحرص على وحدة المسلمين والاخوة الاسلامية . . وقد ضج كثير من المسلمين عند سقوط الدولة العثمانية ، وقامت قيامتهم خوفا على منصب الخلافة من الضياع والزوال ، ورثاها شوقي باكثر من قصيدة ، وقال فيما قال :

قل للخلافة قول باك شمسها بالامس لما أنت بدلوك

وقال من قصيدة ثانية :

الهندوالهة و مصر حزينة تبكى عليك بمدمع سحاح

والشام تسأل والعراق وفارس أمحامن الارض الخلافة ماح

وكلنا يعلم منهم الخلفاء العباسيون والاتراك العثمانيون ؟ . . .

ولكن الرثاء والبكاء كان على منصب الخلافة ، لانه اللواء الذى ينضوى تحته كل من نطق بالشهادتين، وهذى هى بالذات الحكمة من الايمان بالامام المنزه عن الخطا و الخطيئة وأن كان مستورا ، و هى حكمة بالغة تجمع قلوب الموالين لال البيت على الاحساس المتحد.. وقدادرك هذه الحكمة الانكليز، وهم من ارقى الامم ، فحافظوا على التاج البريطانى ؛ ووضعوا رسمه على العلم والسلع ايضاً للدلالة على انهم اسرة واحدة لاب واحد و هو حامل التاج مع انه اسم لغير معنى ، و حاكم بلا امر ونهى . . ولا يصل اليه احد من رعيته واهل مملكته الا القليل النادر . . وهكذا ميكاد و اليابان الذى ينظر اليه اليا بانيون كاله او نصف اله . . فهل الانكليز واهل اليابان عقلاء والشيعة مجانين ؟

حياة المهدى المنتظر :

وتسأل: يقول الشيعة: ان المهدى محمد بن الحسن (ع) حى يرزق، وان حياته سوف تمتد الى آخر الزمان ..وليس من شك ان هذا جائز و ممكن فى نظر العقل، ولكن العبرة بالوقوع؛ لا بالامكان ؟ .

واجاب عن هذا بعض من سلف،وليته لم يجب .. قال : وأى اشكال فى ذلك؟ .فالخضر حى،والشيطان حى ! .. ولو سمع او قرأ احد المتشككين هذا الجواب لصار شكه يقينا ، وتحمل المسئولية نفس المجيب اذا لم

يكن من الغافلين الذاهلين . . ولاادرى كيف تجرأ على التمثيل اوالا ستشهاد بالشيطان ! . وكان الاولى ان ينزه عنه مقام العصمة والامامة ؟.

والحق ان الجواب عن هذا السؤال لانجده عندالعقل من حيث الوقوع الذى اراده السائل، وان حكم العقل بالامكان، ولكنه غير مراد للسائل . . . ونجدالجواب جلياً واضحاعندالدين ، و يستسيغة و يؤمن به كل من آمن بالله وكتابه وسنة نبيه ، على شريطة ان يثبت عنده النص الصحيح الصريح على ذلك؛ و قدثبت هذا النص عندالشيعة دون السنة او اكثرهم ، فآمن به اولئك ، وانكره هؤلاء وما اكثرما حدث ذلك . . ولكل رايه وعذره ؛ ومالاحد منهما ان يعترض على الاخر؛ لان الشرط الاساسى للعمل بالنص هو ان يثبت عند من يطلع عليه ، لاعند غيره ، كما اسلفنافى جواب من قال : أية جدوى من الايمان بامام غائب ، لااثرله ولاخبر .

ومما قلناه فى كتاب المهدى المنتظر والعقل : ان كثيرا من الناس يخلطون بين الممتنع عادة، والممتنع عقلا ، ويتعذر عليهم التمييز بينهما، فيظنون ان كل ماهو ممتنع عادة فهوممتنع عقلا .. فلقد اخبر القرآن بصراحة لاتقبل التأويل ان السيد المسيح كلم الناس ، وهو فى المهد ،و ابرأ الاكمه والابرص من غير علاج ، وانزل مائدة من السماء بمجرد الدعاء ، وانه مازال حيا ، و سيبقى حيا الى الوف السنين او الوف الالوف ! .

وان النار كانت بردا وسلاما على ابراهيم ، وان عصاموسى صارت

ثعبانا ، وان الحديد لان لداود ، وسبح معه الطير والجبال ، وان سليمان استخدم الجان ، وعرف لغة النمل والطيور .

وهذه الخوارق ممتنعة عادة ، جائزة عقلا ؛ ولو كانت ممتنعة فى نفسها لامتنع وقوعها على يد الانبياء وغيرهم .

ولانها جائزة فى العقل ، واخبر عنها الشرع وجب التصديق ، فكذلك بقاء المهدى جائز عقلا واقع دينا بشهادة الاحاديث الثابتة عن رسول الله و اهل بيته المعصومين ، والايمان بوجوده حياليس باعظم من الايمان بتلك الخوارق ، بل الجميع من باب واحد .

اشارة

ونختم الفصل بهذه الاشارة ، وهى ان فكرة العصمة وال ١٢ اماما من قريش ، والمهدى المنتظر والمتعة كلها اسلامية ، لامذهبية سنية ، ولا شيعية ، لاتفاق المسلمين عليها جميعا وانما الاختلاف فى الصغرى والتطبيق ، فالسنة ينسبون العصمة للامة ، وبعضهم ينسبها للشيخين ايضا ابى بكر و عمر كما اسلفنا ، والشيعة يثبتونها للائمة الاطهار من آل محمد (ص) ؛ و السنة يعدون ال ١٢ اماما من غير اهل البيت ، والشيعة يوجبون الحصر بهم ، والسنة يقولون : المتعة شرعت ، ثم نسخت ، و الشيعة يقولون : لم يثبت النسخ . ولو ثبت عندهم لقالوا بمقالة السنة ، ولو لم يثبت عند السنة لقالوا بمقالة الشيعة ، والسنة قالوا : لم يلد المهدى بعد ، وقال الشيعة ولد. وهكذا فى كثير من المسائل .

فلسفة المعاد

التعجب من المعاد هو العجب

انا واليوم الاخر :

ماشغفت بشيىء شغفى بالقراة عن حديث الحياة بعد الموت، والاستماع اليه ، والى حل اسرار البعث والغازه واى انسان لا يتجه بكل حواسه ، ويقبل بكيانه على الحديث عنه وعن مستقبله ، وبالخصوص اذا كان عن احيائه بعد الفناء ، وخلقه خلقا جديدا .. وايضا ماتخوفت من شيىء تخوفى من القبر ووحشته ، ثم موقفى للعرض والحساب بين يدى عالم الغيب و الشهادة . ، اما جهنم فنعوذ بالله من لهيبها وكلبها .

وكل الناس من ملوك وصعاليك ينتهون ـ لامحالة ـ الى قبر؛ طوله خمسة اشبار اوستة فى عرض شبرين ونصف اوثلاثة .. ولكن هل هذا اللحد هو غاية حياة الانسان ، ونهاية عقله العجيب الغريب الذى يملك ما يملك من الطاقات ، ويفعل ما فعل وسوف يفعل من المعجزات ؟ .هل هذا اللحد هو جزاء الحق والعدل للصالح والطالح على السواءِ ؟ . وهل معنى الديمقراطية المساواة بين القاتل والمقتول ظلما وعدوانا ؛ وبين العالم و الجاهل ؟ . واذا كان الامر كذلك فاى فرق بين الا نسان و الهوام و الديدان ؟ .

وخير للانسان الف مرة ان يعيش بلاعقل؛ ويمتلىء دماغه بالقذارة من ان يكون له عقل نير يرتفع به الى القمر والمريخ ، ثم ينتهى كما تنتهى الحشرات والحيوانات .

واعجب من العجب ان يقول الانسان : انا ابن جلا ، ويرى نفسه من الذوات والشخصيات ،ويطلب من الغير ان يحترمه ويعظمه ، وان يجزى بالاحسان احسانا ، وبالسيئات عفوا وغفرانا ، وهو فى نفس الوقت يعتقد انه تماما كالنبات والحشرات ، وانه سيختفى الى الابد !.. واذن ،لماذا تكريم الاموات ؛ والحفاوة بجنائزهم ورفاتهم ؟. و لماذا اقامة الحفلات لتخليد الذكر؛ واحياء الآثار؟.

لقد آمنت باليوم الآخر اول ما آمنت تقليدا وتلقينا ، و شب هذا الايمان عن الطوق فى مدرسة النجف الاشرف ، و بلغ اشده بعد أن امتهنت التأليف ، و اذعت ما عرفت عن هذا اليوم فى كتاب«الآخرة و العقل» وفى العديد من كتبى، كالاسلام مع الحياة ،ومعالم الفلسفة الاسلامية، و فلسفة المبدأ والمعاد ، ثم عدت الى هذا الموضوع مرات ومرات فى التفسير الكاشف لمناسبة آيات الساعة والحساب والجزاء .. والآن اعود اليه فى هذا الكتاب ، ولاوقفات ولفتات جديدة لدى كى اعطفها على ما اسلفت سوى تساؤلات تؤكد وتوضح الفكرة ودليلها ـ كما رأيت ـ ولذا سأوجز الكلام ما استطعت .

وحديث المعاد يمكن تلخيصة بها تين الكلمتين : «قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم -

٧٨يس » .

ويمكن ان يؤلف فيه مجلد ضخم ،. و نتيجة الاطناب و الايجاز واحدة ، و هى ان المعاد ممكن عقلا ، و ثابت شرعا ، فيجب الايمان و التصديق .

لماذاانكروا البعث ؟

قد يقال : ان البعث والحياة بعد الموت من اصعب الحقائق فهما، واكثرها غموضا ، و ابعدها عن التصور والشعور ، لان ما من احد رأى ميتاعاد الى الحياة بعد أن فارقها انسانا كانام حيوانا ام نباتا .. واذن ، فأى عجب فى قول من قال : « أئذاكنا عظاما و رفاتاءا نالمبعوثون خلقا جديدا ـ ٤٩الاسراءِ» أى عجب فى هذاكى يعجب منه سبحانه، ويقول: «وان تعجب فعجب قولهم ائذامتنا و كناترا بااءنا لفى خلق جديد ـ ٥ الرعد » .

الجواب:

لقد اراد سبحانه بهذه الآية ان البعث فى ذاته سهل يسير على الافهام ، وان الغموض والتعقيد جاء من غفلة الجاحدين ،وسبات عقولهم عن الكون وانفسهم ، وانهم لوانتبهوا وفكروا قليلا لقاسواالآخرة على الدنيا ، وادركوا من النظرة الاولى ان الذى قدرعلى خلق الاشياءِ من لاشيءفهوعلى جمع اجزائهابعد التفرق والشتات اقدر، وعليه ايسر،كما قال ، جل شأنه :« وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، و هواهون عليه ـ ٢٧ الروم » . وقد تكرر هذا المعنى بشتى الاساليب فى العديد منالآ ـ

يات ، واوجزه الامام (ع) بقوله :«عجبت لمن انكر النشأة الاخرى ،وهو يرى النشأة الاولى »! .. وعليه يكون العجب من البعث هو العجب ! .. «ومن اصدق من الله قيلا- ١٢٢النساء » .

ولكن المصابين بداءالقيل والقال قدابوا الاانيشككوا ويضللوا قال الشيخ الانصارى فى كتابه المعروف بالرسائل ، آخرباب الظن : « الانصاف ان النظر والاستدلال بالبراهين العقلية - فيما يعودالى اصول العقائد - للشخص المتفطن لايفيد بنفسه الجزم ، لكثرة الشبهات فى- النفس ، والمدونة فى الكتب ، حتى انهم ذكروا شبهات يصعب ان يجيب عنها المحققون الصارفون اعمارهم فى فن الكلام ، فكيف بغيرهم ... و الشيطان يغتنم الفرصة لالقاء الشبهات ، والتشكيك فى البديهيات، وقد شاهدنا جماعة صرفوا اعمارهم فيها ، ولم يحصلوا منها الاالقليل » .

واوضح دليل على صدق هذا الاستاذ الكبير انك كلما اكثرت من قراءة كلام الفلاسفة ، وتوغلت فيها ازددت حيرة وارتباكا .

وبعد ، فان من تتبع اقوال الجاحدين لايجد عندهم شيئامن المنطق الامجرد الزعم بان البعث بعدالموت مستحيل الوقوع ، لانهم مارأواذلك بالعيان والوجدان !.. ومن أجل هذا كان رد القرآن الكريم فى جميع آياته يهدف الى ابطال هذاالزعم وخطئه.. ونعطف نحن على تلك الايات، اونزيدها توضيحا بان نفى الامكان واستبعاده لعدم الوقوع بالفعل -لا يصلح دليلا ولا قرينة على النفى ، فبالامس القريب كان احفادنا ، وهم الذين ألفوا الهاتف والطائرة والتلفزيون - مثلا - ولم يستبعدوا شيئامن

ذلك كما استبعدناه نحن من قبل، كان هؤلاء الصغار الى ايام قلائل يستبعدون ولا يتصورون ابدا صعود الانسان الى القمر ، ويرونه فوق قدرة العقل ؛ و مع هذا صعد الانسان الى القمر ، ووطأه باقدامه وتحدث الى اهل الارض من فوقه ؛ وسمعه العالم كله حتى الاطفال.. بل رأوه يمشي، وينتقل عليه من مكان الى مكان ! . .

أبعد هذا نقيس امكان البعث بالمألوف والمعتاد ؟ . ومالنا وللزهرة والقمر.. لندع السماء ومافيها ، وننظر الى اشياء هذه الارض صغيرها و كبيرها من النملة وطاقاتها الى الجبال والبحار ، ونفكر قليلا في عجائبها ، ولابد ان ننتهي من هذا التفكير الى اننا لو لم نر النملة بالعيان والوجدان ـ فضلا عن غيرها ـ لاعتقدنا جازمين بانها من الممتنعات ذاتاً و عقلا... و هكذا حال البعث بعد الموت ماجحد به جاحد و استبعده مستبعد الا لانه مارآه بعينه ، ولا لمسه بيده .. وعلى منطقه هذا ينبغي ان ينكر ايضا الكثير من طاقاته الروحية والجسمية ، لانها لاتزال مجهولة لديه .

لماذا وجد الانسان:

ماهي الحكمة الالهية من خلق هذا الانسان الصغير بجسمه و حجمه ، الكبير بعقله وآثاره ؟ لقد اودع الله سبحانه في الانسان من ـ الاستعداد والطاقة مالم يودعه في أي مخلوق آخر ، وبهذه الطاقة وهذا الاستعداد بحث الانسان عن نفسه ، وعما وراء الطبيعة ، وعن الطبيعة ، و سخر الكثير من اشيائها ؛ ولايزال ، وسوف يسخر ها او يسخر منها مالا تتصوره العقول والاوهام.. هل الغاية او الحكمة من خلق الانسان ووجوده

ان يقيم فى هذه الارض امدا قصيرا ، ثم يذهب بلا رجعة تماما كما يدخل بعض المطاعم مختارا او مضطرا ؛ ثم لا يعود اليه ؟ وهل يحتاج هذا الدخول والخروج الى كل الطاقات والاستعدادات التى زود الله بها الانسان ؟

ولا جواب لهذا السؤال الا عند خالق الانسان ، فهو وحده الذى يعلم ماذا أراد من خلقه .. ان الاطباء وعلماء التشريح يعرفون اعضاء الجسم ووظائفها ووجه الترابط بينها ، وتكييف كل عضو منها مع الاخر ، وعلماء الكيمياء يعرفون ما فى جسم الانسان من مواد وعناصر ، وعلماء النفس يعرفون ما فيها من خصائص وغرائز حيوانية وانسانية ، وعلماء التاريخ يعلمون ما فعل الانسان وما عجز عن فعله ، وقد يعلم علماء الاثار عمر الانسان على هذه الارض .. اما الحكمة من خلق الانسان فلا يعلمها الا خالق الانسان وموجده .

وقال مؤلف معاصر : «لا يزال وراء النصوص الدينية المتعلقة بخلق الانسان من الاسرار ما لا نعلم ، كما ان علم الانسان بنفسه وبامكاناته الهائلة لا يزال محدودا الى الان ، وربما استطاع الانسان ان يعرف عن الكون المادى اكثر مما استطاع ان يعرف عن اسرار نفسه» .

ونحن نقول مع هذا المؤلف : ان الانسان يعرف عن غيره اكثر مما يعرف عن نفسه ؛ وان هناك اسرار الخلق الانسان لم تفسر بعد ، ونقول ايضا : ان النصوص القرآنية لم تتحدث بالتفصيل : وتبين بصراحة ما هو القصد الاول من خلق الانسان ووجوده .. ولكن بوسعنا اذا امعنا النظر فى بعض الايات ان ندرك الحكمة من وجود الانسان ، وانه وجد فى هذه الدنيا الفانية ليستعد ويهيىء نفسه لحياة ابقى واكمل ، فوجوده الاول وسيلة ، ووجوده الثانى هو

الغاية .

قال تعالى: «ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين ـ ٣٦ البقرة» . أي ان الانسان يتمتع في هذه الحياة، ويستثمر محاصيلها وخيراتها ، انه يبني بيتا، او يفتح متجراً ، او يفرس بستانا، ولكن ماهو بالمالك الحقيقي لشيء من ذلك، وانما هو حارس يسلم ما في يده للاولاد الوافدين من بعده ، ثم ينتظر الاحفاد دورهم في التسلم والتسليم.. وفي نهج البلاغة :«ماذا يصنع في الدنيا من خلق للاخرة».

وقال سبحانه:«ان الحياة الدنيا متاع وان الاخرة هي دار القرار ـ ٣٩ غافر» .

أي ان نهاية الانسان هي الاخرة؛ والنهاية هي الغاية بالذات . وقال : «أفحسبتم انا خلقناكم عبثا وانكم الينا لاترجعون ـ ١١٥ المؤمنون» . أي لو كانت الحياة الدنيا هي الغاية من خلق الانسان ووجوده لكان خلقه عبثا لامعنى له.. واذن؛ فلابد من وجود حياة ثانية للانسان تبقى ببقاء الله سبحانه. . ومن هذه النصوص تبين معنا ان الحياة الاولى وسيلة لغيرها، وان الثانية غاية في نفسها .

وتسأل : و ماتصنع بقوله تعالى : « اني جاعل في الارض خليفة ـ ١٦٥ الانعام؟ . فان ظاهر الاية يومىء الى ان الاستخلاف في الارض غاية لاوسيلة ؟ .

الجواب :

ان آيات القرآن الكريم يفسر بعضها بعضا، لانها جميعا من مصدر

واحد ، وهناك آيات كثيرة تدل بصراحة على ان الله سبحانه او جد الانسان في دار الدنيا ليتهيأ فيها بالعمل الصالح لحياة اخرى ابعد اثرا من الاولى واعظم ،وفي هذه الحياة الاعلى، يلقى الانسان الجزاء على ما قدم من اعمال في الحياة الادنى..

قال تعالى : « هو الذى جعلكم خلائف في الارض فمن كفر فعليه كفره ـ ٣٩ فاطر» .وقال : « يومئذ يصدر الناس اشتاتا ليروا اعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ـ ٨ الزلزلة» وقال . « انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا ـ ٧ الكهف » أى ان الله سبحانه اوجد الانسان في دار الدنيا ليعمل ،و تظهر اعماله التى يستحق بها الثواب .والعقاب في الاخرة ، وعليه يكون عمله في الدنيا غاية من جهة ووسيلة من جهة اخرى هو غاية بالنظر الى الامتحان و الابتلاء طريق بالنظر ووسيلة الى ان الابتلاء والامتحان الى النجاح او الرسوب في الاخرة .

ولا مانع من الجمع بين هذا المعنى ، وبين قوله تعالى :« انى جاعل في الارض خليفة » حيث قال المفسرون : معناه ان الله سبحانه استخلف الانسان على الارض ليعمرها ، وينتفع بخيراتها ؛ لامانع ابدا من الجمع فالانسان يعمر ، وينتفع ، وفي نفس الوقت يعمل صالحا . اى ان وجود الانسان في دار الدنيا عبارة عن عملية مزدوجة من العمل للدنيا، والعمل للاخرة : «وابتغ فيما آتاك الله الدار الاخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا ـ ٧٧ القصص » .

سؤال ثان : وماذا تصنع بقوله تعالى : « وما خلقت الجن والانس

الاليعبدون ـ ٥٦ الذاريات » فانه يدل بصراحة على ان الغاية من خلق الانسان هي ان يعبد الله فقط لاغير ؟

الجواب :

المراد بالعبادة هنا؛ كل عمل يرضى الله سبحانه من اى نوع كان و يكون ، وليس من شك ان مرضاة الله ، جل شأنه ، هى السبيل الوحيد الى الحياة الطيبة الدائمة ، وعليه يكون المعنى ما خلقت الجن والانس الا ليعملوا صالحا ، وبهذا العمل الصالح يحيون حياة دائمة في جنة قائمة.. وبكلمة ان قوله تعالى : «وماخلقت الجن والانس..الخ يرادف قوله : «وما امروا الاليعبدوا الله مخلصين له الدين ـ ٥ البينة» .

اى لتكون اعمالهم كلها خالصة لوجه الله سواء أكانت من نوع الركوع والسجود ، ام من نوع آخر .. ونتيجة الاخلاص فى الاعمال هى الخلود في جنات تجرى من تحتها الانهار . اما الحديث القدسى : «خلقت الخلق لكى اعرف » فمعناه ايضا لكى يعملوا صالحا باخلاص ، لان من عرف الله حقا خاف من عذابه ، ومن خاف اتقى ، ومن اتقى فهو فى جنة المأوى .

لاتوحيد ولانبوة الامع البعث:

قالت طائفة من المتفلسفين : ان المعاد ممتنع بالذات ، وان العقل يستقل استقلالا تاما بعدم امكانه جسما وروحا فضلا عن وقوعه ، لان المعدوم لايعاد ، وان من مات فات .. وتوقف آخرون عن الحكم نفيا واثباتا .

وابطل العلم الحديث زعم المانعين والمتعسفين بعد ماأثبت حدوث المادة على اسس واقعية ، وانهاتتحول الى طاقة . وان الطاقة ايضاتتحول الى المادة .

ووقفت طائفة اخرى موقفا مضادامن الطائفة الاولى ، وقالت بثقة وحزم :

«ان العقل يحكم حكمامستقلا وباتابوقوع المعاد جسما وروحا فضلا عن امكانه .. وقالت فئة من الفئات : بل يحكم العقل باعادة الروح فقط، لانهاجوهر مجرد لايقبل الفناء .. وقدتكون هذه الفئة وتلك الطائفة على حق .. ولكن دليلهما مبهم ومعقد ، وفهمه يحتاج الى عقل كبير كعقل انيشتين واديسون اللذين قلبا العالم كله رأسا على عقب ، ودفعابه الى الامام مئات السنين .

امانحن فنرفض هذا الافراط ، وذاك التفريط ، ونقف موقفا متوسطا بين الاثنين ، ونقول : ان العقل السليم يحكم بامكان المعاد حكمامستقلا بصرف النظر عن العدل الالهى والنصوص الدينية ، ويحكم بوقوعه و انه حتم لامفر منه ، ولكن مع النظر الى ثبوت النص والعدل الالهى ، امـا ثبوت النص فواضح بعدان تجاوز حد التواتر ، وبلغ الضرورة الدينية ، واما العدل الالهى فهذا بيانه :

ان الله سبحانه منح عباده القدرة ، والعقل والارادة ، ثم كلفهم و امرهم بالخير ، ونهاهم عن الشر ، وهم بالقدرة يفعلون او يتركون ،وبالعقل يميزون بين هذا وذاك ، وبالارادة يختارون فعل الخير او فعل الشر.. هذا

هوشأنه جل وعلامع عباده .. وقداطاعه منهممن اطاع ، وعصاه من عصى فيهذه الحياة ثممضى كل من الصالح والطالح الى حفرته ، دون ان يثاب المطيع ؛ ويعاقب العاصى ، بل ان كثيرا من العصاة طغوا وبغوا ، و ملاؤا الارض ظلما وفسادا؛ ولم يحاسبهم محاسب ، ويسألهم سائل .

فان افترض انه لا بعث ولا حساب غدا فمعنى هذا ان الظالم والمظلوم، والمؤمن والجاحد عندالله سواء بل الجائر والمفسد خير وافضل عنده سبحانه من العادل والمصلح ، والطاغية الباغية اكرم عليه ممن استشهد فى سبيل الحق والانسانية . . وليس من شك ان هذا يتنافى مع عدل الله و حكمته و قدرته ، بل ومع وجوده ايضا . . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . . وقدرأينا كثيراً من المظلومين يصرخون من الاعماق قائلين : لو كان الله موجوداً لما ابقى طاغية على وجه الارض . . وليس هذا القول الا انعكاسا عن غريزة الايمان بوجود عادل قادر يقتص للمظلوم من الظالم ، ولكنهم تعجلوا القصاص لحرقة الالم ، وذهلوا عن فطرتهم التى فطرهم الله عليها ، فقالوا اما قالوا ، وهم فى قرارة نفوسهم من المؤمنين .

ومما قلته فى التفسير الكاشف : ان اقوى الادلة على ثبوت البعث قوله تعالى : «اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب ١٧ غافر» . ان هذه الاية تحمل برهانها معها ، و تدل على نفسها بنفسها .. «اليوم تجزى كل نفس بما كسبت» ولماذا ؟ . لانه لا ظلم عند الله ، بل هو سريع الحساب . . والتحليل العلمى لهذه القضية انه لولا هذا اليوم الذى تجزى فيه كل نفس بما كسبت لكان الله ظالما لا عادلا ، ووجوده نقمة لا ـ

رحمة ، وتكليفه عبثالاحكمة .. سبحانه وتعالى عمايصفون .. والنتيجة الحتمية لهذا المنطق ان كل من انكر البعث والحساب والجزاء فقدانكر وجودالله ، لاعدله فقط من حيث يريد، اولايريد .

هذا ، الى ان فكرة البعث تقضى على فكرة العدم التى تغرق الانسان فى الشعور بالتفاهة والضياع ،وتقتل فيه معنى وجوده وتسلط عليه اليأس و الكابة . . الامر الذى يحطم حياته اويدفعه الى الاستغراق المجنون فى الفردية وانتهاب الملذات وبعد،فلاتوحيد ولانبوة الامع البعث والحساب والجزاءولا بعث ولا جزاء الامع التوحيدوالنبوة،فكل واحدمن الاصول الثلاثةمتمم للاخر،وبالجميع يحكم العقل مباشرة اوبالواسطة،وبهذاوحده يطمئن القلب،ويجعل للانسان معنى،وللحياة حقيقة،قال انيشتين:ان الشخص الذى يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى ليس تعيساً فحسب ولكنه غير مؤهل للحياة» وقال افلاطون : لولم تكن للانسان حياة ثانية لكان القرد اشرف منه .

وقال الفيلسوف الالمانى «كنت» : على الانسان ان يكون فاضلافى أخلاقه و اعماله كى تتحقق له السعادة ولن تتحقق بحال الا اذا آمن بالله حكيم خبير، يعلم النوايا الطيبة ، و يجازى عليها ، و يكون الله وحده هوالكفيل والضامن لسعادة الطيبين . . ولما كانت الحياة الدنيا لاتحقق الجزاء الذى يفرضه القانون الاخلاقى فان الموت لايمكن ان يكون نهاية حياة الانسان، ولابدان تكون الروح خالدةلكى تستطيع مواصلة طموحها ، والاقتراب من غايتها ،وهذالايكون بطبيعة الحال الافى حياة

اخرى .

وقال جماعة من الفلاسفة : ان الله سبحانه قادر عظيم و عليم حكيم فيستحيل ان يوجد الادنى حيث يمكن وجود الاعلى واى عاقل يختار النقص على الكمال ، والعدم على الخلود ؟ . وليس من شك ان خلق الانسان لحياة باقية اولى واعلى من خلقه لحياة فانية .

المعاد الجسمانى:

المعاد الجسمانى ممكن عقلا، وثابت شرعا بصريح الكتاب والسنة المتواترة ، واجماع المسلمين كافة فى كل عصر ومصر حتى اصبح ضرورة دينية ، والايمان به من اصول الدين الاساسية التى يجب البحث والنظر لمعرفتها تماما كالتوحيد والنبوة ، و من انكر المعاد جسما و روحا ، او جسما فقط فقد انكر الجنة والنار من حيث يريد او لا يريد ، لان اوصافهما فى النصوص مادية تبصر بالعين ، و تسمع بالاذن، وتذاق بالفم : وتلمس باليد، كالغرف والاشجار؛ والكؤس والانهار، والحور والولدان، والحدائق والاعناب ، ولا موجب للتأويل بعد حكم العقل بالامكان، وليس من شك ان انكار الجنة والنار رد صريح على ما ثبت بالضرورة عن الله و رسوله .

اما القول بان هذه الاوصاف كناية عن لذة الروح او ألمها، وان الحكمة من هذه الكناية مجرد الترغيب والترهيب، او مجرد التقريب الى الاذهان ، او هما معا، اما هذا القول فمبهم، ورد على الله ورسوله بطرح النصوص القطعيه متنا وسنداً . . وفوق هذا فنحن لا نتصور راحة وتعبا ، ولذة وألما من غير جسم؛ كما لا نتصور جسما يتبلل بالماء، لا لشيئى الا لان ظله قد ارتسم فيه

وايضاً لانتصوران كوكباً عظيماً تسعه مرآة صغيرة لان صورته قد انعكست فيها.. ان الملذات الروحية وآلامها ترتبط بالجسم ارتباطا وثيقا.. حتى الحب العذرى يعتمد على النظرات والابتسامات وعلى عذوبة الحديث واسلوب الحركات . . وقد ثبت فى العلم الحديث حركة بلاحياة ولاندرى : هل ثبت فيه حياة بلا حركة اوحركة بلاجسم.؟

اقول هذا وقد قرأت اقوال المتصوفة وبعض الفلاسفة عن نشوة الروح ومرحها وبهجة العقل واشراقه حين يتحرران من ظلمة الجسم وكثافة المادة قرأت الكثير من هذا النوع ولكنى مافهمته ولاهضمته ولماذا؟ . هل لانه كلام فارغ لامحصل له اولان فهمى بليد وآسن .

وقال صاحب الاسفار : ان السيف سيف بحده لا بحديده» . . ونقول له : ولاحد للسيف من غير حديد . .وان قال :ان الحديد محمول لاحامل وقابل لافاعل قلنا فى جوابه: لااثر للفاعل الا بوجود المنفعل . . واذن فلابد منهما معاوهذى هى الحال بالنسبة الى الروح والجسد فلاغنى لاحدهما عن الاخر حيث لاتوجد متطلباتها الابه ولايشعر هوالابها(١) .

ومن اجل هذا آمنا وآمن كل عارف باعادة الانسان روحا وجسما تماما كما كان فى حياته الاولى ولاغرابة فان قدرة الله لايعجزها شيئ ولا تفتقر الى اداة وآلة..انه يقول لغير الكائن كن فيكون وللانسان الذى صار ترابا وعظاما عدالى سيرتك الاولى فيعود بجسمه وحجمه، ودمه ولحمه وبملامح وجهه وخطوط اصابعه وعدد شعرات رأسه وبدنه التى تختلف فى كل فرد

(١) صاحب الاسفار يوكد المعاد الجسمانى، ويصر عليه، وذكر هذه الجملة «السيف بحده لا بحديده» تمهيد الاثباته، وناقشناه بقصد التوضيح ودفعا للالتباس .

عن الاخر منذ الانسان الاول الى الانسان الاخير كل هذه وغيرها تعود الى سابق عهدها كما كانت تماما وكمالا .

وتسأل : هناك ادلة تقول : الانسان بعد موته ، وقبل بعثه اما فى عذاب ، واما فى ثواب ، حسب عمله ، واذا كانت الروح لا تحس بشقاء او هناء بدون الجسم ـ كما قلت ـ تكون هذه الادلة حكما بلا موضوع ، ولفظا بلا معنى ، لان جسم الانسان خلال هذه المدة تراب ويباب ، وابعد ما يكون عن روحه ؟.

الجواب :

يجوز فى حكم العقل والعدل ايضا ان الروح بعد ان تفارق جسمها الطبيعى تتصل بجسم آخر مثله ، ويكون هذا الاتصال سببا لنعيمها او جحيمها تماما كالماء يبرد بالثلج ، و يسخن بالنار .

وروايات اهل البيت (ع) تدل على ذلك قال الامام الصادق (ع) : اذا قبض الله ارواح المؤمنين صيرها فى قالب كقالبها فى الدنيا فيأكلون و يشربون ويتعارفون قال الشيخ البهائى : وامثال هذه الاحاديث من طرق الخاصة كثيرة ؛ وروى العامة ما يقرب منها انظر الاربعين حديثا ص ١٩٠ وما بعدها لهذا الشيخ الجليل .

وليس لقائل ان يقول : ان هذه المادة الجديدة لم تأت بجناية ؛ ولم تدر ما الغاية ؛ فكيف يتخذ الله من عذابها وسيلة لعذاب الروح التى جنت واخطأت ، لا يحق لاحد ان يقول هذا كما لا يحق له ان يقول : ما ذنب الحطب حتى يحرق ، والقمح حتى يطحن ، والحجر حتى يكسر ؛ لان كل ذلك وما

اليه غير قابل بطبعه للالم والعذاب.. وانما اتخذ وسيلة اليه .

وقال صاحب الاسفار فى ج ٢ من السفر الرابع طبعة ٣٧٩ هـ : ان النفس بعد ان تفارق البدن تدرك بقوتها الخيالية الجزئيات و الماديات، ومن ذلك مايحدث لبدن الميت فى قبره ، ونعيم النفس وجحيمها انما يكونان بمجرد تصورها لما يعرض لبدنها المقبور، وان سعة القبر عبارة عن انشراح الصدر ، وضيقه عبارة عن ضيقه . ثم قال صاحب الاسفار فى ص٢٢١: « ان النفس اذا فارقت البدن بقى لها من البدن امر ضعيف الوجود ، فوقع فى الحديث النبوى التعبير عنه بعجب الذنب » . بفتح العين اى اصل الذنب .

وان دل هذا القول على شيىء فانما يدل على ان النفس لاتتألم و لاتتنعم الاعلى صعيد البدن اوتصوره ـ على الاقل ـ .

الآكل والمأكول:

وتسأل : ان للمعاد الجسمانى محاذير ، و اهمها الشبهة الذائعة والمعروفة بشبهة الآكل والمأكول ، وهى كما فى الاسفار: «احتج من انكر البعث بانه ان اكل الانسان انسانا فالاجزاء الماكولة ان اعيدت فى بدن الآكل لم يكن الانسان المأكول معاداً ، و ان اعيدت فى بدن المأكول لم يكن الآكل معادا ؛ ولزم ان تكون الاجزاء الماكولة بعينها منعمة و معذبة اذا اكل مؤمن كافرا »

واجيب عن ذلك فى الكتب الكلامية بان المعاد هو الاجزاء التى منها ابتداء الخلق ؛ و هى الاعضاء الاصلية عندهم ، والله يحفظها ، ولا

يجعلها جزء البدن آخر» .

ثم قال صاحب الاسفار ما معناه : ان هذا الجواب لا يفي بالغرض، والحق ان كل ممكن في نظر العقل ، ودل عليه الوحي يجب الايمان به، والبعث الجسماني ممكن عقلا ،وثابت وحيا ، فوجب التصديق والايمان.. اما اقيسة الفلاسفه واهل المنطق فما هي بمعصومة عن الخطأ ..مع العلم بان صاحب الاسفار اجاب عن هذه الشبهة في غير مكان من اسفاره بهذه الاقيسة التي لا تغني عن الحق شيئا .

جهنم والاسلحة الجهنمية.

وتسأل : لقد ذكر سبحانه في كتابه صور العذاب اهل النار ، قراءتها تبعث الرعب في القلوب والنفوس ؛ و القشعريرة في الجلود ، و التوتر في الاعصاب ، فكيف بمن يذوق ويختبر..ومن هذه الصور حشر المجرمين مكبلين بالقيود ، يلبسون ثيابا من مادة شديدة الالتهاب، ، وعلى وجوههم غطاء و غشاء من نار، اما طعامهم فمن شجر الزقوم ، و شرابهم من ماءٍ الصديد ، هذا و هم في جحيم لا يقضى عليهم فيموتوا و لا يخفف عنهم العذاب .. ألا يتنافى هذا مع حلم الله ورحمته : وجوده ورأفته ؟ألا يكفي لجزاءِ هذا الانسان بلحمه ودمه بعض هذا الجحيم الاليم ؟.

الجواب :

ان في الناس مجرمين يستحقون هذا النوع الاليم و اكثر منه ايضا لو امكن .. و من هؤلاءِ الذين يسنون للاجيال السنن السيئة ، و يحاربون الحق ، او يكتمونه وهم يعلمون ، واعظم منهم جرما تجار

الحروب الذين اعدوالسفك الدماء و تدمير الحياة الاسلحة الجهنمية كالقنابل الذرية والهيدرو جينية ، والمواد السامة التى تقتل الالوف و مئات الالوف فى دقائق معدودات ..ان اية عقوبة يعاقب بها السفاحون فهى دون ما يستحقون ..، وليست السلاسل والاصفاد وسرابيل القطران بشيىء فى جانب تدمير البلاد وتشريد العباد ، وسلب اقواتهم ومقدراتهم وتشريدهم وتقتيلهم بمئات الالوف .. وبكلمة ان الجريمة بنوعها واثرها، لابصورتها ومظهرها .

هل هذا علم و تحقيق ؟.

وهناك مسائل كثيرة ذكرها صاحب الاسفار وغيره فى مباحث المعاد، واعرضنا عنها لانها لاتتصل بالبعث من قريب اوبعيد ، ونشير هنا الى مسألة واحدة منها كشاهد ومثال ، قال صاحب الاسفار فى الجزء الثانى من السفر الرابع فى مبحث من مباحث المعاد ص١٤٤ طبعة سنة ١٣٧٩ هـ ؛ قال مانصه بالحرف :

« العنقاء محقق الوجود عند العارفين لايشكون فى وجوده كما لا يشكون فى البيضاء وهوطائر قدسى ، مكانه جبل قاف ، و صغيره يوقظ الراقدين فى مراقد الظلمات، وصوته ينبه الغافلين عن ذكر الايات، ونداؤه ينتهى الى اسماع الهابطين فى مهوى الجهالات المترددين كالحيارى فى تيه الظلمات » .. الى آخر هذه المبهمات والمعميات .

وقال المعلق على الاسفار : جبل قاف اى قاف القدرة اذاانظرنا الى فوق ،وقاف القلب اذانظرنا الى تحت .

ولاادرى : هل هذاكشف علمى حديث يثبت المعاد بالتجربة والعيان ، ويحمل الجاحدين على التسليم و الاذعان ،او هوثورة دينية انسانية ضد الجهل والفقر والتخلف ، اوهوعبادة وتقديس ، اوهو مجرد حيرة وبلبلة ، اوماذا ؟ .

ان الاسلام ـ كماحدده القرآن والسنة النبوية . سهل يسير لا يحتاج فهمه الى منطق فلسفى ، وتفكير علمى .. انه واضح وبسيط يمكن شرحه بمنطق الفطرة فى سطرين فقط ، و يمكن ان يشرحه العلماء فى مجلدات ..

ومن اجل هذا خاطب به سبحانه الاذكياء والبلداء ؛ و حملهم المسؤلية .. كل بحسبه .. واى شيء ادل على ان الاسلام هو دين الفطرة والبساطة ـ من دعوته تعالى كل عاقل ان يتجه بنفسه الى الكون و مافيه ليتعرف على عجائب خلقه ، وبه يستدل على وجود الخالق الحكيم ، وان الذى بدأ الخلق اول مرة يعيده ، وهو بكل شيء عليم ؟ .

وبعد ، فانى احمد الله الذى هدانى الى معرفته ، والتمسك بالنبى وولاية الصفوة من عترته واشكره على توفيقى الى هذا الكتاب وغيره مما كتبت واذعت .. وماشعرت بالغبطة والسعادة كشعورى ـ وانا اختم كتابى هذا بفلسفة المعاد ـ فى مشهد الامام الرضا (ع) وجواره مساء (ه) جمادى ـ الاولى سنة ١٣٩١ هـ الموافق ٢٦ حزيران سنة ١٩٧١ م. وهو سبحانه المسؤل ان يجعل جزائى عليه ، وجزاء من استفاد منه واهتدى به شفاعة النبى و آله الابرار يوم تسود وجوه ، وتبيض وجوه . انه خير مسؤل ، والصلاة على محمد واهل بيته ، وعلى كل من استن بسنتهم ، ومات على ولايتهم .

بين الشيوعية والرأسمالية

قصة هذا الفصل

لاحظت ان تلاميذى فى دار التبليغ الاسلامى بمعزل فى معرفتهم عن الاتجاهات الفكرية والمذاهب السائدة فى هذا العصر، وانهم لا يفرقون بين الاشتراكية والشيوعية؛ وبعضهم لم يسمع من قبل كلمة الرأسمالية فضلا عن معرفته بحقيقتها واهدافها.. ومن الطريف ان احدهم قال لى فى اليوم الثانى من القاء الدرس : ما رأيت هذه الكلمة فى كتب اللغة .

فكتبت ملخصا لهذا الموضوع ، والقيته عليهم ليكونوا على بصيرة من اصوله الاساسية ـ على الاقل ـ وايضاً جعلته احد مواد الامتحان ، وكانت النتيجة مرضية ، ولله الحمد .

وما كان من قصدى ان اجعل هذا الملخص فصلا من كتاب فلسفة التوحيد والولاية؛ ولكن احد تلاميذى المتفوقين فى التحصيل والامتحان حدثنى بما اغتبطت به ، وحمدت الله عليه، قال : ضمنى مجلس مع بعض الشباب فى احدى مدن ايران، فتحدثوا عن الانظمة الاقتصادية، واشتركت فى الحديث وتفوقت كما رأى من حضر وسمع ، والفضل لله ولدرسك هذا، ولولاه ما كان امامى الا الصمت او القول بغير علم، لانى لم اكن من قبل على المام بالموضوع فشكرت الله سبحانه ،وقلت فى نفسى لو لم يكن لوجودى فى قم سوى هذه

لكفى وادرجت التلخيص هنا رغبة فى المزيد من النفع والفائدة ، وعليه سبحانه المعول .

فلسفة الشيوعية و نظامها الاقتصادى:

للشيوعية فلسفتها الخاصة بتفسير الكون والانسان بصرف النظر عن الاقتصاد و نظامه، وايضاً لها نظام يختص بالثروة وتوزيعها؛ واذن ، فموضوع كل من فلسفة الشيوعية و نظامها الاقتصادى مستقل عن موضوع الاخر ، وان كان هذا النظام وثيق الصلة بتلك الفلسفة، ولكن الصلة غير الموضوع كما ان الانسان غير الماء مع قوة الصلة بين الاثنين .

وفلسفة الشيوعية بوجه العموم تتمثل فى ان المادة هى الموجود الا سبق من كل موجود، بل هى الموجود الوحيد الذى لا شيىء غيره فى الوجود كله واطلق الشيوعيون على هذه الفلسفة «المادة الجدلية» بالنظر الى ان المادة تتغير وتتحول من الشيىء الى نقيضه باستمرار والى ما لا نهاية.. وفرعوا على هذه الفلسفة ان الانسان فى جوهره وماهيته مادة صرف وانه من صنع الطبيعة وحدها ، وانه يفنى و يزول كلية بالموت تماما كنبتة الربيع ، وانه لا طبيعة بشرية عاقلة بالذات ، ولا قيم لها مطلقة ، ولا هى بمعنى واحد عام لا فراد الانسان فى كل جيل، لانه لا شيىء فى الواقع سوى كائن طبيعى اسمه الانسان ، يندمج مع غيره من الكائنات الطبيعية « وليس ما يمنع ان يتحول فى المستقبل الى كائن آخر يكون مفهومه غير مفهوم الانسان الحالى ، وايضا لن يكون هذا الكائن الاخر هو النهائى و الحاسم ، بل يتحول الى ثالث ، والثالث الى رابع .: الى ما لا نهاية .. ففى كل حقبة من

التاريخ طبيعة بشرية جديدة تختلف عن غيرها من الحقب » .

اما الذى نراه فى الانسان من احساس وادراك وارادة فهو جانبى ثانوى يتفرع عن المادة ويتولد منها .. وبالقلم العريض ان كل مافى الانسان من خصائص كالعقل والارادة وغيرها من الغرائز انهو الا من افراز جسمه و اعضائه تماما كالعرق والمخاط وسائر الفضلات .

هذى هى الفلسفة الشيوعية فى جوهرها و واقعها .. اما الفلسفة القرآنية فانها تعترف بانسانية الانسان ، و تفضيله على المادة ، وان الله خلقه اله ولمصالحه ، قال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم .. وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ـ ٧٠ الاسراء » . وقال : « الله الذى جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء وصوركم فاحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ـ ٦٤ فصلت » .

وبعد هذا العرض الموجز نسأل الشيوعيين : هل قولكم : المادة هى الموجود الوحيد هو من وحى المادة او من غيرها ، فان كان من غيرها فقد ناقضتم انفسكم و اعترفتم بان المادة ليست هى الموجود الوحيد ، وان كان قولكم هذا من وحى المادة نفسها احتاج اثباته الى دليل مغاير للمادة لان الشيىء لا يكون دليلا ومدلولا ، ومدعيا وحاكما ؟.. والمفروض انه لاشيىء فى الوجود الا المادة ، و بالتالى فلا دليل على ماتزعمون ..

وايضا اذا كان العالم كله مادة وجب ان تكون خصائصه واحدة من غير فرق بين الانسان و غيره من الكائنات ، ولا وجه لظهور الحياة فى مادة دون مادة .. ثم هل تدرك المادة نفسها بنفسها ؟ نوجه هذا السؤال للشيوعيين

لانهم رد وا على المثاليين بان الذات المدركة ـ بالكسر ـ غير الشيء المدرك ـ بالفتح ـ وايضا اذا لم يكن للبشرية من قيم فلما ذا تقديس الشيوعية وعبادتها ؟ .. وبالتالى اذا كان الانسان مادة وكفى فيجوز تسخيره واستعباده، بل واكله ايضا تماما كما جاز ذلك فى غيره من الاشياء المادية.. واذن فعلام الصياح والصراخ للمطالبة بحقوق العمال مادام وافى حقيقتهم كالالة التى صنعوها و اداروها بايديهم ؟ اما عقولهم و احساسيهم فهى ثانوية لاقيمة لها ، لانها تولدت من المادة ذاتها تماما كالعرق والمخاط و الفضلات ؟.

اما النظام الاقتصادى الشيوعى فانه يلغى الملكية الخاصة الغاء تاما ، ويحرمها تحريما مطلقا حتى ملكية الانتاج نفسه ، و السلع الاستهلاكية فضلا عن الوسائل المنتجة كالارض والالة والعمل ، بل لايحق للانسان ان يملك ثمرة عمله بالذات برغم ان الشيوعية تفرض عليه ان يعمل حسب طاقته : ومع هذا لاشيى له من كد يمينه ، وعرق جبينه الاما يملاء بطنه ؛ ويكسو جلده، وما يأوى اليه عند مبيته تماما كوحش الغاب ، وان كان مخترعا مبدعا .

والغريب ان انصار الشيوعية يعتبرونها قمة القمم ، ونهاية النهايات؛ وفى الوقت نفسه يؤمنون بان كل شيء يتغير ويتحول الى ضده حتى اذا وصل هذا الضد الى درجة معينة تحول الى ضده . . و هكذا الى مالانهاية ؛ ومعنى هذا ان التحول والانقلاب ضرورى حتمى ، فكيف تكون الشيوعية اذن ، هى القمة والنهاية ؟ !

طبيعة الرأسمالية و نظامها

الفرق بين المالك والرأسمالى عموم وخصوص مطلق ، فكل رأس مالى هومالك، و لاعكس ... فقد يملك الانسان بيتايسكنه او بستانا او حانوتايستثمره فى سد حاجاته دون ان يمكنه من السيطرة على غيره ، و هذا يسمى مالكا فقط ، اما المالك الرأسمالى فهو الذى يملك من المال ما يقوى به على غيره ، ويستطيع بواسطته ان يتحكم باسباب الحياة العامة ولو بجهة من الجهات .. وكثيرا ما تطلق كلمة « برجوازى » على الرأسمالى .. وقداستخلصناهذه التفرقة من الاستعمال الدارج ،

والرأسمالية بطبيعتها عدوة الاديان والانسانية . لانها توغل فى احتقار الضعيف والمحروم وتعتبره آلة يتحرك لينتج الارباح لاصحاب رؤوس الاموال ، فهم وحدهم محور الوجود و غايته ، و غير هم وسيلة لتكديس الثروات فى مصارف الاثرياء . . و نتيجة لذلك يرى اصحاب رؤوس الاموال ان أى شعب يحاول الاستقلال الاقتصادى والاكتفاء الذاتى عن سلعهم و مصانعهم فهوالعد و الاكبر للدودلاصل وجودهم و حياتهم ، يدبرون ضده المؤامرات والانقلابات، وعمليات التخريب والتجسس ، ويشنون عليه الغارات سراوعلانية ، ويقفون ضده فى الامم المتحدة ؛ و يضيقون عليه الخناق اقتصاديا حتى يموت جوعا .. بل لواقام أى انسان مصنعا فى جزء من الارض ينتج سلعة ما ، ولومن نوع «العلكة» اعتبره الرأسماليون هزيمة لهم ، وطعنة فى قلوبهم ؛ لانه يقفل مصنعا مماثلا من مصانعهم .

وبعد فاذاكانت الشيوعية تقف موقفا عدائيا من الاديان و العقائد التى ترفضها ولاتدين بها فان الرأسمالية حرب على كل شعب يبتغى التقدم على المستوى الاقتصادى ، و يرفض ان تكون مقدراته و خيراته نهبا لشركات «العالم الحر» وان يكون سوقا لسلعها وانتاجها .

النظام الاشتراكى:

وللنظام الاشتراكى انواع متعددة ومختلفة ؛ ولكنه ـ على وجه العموم ـ يؤمم مصادر الثروة الكبرى كالبترول و غيره من المعادن ، و الصناعة الثقلية ، ويلغى الاقطاع والاحتكار، ويقر الملكية الخاصة فيما عدا ذلك ، ولكنه يضيق عليها الخناق بفرض القيود والشروط التى تقلم من اظافر أصحاب المال ، و تجردهم من السيطرة و النفوذ ؛ وتقرب بين الافراد والطبقات من الوجهة الماديه؛ و لاتلغى الطبقية من الاساس فى المجتمع الاشتراكى ـ كما رأى احد الباحثين ـ .

واذا امعن النظام الاشتراكى فى كثرة القيود على الملكية الخاصة، و اضعاف رأس المال ـ قرب من النظام الشيوعى ، و يسمى بالاشتراكية اليسارية ، ومثاله ان يؤذن للفرد بحيازة عشرة دنمات من الارض فقط ، و اذا خفف القيود عن الملكية الخاصة قرب من النظام الراسمالى ، و يسمى بالاشتراكية اليمينية ، ومثالة ان يحدد ملكية الارض بمئة دنم اواكثر ، واذا لم يشدد ولم يخفف يسمى بالاشتراكية المعتدلة ، كما لو جعل ملكية الارض ٥٠ دنما .

واذا نظرنا الى الاشتراكية كنظام اقتصادى و كفى بصرف النظر

عن فلسفة اربابها وعقيدتهم ؛ وبلاهوى وتحيز، اذانظرنااليها كذلك الفينا لها حسنات وسيئات.. فمن حسناتها ان الفئة القليلة المستغلة ـ كالرأسماليين والاقطاعيين وسماسرتهم ـ اختفت اوكادت من المجتمع الاشتراكى .. وايضاكان الرأسماليون وارباب المصانع يستغلون العامل استغلا لا بشعا حيث كان يعمل اربع عشرة ساعة فى اليوم باجرزهيد حتى اذا شاخ او مرض طرحوه كالقمامة ، فاضطرتهم الاشتراكيـة ان يعترفوا للعامـل بحقوقه اوبعضها كتحديد ساعات العمل، وزيادة الاجورمع نفقات التطبيب، والالتزام بقانون الضمان اوالعدل الاجتماعى كما اضطرتهم ان يبسطوا كف الهبات لبعض المشاريع والهيئات خوفا من العواقب وحرصا علـى المكاسب .

ومن سيئات الاشتراكية ان الغرض الاول من تشريعها هوالاصلاح الجذرى وقطع الطريق على المظالم والمفاسد ـ كماقال الاشتراكيون ـ فهل تحقق هذا الغرض فى البلاد الاشتراكية ، ونال كل واحدمن اهلها و ابنائها الفوز العظيم اوسلك الطريق القويم اختيارا اواضطرارا ؟. اجل ان الاشتراكية حررت الكثيرمن ظلم الرأسماليين و الاقطاعيين ما فى ذلك ريب ولكنها اعادتهم من جديد الى دكتاتورية البروليتاريا ليغدوا آلة لاتتحرك الابارادة الحاكمين ؟.

ولماذا سلطة العمال فقط لاغير؟. ألانهم معصومون عن الخطاءِ و الخطيئة اولانهم وحدهم العدول الابرار؟. ولنفترض انهم كذلك فهل كانت الكلمة الحاسمة فى دولتهم للعمال اجمعين اوللبعض منهم ؟.وقداجاب

عن هذاالسؤال زعماء الاشتركية وحماتها أجاب عنه خلفاء ستالين بانه كان هو وحده الحاكم بامره ولاشيىء لمن خالف الاالموت حتى و لو كان عاملا بل و عضوا من الحزب الشيوعى . . اذن اين حق الضعفاء وحمايتهم من الاقوياء فى ظل الاشتراكية ودولتها العمالية ؟،

و ما قرأت شيئا ابلغ واقوى فى الرد على الرأسمالية من قول الاشتراكيين وردهم على الرأسماليين وايضاماقرات ابلغ واقوى من ردهؤلاء على الاشتراكيين.. ونحن نتبنى الردين معاً ،ونبطل كلا بمنطق الاخر .

ويتلخص ردالاشتراكيين بان النظام الرأسمالى يخضع السياسة والحكم لاصحاب المال والاقتصاد،ويجعل من الدولة خادما امينا لمصالحهم والاغضبوا وثاروا وبذلوا الاموال لحربها والقضاء عليها، وجندوا الصحف والاذاعات لهذه الغاية . . فتغريهم هى بما يزيدهم قوة وثراء حرصاً على مرضاتهم وسكوتهم ، وهم يمنحونها بدورهم الثقة والتسديد ، والشعب الضحيه ومن لاحول له ولا قوة . . و كم من رجل كان قبل الحكم طاهر القلب والقصد ، ولما حكم امعن فى الفساد حرصا على سيطرته ومكانته وخوفاً عليها من اعداء الحق والعدل .

و يتلخص ردالرأسماليين بانه اذا كان النظـام الرأسمالى يخضع السياسة والحكم لارباب المال فان النظام الاشتراكى يخضع ثـروة البلاد كلها لرجال السياسة والحكم ، وتصبح الفئة الحاكمة هى المسيطر الوحيد على الاقوات والثروات ، والنتيجة الحتمية لذلك هى سلب الحـرية عن الناس ، وبالتالى لاشعب الاالدولة ، ولامال الا فى تصرفها .

و اذا بطل هذا و ذاك وجب البحث عن نظـام ثالث يحقق العدل والحرية للجميع

بين النظام الاقتصادى الشيوعى والاشتراكى

اتضح مما قدمنا الفرق بين النظام الاقتصادى الشيوعى والاشتراكى ،و زيادة فى التوضيح نشير فى هذه الفقرة الى خصائص كل منهما :

١ ـ ان النظام الشيوعى يلغى الملكية الخـاصة من الاساس بشتى انواعها ، اما النظام الاشتراكى فيلغى البعض ، ويقيد البعض الاخـر ، كما قدمنا :

٢ ـ النظام الشيوعى يمحو الطبقـات حيث لامالك لشيئى على الاطلاق،اما النظام الاشتراكى فيقرب بينها ولا يلغيها كلية حيث يكون فى الناس مالك صغير ومقيد ، ولا مالك اطلاقا .

٣ ـ الحكم والسلطة فى النظام الاشتراكى بيد «البـروليتار يا» أى العمال ، فهم وحدهم يشرفون على ثروة البلاد و يتصـرفون فيها ، اما الشيوعية فان اختصت بجزء من الارض ، ولم تعم وتشمل العالم بكامله فلابد لها من دولة تحافظ على ارضها وحدودها من الاعتداء ، وهذه الدولة بطبيعة الحال تمثل جميع الافراد حيث لاطبقات ولا صراع . . وان عمت الشيوعية العالم كله ، وانصهر فيها جميع الناس فلايحتـاجون انذاك الى دولة على الاطلاق حيث لاطبقات وقوميات ؛ ولا جباية ضرائب ولاحدود ، ولا ملكية خاصة تحتاج الى حماية .

وخفيت هذه الحقيقة على بعض الباحثين حيث نسب الى الشيوعيين

القول بان المحتمع الشيوعى لايحتاج الى حكومة ، وان لم تعم الشيوعية العالم كله ؛ وكان هناك حكومات غيرها «وكل حكومة اخرى على وجه الارض تتمسك بمركزها» على حد تعبيره .

٤ ـ النظام الاشتراكى يقول : من كل حسب طاقته ، ولكل حسب عمله ، ويقول النظام الشيوعى : من كل حسب طاقته ، ولكل حسب حاجته ومعنى هذا ان بعض الافراد فى المجتمع الشيوعى قد يعطى كثيراً ويأخذ قليلا كالمخترع ، و البعض الاخر قد يعطى قليلا ، و يأخذ كثيراً . كالعامل البسيط ـ بالنسبة الى المخترع ـ واذن اين المساواة ؟ .

٥ ـ النظام الشيوعى يؤمم الملكية الخاصه من غير تعويض ، والنظام الاشتراكى قد يعوض .

٦ ـ الاشتراكية عند الشيوعيين هى الخطوة الاخيرة التى يتم الانتقال منها مباشرة الى الشيوعية .

الاسلام والاقتصاد

للاسلام تشريع خاص به فى العبادات والمعاملات بشتى انواعها ، وفى الاحوال الشخصية ، والجنايات بحدودها وقصاصها ودياتها ؛ ويطلق على هذا التشريع بمجموعه كلمة الفقه الاسلامى و ايضاً يطلق عليه الاحكام العملية فى مقابل الاحكام الاعتقادية ، وايضا يطلق عليه كلمة الشريعة الاسلامية ، و بعضهم يعمم كلمة الشريعة للاحكام الاعتقادية والعملية.. وللفقه الاسلامى اصوله و تاريخه وكتبه ومعاهده . . ولا كلام فى ذلك ؛ اوسؤال . . والشيء الذى تجب دراسته ومعرفته هو :

هل للاسلام مذهب او نظام اقتصادى كامل ومفصل على غرار الانظمة التى تناولت الحياة الاقتصادية انتاجا وتوزيعا ؟ . مع العلم بان هذا النظام الاقتصادى ـ على فرض وجوده ـ وثيق الصلة باحكام الشريعة الاسلامية بوصفهما فرعين عن اصل واحد ، ومعلولين لعلة واحدة ، وهى مبادىء الاسلام و علل الاحكام .

واجاب مسلم غيور بانه لاشك فى ان الاسلام قد وضع نظاما مفصلا ومبرما للشئون الاقتصادية انتاجا حتى «الآلة والعمل » وتوزيعا على ارحب نطاق . . كيف ؟ . وهل يستكمل الاسلام لخصال الخير الا بهذا النظام .

واجاب مسلم آخر ، لايقل غيرة على الاسلام من الاول ، وقال: ان كمال الاسلام و فضله ان يترك المجتمع فى ان يختار من الانظمة للشئون الاقتصادية ما هو اصلح لـه وانفع على اساس المراعاة لمبادىء الشريعة الاسلامية .وبكلمة ان الاسلام يراقب ويحاسب جميع الانظمه الاقتصادية، فيحللها او يحرمها او يعدلها على اساس مصلحة الفرد والجماعة ، وفى نطاق الحدود التى اشار اليها سبحانه بقوله : «تلك حدود الله فلاتعتدوها ـ ٢٢٩ البقرة» . و عليه يكون للاسلام انظمة اقتصادية ؛ لانظام واحد .

واستدل هذا الغيور بمايلى :

١ ـ ان البيئات الاجتماعية تختلف وتتباين تباينا كبيراً فى ثرواتها ووسائل انتاجها و فى حاجاتها ، و ضروراتها الاقتصادية ، وفى عاداتها و ثقافتها ، بل ان المجتمع الواحد تتبدل اوضاعه ، وتتغير مع الزمن ، و يغدو النظام الذى كان يصلح بالامس من امر يفسده اليوم ، ويضر بمصالحه

فمن العسير اذن ، بل من المستحيل ان يحقق نظام اقتصادى واحد لمجتمع واحد جميع مصالحه فى كل زمان ، وفى سائر الاحوال ، فكيف بالنظام الموحد للعالم كله من اقصى المشرق الى اقصى المغرب ، وفى كل الاجيال والازمان ! .

وأى عاقل يتصور أن النظام الاقتصادى الذى يطبق الآن فى الولايات المتحدة هو اصلح وانجح نظام لليمن واهل اليمن ؟ . وان الاجدر والاليق بالكويت والسعودية ، وبعد أن تدفق النفط فى اراضيها هو نظام الصحراء الجرداء الذى كان متبعا فيهما قبل النفط ؟ .

ان رسالة محمد (ص) عامة تشمل كل جيل فى كل ارض ، والى آخر يوم . فاذا سنت هذه الرسالة نظاما اقتصاديا لمجتمع دون مجتمع ، ولبيئة دون بيئة ـ تنافى ذلك مع عمومها وشمولها ، ومع اهدافها ايضا ومن البداهة بمكان ان تعدد الانظمة بتعدد المجتمعات والاوضاع غير ممكن ، لان الاوضاع والاحوال لاحصر لها ولانهاية . . والنظام المثالى العالمى مستحيل ـ كما اوضحنا ـ فلم يبق الا السكوت ، واذا سكت الاسلام عن هذا النظام ، لانه مستحيل من الوجهة العملية والتطبيق ـ فقد اعلن وقال ـ اى الاسلام ـ بلسان الامام جعفر الصادق (ص) : «كل شيىء فيه للناس الصلاح فى جهة من الجهات فهو جائز ، وكل مافيه قوامهم ، وبلغة لجميع حوائجهم فحلال تعلمه وتعليمه والعمل به » . وبهذا المبدأ العظيم تتجلى عظمة الاسلام ، ولولاه لم يكن دين الله يسراً ، ولا للاسلام مرونة ، ولا للعقول ان تنظر وتجتهد ، وبالتالى ان لا تختم الشرائع بشريعة محمد

محمد (ص) ولا النبوات بنبوته .

٢ ـ ان الاسلام أجاز الاقطاع فى حال دون حال ، وذلك اذا دار الامر بين ان يبقى هذا الجزء من الارض بورا ومعطلا بلا انتاج مع عدم الاقطاع فى حين ان الناس بحاجة ملحة لاصلاحه وانتاجه ، وبين ان يقطعه الحاكم مؤقتا لفرد اولفئة على ان ينتج مايسد الحاجة ، ويستغنى بانتاجه عن الاستيراد من الخارج ، اذا كان الواقع على هذا فالاقطاع ارجح كوسيلة الى غيره ، لاكغاية فى نفسه تماما كأكل الميتة لمن اشرف على الهلاك .

وايضا اناط الاسلام ـ فى بعض الحالات ـ ملكية الارض بدين الانسان وعقيدته ، فلقد اجمع فقهاء المسلمين قولا واحداً على ان أى بلد مشرك فتحه المسلمون بالقوة ـ بعد ان رفض اهله الاسلام ـ انتزعت منهم الارض وتغدو بكاملها مشاعا بين المسلمين لمن كان منهم ويكون ؛ وان اسلم اهل البلد المشرك طوعا ودون قتال تبقى الارض على ملكهم يتصرفون فيها كما يشاؤن .

ولانعرف نظاما اقتصاديا اناط الملكية بالدين والعقيدة . . ولكن الحكمة والمصلحة آنذاك اقتضت هذا القيد والشرط تماما، اقتضت جواز الاقطاع عند الضرورة ، واذن ، من الخطأ ان نعتبر هذه الملكية مصداقا للنظام الاقتصادى وفرداً من افراده .. وقد فسر بعضهم هذه المصلحة بالترغيب فى الحق والتحذير من اتباع الباطل ، ونعطف على هذا التفسير : ان الاسلام ترك الخيار للمحاربين المشركين فى البقاء على ارضهم ان اسلموا ، او

انتزاعها منهم ان اصروا على الشرك والقتال ، فاختاروا الشق الثانى ، وتنازلوا عن الارض ، وهم قادرون على ابقائها والاحتفاظ بها لمصالحهم .

٣ ـ لو أن الاسلام قيد المسلمين بنظام اقتصادى خاص لاوقعهم فى العسر والحرج ، واضطرهم الى الخروج من عقيدتهم ، و بهذا يكون الاسلام هو السبب لاغرائهم بمعصيته والخروج عليه كالحاكم الجائر يحرج الرعية الى الخروج عن طاعته .

٤ ـ اتفق فقهاء المسلمين على ان كل شيىء جائز وحلال اذا لم يحرم حلالا ، او يحلل حراما ، وان الاسلام قد أقر الناس على عاداتهم و اوضاعهم وانظمتهم ومعاملاتهم ، وأباح لهم كل ما يأتى به الزمن على ان لا يتعدوا حدود الله واحكامه . . وعلى هذا الاساس ، عدل الاسلام بالتقليم والتطعيم بعض المعاملات والتصرفات ، وهدفه الاصيل اصلاح الكل ، وتوجيههم نحو العدل والاحسان ، وصيانة الحقوق و الحريات للناس على السواء ؛ وتوطيد الصلات فيما بينهم ، فلا يطغى انسان على اخيه بالاستغلال ، او التعدى على حق من حقوقه .

هذا ما اجمع عليه علماء المسلمين ، بل هو من ضرورات الدين .. ونذكر من اقوالهم عبارة لقطب من كبارهم ، و هو الميرزا النائينى فيما رواه عنه تلميذه الخراسانى فى فوائد الاصول ج٤ ص١٤٠ ، وهذا نصه بالحرف : «ان الامور الا عتبارية العرفية التى يعتبرها العرف و العقلاء كالملكية ـ انتبه لكلمة الملكية ـ والزوجية والرقية والحرية ونحو ذلك من منشآت العقود . والايقاعات كلها ثابتة عند الناس قبل الشرع والشريعة وعليها

يدور نظامهم ومعاشهم ، والشارع امضاها بمثل «احل الله البيع .. واوفوا بالعقود .. والصلح جائز بين المسلمين ، ونحو ذلك من الادلة الواردة في الكتاب والسنة وليست الملكية المنشأة بالبيع من المخترعات الشرعية بل هي من الامور الاعتبارية العرفية التي امضاها الشارع بزيادة بعض القيود والخصوصيات».

وهذا الكلام واضح الدلالة على ان «الملكية» لا واقع لها في نفسها، ولا هي من جعل الاسلام واختراعه في شيء ، وانما هي مجرد تبان واصطلاح من العرف دعت اليه الحاجة والضرورة تماما كما تبانوا على بيع الطماطم مثلا ـ بالوزن ـ و الجوز بالعد، واقرهم الاسلام على ذلك تيسيرا عليهم من جهة ، ولانهم لم يعصوا الله فيه من جهة ثانية ، ومعنى هذا ان الناس لو تبانوا و اتفقوا على الغاء الملكية طوعا وعن طيب النفس ـ لاقرهم الاسلام على ذلك، ولم يلزمهم بابقاء الملكية جبرا وقهرا .. و ايضا معنى هذا ان الاسلام لا نظرية له مستقلة في الملكية ، وانما نظره ورأيه فيها تابع للعرف وجودا واستمرارا ،وبالتالي فلا مذهب اقتصادي للاسلام،لان الملكية هي الدعامة الاولى للانظمة الاقتصادية .

وبعد ، فلا اثر في الاسلام ، ولا في غيره لنظام اقتصادي عالمي ومثالي كامل وثابت لا يتغير ولا يتبدل بتبدل الاوضاع والمستحدثات .

أبدا لا وجود لهذا النظام ، لانه يتفرع عن الاوضاع والمستحدثات، ويرتبط بها ارتباط الحكم بموضوعه ، والفرع باصله .. هذا الى ما ثبت بالتجربة والخبرة الحسية ان كل وضع ، بل كل محسوس ملموس اقتصادا

كان ام غير اقتصاد فهو الى التغير والزوال لامحالة ، واذن فالنظام العالمى خيال فى خيال ..ومن اجل هذا وغير هذا فوض الاسلام الى الناس التنظيم للشؤن الاقتصادية والاحتفاظ باصول الشريعة وقواعدها ، وقال فيما قال: كل شيء ييسر. العيش والراحة، ويحقق العدل والخير للجميع فهو جائز وحلال قديما كان ام جديدا . ومعنى هذا فى جوهره ان كل نظام انسانى عادل لا يضيع فرضا واحدا من فرائض الله ، و لاسنة واحدة من سنن نبيه فهو اسلامى قرانى محمدى ، وعليه يكون للاسلام انظمة اقتصادية لانظام واحد ، وبالتالى فاى القولين افضل وانسب لعظمة الاسلام ، هذا القول ، او القول بان للاسلام نظاما واحد فقط لايتغير ولا يتبدل من يومه الى قيام يوم الدين ؟ .

اطار واحد لجميع الاحكام

فى الشريعة الاسلامية احكام مطلقة لايحدها شيء، وهى التى شرعت لمصلحة الانسان بما هو انسان بصرف النظر عن وضعه الخاص ،مثل رفع القلم عن الصبى والمجنون ، وايضا فى الشريعة احكام مقيدة وتابعة للظروف والاوضاع الخاصة ، وهذه تتبدل وتتطور بحسب تبدل الظروف وتطور الاوضاع كجواز الاقطاع اذا دعت الضرورة .. وللاحكام الشرعية اطار واحد يضمها جميعا مطلقة كانت ام مقيدة ، وهذا الاطار هو الاصول العامة والقواعد الكلية ، ومنها : ضمان الحرية لكل فرد مع العدالة - طبعا - اذ لاحرية بلاعدالة ، ولاعدالة بلاحرية وصيانة الحقوق للجميع ، والتعاون المتبادل ؛ واعتبار المجتمع وحدة متماسكة ، وان حقوقه تسمو

على حقون الافراد ، والاعتراف بكل مايصلح الناس ، وتحريم الاستغلال وكنز الاموال ، ومسؤلية الانسان عن عمله وتقصيره .. الى غير ذلك من القيم الاخلاقيه ، والمبادى الانسانية .

وبهذه المبادى وحدها تقاس جميع الاقوال والافعال ، وفى ضوئها يجوز للمجتهد ان يختار من القوانين الوضعية المستحدثة ويفتى به ، وان لم يكن له عين ولااثر فى كلمات الفقهاء القدامى منهم و الجدد .. فاى حكم انسانى ، اونظام ينبع من حاجات الناس فهو حكم الله ونظامه وقانونه، وان كان جديدا ومن تشريع الشرق اوالغرب .. بل يجب على الفقيه ان يفعل ذلك و بخاصة المرجع المسموع ، كى يثبت للملاء والاجيال ان الاسلام هو دين الحياة والخلود.. بل يجوز للمجتهد ان يراجع الفقه المدون من الفه الى يائه ؛ ، وان يقلم ويطعم على شرط الرسالة المحمدية التى جاءت لصلاح الناس واصلاحهم فى كل زمان ومكان ، ومن اجل هـذا فتحت باب الاجتهاد على مصراعيه ، وجعلته حقا ثابتا للمجتهد ، واوجبت عليه ان يمارسه ، ولايمنع الناس من ثماره .

ولكن اين الذى لايخشى فى الله لومة لائم ؟ . « واذاخذالله ميثاق الذين اؤتوا الكتاب لتبيننه للناس و لا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس مايشترون ـ ١٨٧ آل عمران » .

الاسلام ضدالانظمة الثلاثة

قلنا: ان الشيوعية تلغى الملكية مالا وآلة وعملا وارضا وعقارا، وان الرأسمالية تطلقها للفرد بلاحدود؛ وان الاشتراكية تحدد وتقيد ببعض القيود،

امالاسلام فلايلغى ولايطلق، ولايحدد، بل يفوض لكل مجتمع الرأى فى اختيارماهو اصلح له انتاجاوتوزيعا على شرط كتاب الله وسنة نبيه ، و كل من الانظمة الثلاثة يرفض هذا الشرط و يناوئه، قال تعالى : « وما الحياة الدنيا الامتاع الغرور . . والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا» . وقال الشيوعيون : كلا، لامرد ولاثواب ولاعقاب؛ ولاشيىء الاالدنيا ومتاعها وغرورها . . ويأكل الرأسماليون اموال الناس بالباطل، يتلهون بها عن الله والانسانية ، ويستزيدون من الترف وكنز الاموال على حساب البائسين . . وهددهم سبحانه بقوله : « ذرهم ياكلوا و يتمتعوا و يلههم الامل فسوف يعلمون ـ ٣ الحجر» . . وتؤمم الاشتراكية املاك العباد بالقهر والغلبة ، و تحكم العمال بالدماء والاموال، والله سبحانه يقول : «لاتاكلوا اموالكم بينكم بالباطل الاان تكون تجارة عن تراض منكم ـ ١٠ النساء » . وقال الرسول الاعظم (ص) : « دماؤكم و اموالكم عليكم حرام » .

وبهذا يتبين معنا ان من نسب الاشتراكية الى الاسلام فقد خبط وخلط، وأتخذ من دين الله اداة لدعم الشيوعية والكتلة الشرقية من حيث يريد ؛ اولايريد . و من نسب الرأسمالية بوضعها الحاضر الى دين سماوى فهو عميل مأجور، اوجاهل غير معذور؛ لان الجهل بالواضحات تقصير واهمال؛ ومن قال : للاسلام نظام اقتصادى مستقل بحدوده وقيوده عن كل نظام من هذه الانظمه فهو، ولاشك، نزيه القصد، وصاحب نظرية ايضا، ولكن خانه التطبيق، وكم من عالم نحرير زلت به القدم حين تصطدم خطوطه بعملية

التطبيق ، ومهما يكن فان الامر هين ويسير مادام كل منا يؤمن ويعتقد بان الاسلام يهدف في جميع احكامه و مبادئه الى حياة افضل؛ وانها المثل الاعلى الذين يسعى الانسان بما هو انسان الى بلوغه في كل جيل .

الزكاة :

قرن سبحانه وجوب الزكاة بوجوب الصلاة في العديد من الايات، واهتم بها الفقهاء اهتماما بالغا ، فعقدوا لها في كتبهم باباخاصا، و حددوا نوعها وكميتها وكيفية ادائها ، ومن هم المستحقون لها ، و غير ذلك في كلام طويل ، وتفصيل دقيق .

وتكلم حول فوائدها كثير من ارباب الاقلام ، فرآها بعضهم من باب المساواة ، وآخر من العدل الاجتماعي ؛ وشط ثالث بقوله : ان الهدف منها ازالة الطبقية ، و تحقق الاشتراكية ، و قال رابع : هي عبادة. ولا تعلل العبادات الا بالنص الذى دل عليها ، وامر بها .

والحق ان في الزكاة جانبين : احدهما عبادة حيث يعتبر فيها قصد التقرب الى الله تعالى، وثانيهما حق مالى، و بالنظر الى هذا الجانب يصح لنا ان نعدها من العدل الاجتماعي الالزامى، اما المساواة فيما زاد عن الحق المعلوم الذى ذكره الفقهاء فهي بر واحسان، لا وجوب والزام .. و على اية حال فقد حارب الاسلام الترف والفقر معا، وحث كل غنى ان يبذل ما زاد عن حاجته في سبيل الله؛ وعلى المعوزين . ومن ذلك قول الرسول الاعظم(ص): «من كان معه فضل من ظهر فليعد به على من لا زاد له ، ومن كان له فضل من ظهر فليعد به على من لا ظهر له » . المراد بالظهر المطية والمركب . وفى

حديث ثان : « ايما اهل عرصة امسوا ، و فيهم جائع فقد برئت منهم ذمة الله » .

وهناسؤال يطرح نفسه ، وهومادام الامر كذلك فلماذا لم يحدد الاسلام الملكية الفردية . بمقدار حاجة الفرد فقط ، ويمنعه عن تملك الزائد بدلان يبيح له ذلك ثم يحثه على الصدقة ، و يستدرعطفهوشفقته علىالمعوزين ! . و على الاقل ان يوجب على الاغنياء بذل مـازادعن حوائجهم تماماكما اوجب الزكاة .

الجواب :

ان الاسلام يحرص كل الحرص ان يستكمل الانسان حريته ، و يحتفظ بشخصيته ، و ان يستغل طاقتة فى الابداع و التعمير ، ويبذل فى هذه الميدان كل مالديه من جهد وكفاء ة ، ومن اجلهذا افسح له المجالعلى اساس الحق والعدل . . و فىالوقت نفسه يحرص الاسلام ان يحتفظ الانسان بانسانيته وضميره و وجدانه ، فيتعاطف مع ابناء جنسه بالمالوبالنصيحة والارشاد ؛ وغيرذلك من انواع التعاطف والتعاون . . ولوقيدالاسلام الملكية الخاصة بحاجة الفردلسدفى وجهه بابالتعاون ، والتقربالىالله بعملالبرمن جهة ، و قضىعلى ارادته و طاقته و طموحه منجهة ثانية . . وليسمنشك ان الانسان بلاطاقة وطموح اشبه بالجماد اوالحيوان .

ونحمدالله شكراعلىهدايته ، والصلاة علىمحمد وعترته .

من شرح النهج الجديد

ابتدأت بتأليف كتاب «فلسفة التوحيد والولاية» في شهر المحرم سنة ١٣٩١ هـ . بقم ، وانتهيت منه في جمادى الاولى بمشهد الامام الرضا (ع) في اوتيل سينا ، واعدت النظر فيه في شهر جمادى الثانية بمدينة تبريز ، وانا ضيف على العلامة الشهير حجة الاسلام الميرزا عبدالله مجتهدي ، وانتهت المطبعة منه في اليوم الاول من شهر رمضان المبارك ، وبقي من الملزمة الاخيرة ثلاث صفحات بيض ، فرغب الي القائمون على المطبعة ان املاها بأي شيىء، وفكرت حائراً :ماذا اختار؟ وكنت قد بلغت من «الشرح الكاشف» عن خطب نهج البلاغة الى قول الامام (ع) : «وان بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيه صلى الله عليه وآله» من الخطبة السادسة عشرة ؛ فاخترت للصفحات الباقية شرح هذه الفقرة .

يريد الامام (ع) ان المسلمين اليوم كما كانوا في الجاهلية الجهلاء تحسبهم جمعاً وقلوبهم شتى على مافيهم من سائر العيوب.. وتكلم كثيرون

عن السبب الموجب لتأخير المسلمين ؛ ووضعوا في ذلك المؤلفات؛ وفسروه بالفرقة والشتات ؛ والمخالفة عن امر الاسلام؛ وعدم الالتزام باحكامه وكلامه وكلام الامام يومئ الى ذلك، لانه ربط ولازم بين عدم التقوى والبلية؛ وآيات القرآن صريحة في هذا المعنى: «فلما زاغوا زاغ الله قلوبهم ٥ـ الصف» «والذين اهتدوا زادهم هدى ـ ١٧ محمد» .

ونوجز بيان التلازم والترابط بان المسلم الحق هو الذي يؤمن ويعتقد اولا: وقبل كل شيء بان وراء هذا الكون ذاتا وقوة يجب ان يحبها او يقدسها وايضاً يؤمن ويعتقد بان تلك الذات والقوة هي مصدر الخلق والتدبير ومصدر التحليل والتحريم ، وانها تهاب وترجى ، وتثيب وتعاقب .

ثانياً : ان يترجم المسلم تقديسه وحبه لله . وايمانه بانه تعالى هو وحده الخالق والحاكم والمشرع والمحاسب والمعاقب، ان يترجم ذلك كله بالافعال لا بالاقوال ؛ لان الحب والايمان يقاسان بالاثار والاعمال ؛ اما مجرد النظرية المنطقيه ؛ والحالة النفسية فتشبهان الخيال وحديث النفس.

هذا هو المسلم الحق والاسلام الصحيح، واذا نظرنا الى المسلمين في هذا العصر، واردنا ان نقيم تدينهم على هذا الاساس ـ وجدنا انهم يترجمون تقديس الله بالمظاهر والشعائر كالصوم والصلاة ، وبناء المساجد و الحسينيات؛ اما الايمان بان الله وحده هو المحلل والمحرم ؛ والذي يجب ان يخاف و يرهب ؛ اما هذا الايمان فلا اثر له الا عند القلة القليلة من الافراد ، اما المجتمع الاسلامي على وجه العموم فالاسلام عنده نظرية منطقية تنحصر في الاذهان والاستدلال؛ وعصبية دينية لا تتجاوز الخطرات والاقوال .

ان الدين في مجتمعنا اليوم مجرد «اتيكيت» و «بروتوكول» تماما كالتهنئة في الافراح والتعزية في الاتراح، ولا نرى له اثرا الا في العبرات وضرب القامات، وفي سير المواكب واقامة الحفلات والاذان والصلوات، و فيما عدا ذلك لا اثر للدين الا عند الافراد كما اشرنا. وهكذا كلما كثرت المظاهر الدينية وارتفع طنينها ضعف تاثير الدين من الوجهة العملية حتى قال قائل على صفحات الجرائد: «ان الله لا يوجد بين القوم الذين يؤمنون به». وعسى ان يريد ان الذين يكثرون من التظاهر في الايمان هم ابعد الناس عنه تماما كالكسول البطال يكثر من الثرثرات والتفاهات . . . ان المتدين حقا و صدقا يظهر دينة وايمانه في جميع افعاله وحركاته ، ووجوه نشاطه و اخلاقه لا في مجرد الشعائر والمظاهر .

فهرست

المقدمة - ٣

العودة الى نقاش الجاحدين ٣ - استفت قلبك ٤ - انا والقارىء ٤ - نجاحي كمؤلف - ٥ - نفثة مصدور ٦ - الفرار ٦ - الى قم ٧ - اعادة النظر بروية ١٠ - تنبيه ١١ .

فلسفة التوحيد - ١٥

اثبات الخالق بمنطق الحس والعقل ١٥ - الدين والشباب ١٥ - وجوب البحث والنظر ١٨ - دلالة الكون على علته ٢٠ - نحن والتجريبيون ٢٤ - نحن والبرجماتيون ٣٠ - العلم يدعو الى الايمان بالله ٣٢ - الفلسفة والتأمل العقلي ٣٣ - العلم والتجربة ٣٣ - العلماء المفكرون ٣٤ - القمر ٣٤ - الانسان ٣٩ - الانسان والقرد ٤١ .

صفاته تعالى - ٤٥

التوحيد ان لا تتوهمه ٤٥ - العلة اكمل من المعلول ٤٦ - نفي الصفات ٤٧ - انما هو اله واحد ٥٠ - حسبي الله ٥١ .

الخير والشر ـ ٥٤

هذه المسألة ٥٤ـ ماقيل حول الخير والشر ٥٤ـ معيار الشر والخير ٥٦ـ الاسلام وتحديد الخير والشر ٥٨ ـ شبهة الشر ٥٩ ـ الخلاصة ٦٢ .

فلسفة الاختيار ـ ٦٤

مواضيع ثلاثة ٦٤ ـ معنى القضاء والقدر ٦٤ ـ موضوع القضاء والقدر ٦٥ ـ الايمان بالقدر ايمان بالعلم والعمل ٦٧ ـ هل الانسان مسير او مخير ٧٠ ـ الارادة والاختيار والرضى ٧٣ ـ الجبرية ٧٤ ـ المفوضة ٧٦ ـ امر بين امرين ٧٨ ـ الله ومعصية العبد ٨١ ـ اشكال وحل ٨٣ ـ الشقى والسعيد ٨٤ ـ ليبلوكم ايكم احسن عملا ٨٥ ـ الهدى والضلال ٨٦ .

فلسفة النبوة ـ ٩١

النبوة ٩١ ـ هل العلم يغنى عن الدين ٩٦ .

محمد والقرآن ـ ٩٩

القرآن ومعجزة الانبياء ٩٩ ـ هل لمحمد معجزة غير القرآن ١٠٢ ماهو الدليل على صحة الاسلام ؟ ١٠٥ ـ القرآن والتوراة والانجيل ١١٠ الاسلام والصهيونية والاستعمار ١١٢ ـ اعجاز القرآن ١١٣ ـ التحدى ١١٤ ـ القرآن يتحدى الطغاة ١١٦ ـ اخبار القرآن بالمغيبات ١١٧ ـ البشارة بمحمد ١١٩ ـ اهل الكتاب يعترفون بتحريف كتابهم ١٢١ ـ كتاب اظهار الحق ١٢٧ـ الفتح ١٢٨ـ ايمان العقل والوعى ١٢٩ ـ اسلام على واسلام ابى بكر ١٣٠ ـ الاسلام والقائلون بالحق ١٣٢ ـ من الذين آمنوا

١٣٤ ـ محمدخاتم النبيين ١٣٥ ـ العصمة نوعان ١٣٦ ـ اين هو المعصوم ١٣٨ ـ الشيعة والعصمة ١٤٠ .

فلسفة الولاية ـ ١٤٥

اصول الدين مايجب بلاشرط ومايجب مع الشرط ١٤٥ ـ بساطة العقيدة ووضوحها ١٤٥ ـ اصول الدين على نوعين ١٤٦ ـ مايجب التدين به من غير شرط ١٤٨ ـ ما يجب التدين به على شرط ١٥٠ ـ ما يحرم انكاره فقط ١٥٣ ـ طريق المعرفة الى اصول الدين ١٥٣ ـ التقليد في اصول الدين ١٥٦ ـ الشك في اصول الدين ١٥٧ ـ الغافل واصول الدين ١٥٨ .

من هم اهل البيت ١٦٢

الولاية علم ـ ١٦٨

معنى الولاية ١٧٠ ـ اقسام الولاية ١٧٠ ـ التفويض في تشريع الاحكام ١٧٠ ـ الولاية المحمدية لا التكوينية ١٧٢ ـ الولاية الطبيعية ١٧٤ ـ اصل او فرع ١٨٣

حول التسنن والتشيع ـ ١٨٨

ولاية اهل البيت وخلافة ابى بكر ١٨٨ ـ السنة و مبدأ الاعتراف بالواقع ١٩٠ ـ الاسلام و خلافة ابى بكر ١٩٣ ـ لماذا لم يحتج الامام بالنص ١٩٧ ـ لماذا سكت القرآن عن اسم على بالذات ٢٠٢ ـ على والعصمة ٢٠٧ ـ المهدى المنتظر عند الشيعة والسنة ٢٠٩ ـ لماذا الامام الغائب؟ ٢١٠ ـ حياة المهدى المنتظر ٢١٦ . اشارة ـ ٢١٨

فلسفه المعاد ـ ٢١٩

التعجب من المعاد، هو العجب ـ ٢٢١

انا واليوم الآخر ـ ٢٢١ لماذا انكر والبعث ٢٢٣ ـ لماذا وجد الانسان ـ ٢٢٥ ـ هل هذا علم او تحقيق؟ ٢٣٨ ـ لا توحيد ولا نبوة الا مع البعث ٢٢٩ ـ المعاد الجسمانى ٢٣٣ ـ الاكل والماكول ٢٣٦ ـ جهنم والاسلحة الجهنميه ٢٣٧

بين الشيوعية والرأسمالية ٢٤١

قصة هذا الفصل ٢٤٣ ـ فلسفة الشوعيه و نظامها الاقتصادى ٢٤٤ ـ طبيعة الرأسمالية ونظامها ٢٤٧ ـ النظام الاشتراكى ـ ٢٤٨ ـ بين النظام الاقتصادى الشيوعى والاشتراكى ـ ٢٥١ ـ الاسلام والاقتصاد ٢٥٢ ـ اطار واحد لجميع الاحكام ٢٥٨ ـ الاسلام ضد الانظمة الثلاثه ـ ٢٥٩ من شرح النهج الجديد ٣٦٣

للمؤلف :

الوضع الحاضر في جبل عامل .

الفصول الشرعية .

مع الشيعة الامامية .

اهل البيت .

الاسلام مع الحياة .

الله والعقل .

النبوة والعقل .

الاخرة والعقل .

المهدى المنتظر والعقل .

طبعت هذه الكتب الاربعة في مجلد واحد باسم « الاسلام والعقل ».

الفقه على المذاهب الخمسة ،

الحج على المذاهب الخمسة طبع هذان الكتابان في مجلد واحد باسم « الفقه على المذاهب الخمسة » .

الزواج والطلاق على المذاهب الخمسة .

الوصايا والمواريث على المذاهب الخمسة .

الوقف والحجر على المذاهب الخمسة . طبعت هذه الكتب الثلاثة في مجلد واحد باسم «الاحوال الشخصية على المذاهب الخمسة » .

مفاهيم انسانية بكلمات الامام الصادق .

على والقرآن .

فضائل الامام على .

على والفلسفة .

امامة على والعقل .

دول الشيعة .

الشيعة والحاكمون .

الشيعة والتشيع .

نظرات في التصوف ـ

معالم الفلسفة الاسلامية .

المجالس الحسينية .

فلسفة المبدأ والمعاد .

مع علماء النجف .

مع بطلة كربلاء .

هذي هي الوهابيه .

اصول الاثبات .

فقه الامام جعفر الصادق عرضا واستدلالا في ستة اجزاء و٣ مجلدات.

الاثنا عشرية واهل البيت .

التفسير الكاشف في سبعة مجلدات.

من هنا وهناك

فلسفة التوحيد والولاية .

من ذا وذاك .

تجارب محمد جواد مغنيه بقلمه . و لهذا الكتاب وارجاء طبعه ونشره اكثر من قصة «وما نؤخره الا لاجل معدود» .

Library of

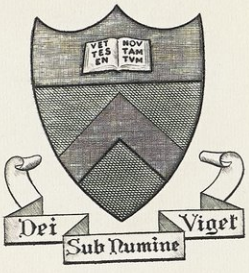

Princeton University.

Princeton University Library
32101 074076546

١٥٠ ريال

الثمن ٦٠٠ ق.ل